تأليف

Margaret MacMillan

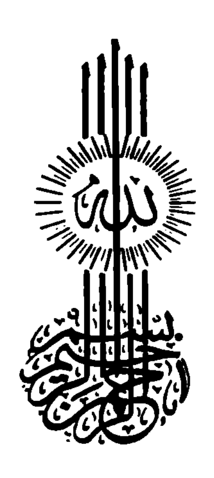
التاريخ: الاستفادة منه أم استباحته

ترجمة

أ.د. هند بنت تركي السديري



يتحدث الكتاب عن مؤتمر فرساي في عام ١٩١٩ وعن الأحداث التي نشأت عنه ويناقش كيف يمكن أن يستخدم التاريخ أو يساء استخدامه على يدي المؤرخين وأساتذة الجامعات والرواة. وهذا الكتاب يلقي الضوء على أحداث معاصرة مثل غزو العراق ويوضح استخدامات التاريخ السيئة واستغلاله لأسباب سياسية أو عرقية أو اقتصادية. كما يطرح أمثلة مختلفة من القرنين العشرين والواحد والعشرين ليبرهن عن سوء استخدام التاريخ و جعله سلعة بين يدي مستخدميه لأهداف سياسية وأيضاً لاستثمار الأحداث التاريخية لتحقيق مكاسب، كما يبين كيف للسياسي أن يستقي أحياناً دروساً من التاريخ و يتجاهل دروساً وأحداثاً أخرى بنفس الأهمية. كما يستعرض الكتاب أحداثاً تاريخية مثيرة للجدل مناقشاً مصداقيتها و مستعرضاً كيفية استخدامها سواءً في الشرق أو الغرب. وهذا الكتاب مهم لفهم الدوافع التي تقبع وراء بعض أهم القرارات السياسية والتي غيرت وجه العالم. ويتميز هذا الكتاب بأنه مناسب للقارئ المتخصص وأيضاً للقارئ العادي كما يطرح الكتاب الكثير من الأسئلة التي تدعوا إلى التفكير والمراجعة.




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

التاريخ: الاستفادة منه أم استباحته

تأليف

Margaret MacMillan

ترجمة

أ. د. هند بنت تركي السديري

أستاذ الأدب الإنجليزي - كلية الآداب - جامعة الأميرة نورة





فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ماكميلان ،مارجريت

التاريخ :الاستفادة منه أم استباحته / مارجريت ماكميلان ؛ هند بنت تركي السديري - الرياض ،١٤٣٦هـ

١٩٠ ص ١٧ × ٢٤سم

ردمك ٨-٣٨٦-٥٠٧-٦٠٣-٧٨

١- التاريخ ٢- التاريخ - مصادر

أ. السديري ، هند بنت تركي (مترجم) ب. العنوان

ديوي ٩٠٧, ٢ ١٤٣٦/٥٢٢٦

رقم الإيداع : ١٤٣٦/٥٢٢٦

ردمك : ٨ - ٣٨٦ - ٥٠٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨

هذه ترجمة عربية محكمة صادرة عن مركز الترجمة بالجامعة لكتاب:

The Uses and Abuses of History
By: Margaret Macmillan

© Profile Books Ltd., 2010

وقد وافق المجلس العلمي على نشرها في اجتماعه الثالث عشر للعام الدراسي ١٤٣٥ /١٤٣٦هـ المعقود في تاريخ ١١/ ٥/١٤٣٦هـ الموافق ٢/٣/٢٠١٥م..



الإهداء

إلى بنات وأبناء أخوتي وأخواتي

مقدمة المترجمة

كتاب "التاريخ : الاستفادة منه أم استباحته" لأستاذة التاريخ الكندية مارجرت ماكميلان بجامعة أكسفورد ممتع ومفيد جداً كما يقدم بانوراما متنوعة من الأحداث والقراءات التاريخية لها بلغة بسيطة سلسة. وتغطي فيه الكاتبه نطاقاً واسعاً من تاريخ العالم الذي قد يكون مفخرة للبعض ومؤلماً للبعض الآخر ومذكرًا بأحداث أليمة.

كما تناقش الكاتبة فيه كيفية استخدام الإنسان للتاريخ وكيف يسيئ أحياناً استخدامه له ، فقد يكون التاريخ محرضاً لأعمال قومية أو زعامة دولية أو انتكاسة اقتصادية واجتماعية وسياسية. والكاتبة تقدم أمثلة تاريخية لكل فكرة تطرحها مما يوضح المعنى ويزيد من قوة الفكرة المطروحة.

تبين الكاتبة كيف قام العديد من السياسيين والقادة بالإساءة إلى التاريخ وتطويعه ليخدم مصالحهم مما نتج عنه تاريخ مزيف أفرز مزيداً من القهر والألم وتمثّل على ذلك الزعيم الألماني النازي رودلف هتلر وكيفية تعامله مع اليهود. ومما استشهدت به كذلك اليونان حين تناست ستة قرون من الحكم العثماني وواجهت تركيا في معركة خسرت فيها الكثير وانتجت جلاء العديد من الأبرياء سواءً من الاتراك أو اليونانيين من ديارهم التي لم يعرفوا سواها وتعايشوا فيها لقرون عديدة مع جيرانهم في سلام تام .

وتؤكد الكاتبة على أهمية التاريخ وفعاليته حين يستخدم بالطريقة الصحيحة فهو مليء بالأمثلة والتجارب التي تكون مخزوناً مهماً يساعد على اتخاذ القرارات السليمة

كما أن له وجهاً آخر حين يستخدم بأيدي القادة المتطرفين وينتج شعوراً بالقهر والرغبة بالانتقام لدى الشعوب.

و يتمحور الكتاب حول نقاط أساسية هي :

ديمومة التاريخ

إساءة استخدام التاريخ لمصالح ذاتية ومكاسب سياسية

شهود الحدث ليسوا دائماً هم الأفضل في نقل الحقيقة

قد لا تكون الأحداث ومسبباتها واضحة في زمانها ولكن بعد فترة من الزمن تتبين أسباب أخرى كانت وراء مواجهات عسكرية أو مذابح جماعية أدت إلى إنهيار دول وإلى تفكك اتحادات دولية مؤدية بالتالي إلى تشرد وجوع وخوف يشمل البشرية .

يقدم الكتاب جميع هذه الدراسات والأمثلة التاريخية بلغة بسيطة راقية تناسب المتخصص وغيره والكتاب بهذا الشكل مفيد لجميع القراء ويندرج تحت الكتب الثقافية التي تضيفُ بعداً تاريخياً للثقافة الإنسانية.

المترجمة

المقدمة

نحن دائماً نصنع التاريخ دون أن نشعر تماماً مثل الرجل الذي اكتشف أنه قادر على الكتابة. نريد أن نخلق معنى لحياتنا وغالباً نتساءل عن مكاننا في مجتمعاتنا وكيف أصبحنا هنا؟ لذلك نحكي لأنفسنا قصصا، ليست دائماً حقيقية، ونطرح أسئلة عن ذاتنا. هذه القصص والأسئلة تقودنا حتماً إلى الماضي، كيف كبرت لأكون الشخص الحالي؟ من والدي وأجدادي؟ كلنا كأفراد نتاج تاريخنا والذي يشمل مكاننا الجغرافي وزمننا وطبقتنا الاجتماعية وتاريخ عائلتنا، أنا كندية الجنسية وترعرعت في كندا وبذلك نعمت بفترة استثنائية، وغير معتادة في تاريخ العالم، من السلام والاستقرار والنجاح، وهذا بالتأكيد أثر على رؤيتي للعالم، ربما بتفاؤل أكثر تجاه رؤيتي للأشياء من لو أني ترعرعت في أفغانستان أو الصومال، وأنا أيضاً نتاج تاريخ والدي وأجدادي، كبرت ولدي معرفة غير كاملة ومتفرقة بالتأكيد عن الحرب العالمية الثانية، والتي شارك فيها والدي، والحرب العالمية الأولى والتي حارب فيها جدي.

نستخدم التاريخ لنفهم أنفسنا ويتوجب علينا استخدامه لنفهم الآخرين، فعندما يصاب أحد معارفنا بفاجعة فإن معرفتنا بذلك تساعدنا على تجنب ما يؤلمه (وبالمثل إذا عرفنا أنه نال حظاً جيداً فإن ذلك يجعلنا نتعامل معه بطريقة مختلفة!) لا يمكن أن نتصور أننا جميعاً متشابهين، وهذا حقيقة في الأعمال والسياسة وكذلك في العلاقات الشخصية، كيف يمكن لنا نحن الكنديون فهم مشاعر القوميين الفرنسيين في كيوبيك؟

إذا لم نعرف شيئاً عن الماضي الذي أثر ولا يزال يؤثر فيهم وهو ذكريات الانتصار البريطاني في عام ١٧٥٩م والإحساس بتحول السكان المتحدثين بالفرنسية إلى مواطنين من الدرجة الثانية أو الشعور المزيج من الزهو والغضب والذي يشعر به الكثير من الأسكتلنديين تجاه بريطانيا بعد اكتشاف النفط في أسكتلندا؟ وإذا لم نعرف شيئاً عن معنى خسارة الحرب الأهلية وإعادة البناء للبيض الجنوبيين في الولايات المتحدة فكيف نفهم ضغينتهم تجاه البيض الشماليين والتي لا تزال حية حتى اليوم؟ ولا يمكن فهم تعقيدات العلاقات بين الأعراق المختلفة في الولايات المتحدة دون معرفة تاريخ الرق والتفرقة العنصرية والعنف المتكرر والذي عانى منه السود حتى بعد التحرير، وفي العلاقات الدولية، كيف يمكننا فهم العداء العميق بين الفلسطينيين والإسرائيليين؟ دون معرفة شيء عن صراعاتهما المأساوية.

اشتهر قول هنري فورد، التاريخ مستودع، ويصعب علينا أحياناً، ربما في شمال أمريكا على وجه الخصوص، التسليم بأن التاريخ ليس موضوعا ميتا، لا يرقد التاريخ في الماضي بأمان لننظر إليه حين نشعر بالرغبة في ذلك، يمكن أن يكون التاريخ مفيدا، ولكنه أيضاً خطير جداً، ومن الحكمة النظر إلى التاريخ على أنه أحياناً معتدل وغالباً مرير، يرقد تحت الحاضر ويؤثر بصمت في مؤسستنا، وطريقة تفكيرنا وما نحب ونكره بدلا من النظر إلى التاريخ ككومة من الأوراق الميتة أو مجموعة مغبرة من الصناعة البشرية نرجع له حتى في شمال أمريكا بحثاً عن الشرعية والعظة والإرشاد. غالباً تستمد الشرعية من التاريخ سواء لهويات المجموعات، أو لمطالب، أو للتبرير. تشعر بمعنى لحياتك إذا كنت فرداً في مجموعة أكبر ووجودها يسبق وجودك وستعيش بعدك (حاملة بعضاً من وجودك إلى المستقبل) أحياناً نسيء استخدام التاريخ، منشئين تاريخاً من جانب واحد أو تاريخ كاذب لنبرر التعامل السيئ مع الآخرين، كالاستحواذ على

أراضيهم مثلاً أو قتلهم، وهناك العديد من الدروس والعظات التي يقدمها التاريخ ومن السهل أن تختار ما تريده ومن الممكن استخدام الماضي لأي أمر في الحاضر، ونحن نسيء استخدام التاريخ حين نختلق أكاذيب عن الماضي أو نكتب تاريخاً من وجهة نظر أحادية. يمكن أخذ دروس من التاريخ سواءً بحذر أو بشكل سيء. وهذا لا يعني ألا نلجأ للتاريخ للفهم والدعم والمساعدة، ولكن يجب أن نفعل ذلك بعناية.

المحتويات

الفصل الأول

جنون التاريخ
THE HISTORY CRAZE

يحظى التاريخ، وليس بالضرورة أن يكون هو التاريخ الذي يعمل عليه المتخصصون، بشعبية حالياً حتى في شمال أمريكا حيث يميل الناس إلى النظر إلى المستقبل بدلاً من الماضي، وقد يفسر ذلك في جزء منه بقوة الأسواق. أصبح الناس أفضل تعليماً الآن، وخاصة في الدول المستقرة اقتصاديًّا، ولدى شعبها وقت فراغ أكبر كما أنهم يتقاعدون من العمل أبكر من الماضي، ولا يريد الجميع أن يتقاعد في مجمع سكني بمكان تدفئه الشمس ويقود عجلة للمتعة، يمكن للتاريخ أن يعطي معنى لحياتنا، ويمكن أن يكون أيضاً مدهشاً، كيف يمكن لأفضل الروائيين أو المسرحيين أن يخلق شخصية مثل القيصر أغسطس (Augustus Caesar) أو كاثرين العظيمة أو جاليلو أو فلورنس نايتنجايل (Catherine the Great, Galileo, Florence Nightingale)؟ وكيف يمكن لكتاب السيناريو كتابة قصص مغامرات أو مآسي إنسانية أفضل مما هو موجود بالتاريخ، وهي آلاف مؤلفة عبر القرون من التاريخ المسجل؟ هناك تعطش للمعرفة وللمتعة وقد استجابت الأسواق لذلك بحماس.

وفي هذا الإطار تقيم المتاحف ومعارض الفن عروضاً كثيرة عن شخصيات تاريخية مثل بيتر العظيم (Peter the Great) أو عن مرحلة تاريخية معينة، وتفتح متاحف جديدة حول العالم كل سنة احتفاءً بذكرى لحظات تاريخية عادة مروعة من الماضي. في الصين متاحف مكرسة للفظائع التي ارتكبتها القوات اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية، وتحتوي واشنطن والقدس ومونتريال على متاحف عن محارق الهولوكوست كما أن هناك قنوات تلفزيونية مخصصة كلياً للتاريخ (ويجب القول بأنها غالباً تعرض ماضيا يتشكل في مغلبه من المعارك وحياة الجنرالات)، وترزح المواقع التاريخية تحت وطأة السياح، وربح الأفلام التاريخية- على سبيل المثال: الأفلام الحالية للملكة إليزابث الأولى (Queen Elizabeth) فقط- وتبين غزارة النشر للتاريخ المرغوب فيه معرفة الناشرين بطرق تحقيق الربح، ويعاد عرض الأفلام الوثائقية للمخرج كن برنز (Ken Burns) بدءاً من السلسة الكلاسيكية للحرب الأهلية حتى فيلمه عن الحرب العالمية الثانية. وفي كندا جذب فيلم تاريخ البشر لمارك ستارويز ملايين المشاهدين (Mark Starowicz's People History)، وتحظى هستوريكا منتز (The Historica Minutes) والتي أنتجتها مؤسسة خاصة هي هستوريكا والمكرسة للتعريف بالتاريخ الكندي بشعبية كبيرة في أوساط المراهقين الكنديين الذين عادة ما يقومون بعمل مشاريعهم المدرسية منشئين مسوداتهم الخاصة، وفي المملكة المتحدة أصبح ديفيد ستاركي (David Starkey) غنياً ومشهوراً بفضل سلسلة الحكام البريطانيين الذين كتب عنهم مثل هؤلاء الملوك والملكات.

تخصص العديد من الحكومات الآن إدارات خاصة معنية بإحياء ذكرى الماضي- أو كما يسمى عادة باحترام "التراث". وتشجع إدارة التراث الكندي في كندا الكنديين على معرفة التاريخ والثقافة والأراضي الكندية "التراث هو كنزنا المتراكم، ورثناه ونحن

نورثه لأبنائنا". ويشمل اسم التراث فعلياً أي شيء: اللغة والرقصات الشعبية، ووصفات الطعام، والآثار واللوحات، والعادات والمباني، وهناك جمعيات للاحتفال بالسيارات القديمة أو المسدسات أو بطاقات البيسبول أو صناديق أعواد إشعال الثقاب، وفي إنجلترا أنشأ مهندس معماري شاب جمعية "حفظ وحماية أنابيب المداخن"، كما تنص رسالتها، "المحافظة على ملامح العصر".

كما أعلنت فرنسا والتي لديها وزارة ثقافة نشطة لعدة عقود، عام ١٩٨٠ م عاماً للتراث الوطني (Annee du Partimoine). وخرج المواطنون بزي يعيد ذكرى اللحظات العظيمة في تاريخهم. وفي السنوات اللاحقة، تزايدت أرقام المواقع التراثية والمعالم التذكارية على اللائحة الرسمية وظهرت على سبيل المثال، أسماء متاحف جديدة مخصصة للأحذية الخشبية أو غابات الكستناء. وفي نهاية العقد - أي في عام ١٩٨٩، أنشأت الحكومة لجنة خاصة للإشراف على الاحتفاء بذكرى مرور مائتي عام على قيام الثورة الفرنسية.

وانفجر في فرنسا اهتمام بإعادة الماضي وإقامة الاحتفالات، في أشهر وأسابيع وأيام معينة. وبالطبع المناسبات لا تنتهي: بدايات ونهايات الحروب، مولد ووفاة الشخصيات المشهورة، أول إصدار لكتاب أو أول عرض لأوبرا، أو إضراب أو استعراض أو محاكمة أو ثورة أو حتى الكوارث الطبيعية، وليست جميع هذه النشاطات مبادرات حكومية فالكثير منها مبادرات تطوعية من السكان. أحيا شالونز سور مارن (Chalons-sur-Marne) ذكرى اختراع التعليب ورغبة المجتمعات في زيارة الماضي ليست فقط محصورة في فرنسا فمدينتنا بيرث وأونتاريو احتفلتا في عام ١٩٩٣ ولمدة أسبوع بالجبنة العملاقة والتي أُرسلت إلى الاحتفال العالمي في شيكاغو عام ١٨٩٣م. وكمشاريع انتبهت الحكومات المحلية وقطاع التجارة إلى أهمية الماضي للسياحة.

تميل الحكومات إلى الاعتقاد بأن الاهتمام والعناية بالماضي سوف يعود بالنفع على الحاضر. وفي الولايات المتحدة يفترض قانون المحافظة على التاريخ الوطني أن الإحساس بالماضي يساعد في تنشئة أمريكيين صالحين. ولذلك يجب المحافظة على تراث الأمة وينص القانون على أنه "من أجل إعطاء الأمريكيين الشعور بالانتماء". يعكس هذا الشعور عنوان الأمر التنفيذي للرئيس جورج دبليو بوش (George W. Bush) للعام ٢٠٠٣ "أحمِ أمريكا". إن الحكومة الفيدرالية ستعرف وستدير الممتلكات التاريخية التي تمتلكها كأصول يمكن أن تدعم مهام القسم والوكالة بينما تشارك في المصلحة العامة والنشطة لاقتصاد مجتمعات الأمة وتبني اهتماماً أوسع لتطوير الولايات المتحدة وقيمها الأساسية".

ومن الواضح أن التعلق بالماضي ليس فقط بسبب قوى السوق وسياسات الحكومة. التاريخ يدعم أنواعاً متعددة من الاحتياجات،بدءاً من فهم أكبر لذاتنا وعالمنا إلى الإجابة عن أسئلة عما يتوجب علينا فعله. يبدأ الاهتمام بالماضي بالنسبة للعديد من الناس من ذاتهم. وهذا في جزء منه نتيجة لعلم الأحياء، والبشر مثل بقية المخلوقات لهم بداية ونهاية وبينهما تكمن قصتهم. وربما أيضاً لهذا صلة بالعلاقات فاليوم الغالبية العظمى من الناس تعيش في عالم يتغير بصورة سريعة حيث لا وجود للعلاقات طويلة المدى، والتي كانت فيما مضى مؤكدة، سواءً كانت هذه العلاقة مع أماكن أو بشر آخرين مثل العائلة أو الأصدقاء. وجزء من الافتتان الحالي بالحفاظ على التراث ينبع من الخوف من فقدان أجزاء من الماضي لا تقدر بثمن ولا تعوض سواءً كان ذلك لغات تموت أو مباني تبلى. وأحياناً يبدو وكأن المسؤولين عن المحافظة على هذا التراث يريدون من الزمن التوقف ولنأخذ مثلاً على ذلك الجدل الدائر في مدينة نيويورك عما إذا كان يجب إعادة بناء منطقة لور ايست سايد (Lower East Side) واستبدال المباني القديمة بمبانٍ

مناسبة وأفضل صحياً؟ أو المحافظة على المباني القديمة كما صرح المتحدث الرسمي لمتحف المباني لنتذكر التجربة التي عاشت وعملت من داخلها تلك المباني.

تسعة عشر مليون شخصٍ حول العالم مسجلين الآن على موقع "إعادة لم شمل الأصدقاء" والذي يعمل على ربطك مع أصدقائك الذين اختفوا من حياتك من ماضيك البعيد، وحتى أصدقاؤك على مقاعد الدراسة الأولى. وإذا رغب أي شخص بأن يذهب لأبعد من ذلك - حيث إنَّ جل الناس يفعل ذلك، فإن بإمكانه البحث في علم السلالة. ومن السهل كما يقول المتحدث باسم كلية أرمز (College of Arms) بلندن " أن يصبح كل شيء سريع الزوال في مجتمع استهلاكي." وتحتوي معظم الإرشيفات الوطنية على أقسام خاصة على حدة للزوار المستديمين الذين يريدون البحث في تاريخ عائلاتهم. وقامت طائفة المورمن (Mormons) مشكورة بجمع سجلات الأبرشية عن السلالات وسجلات المواليد من أجل أهدافهم، وتحتوي مدينة سلت ليك على مجموعة هائلة من السجلات، كما أن الشبكة العنكبوتية ساعدت في تسهيل البحث باحتوائها على العديد من المواقع التي تمكنك من البحث عن أجدادك وهناك مواقع مكرسة لاسم عائلة واحدة فقط. وفي كندا والمملكة المتحدة، يقدم البرنامج الشعبي "من تكون باعتقادك؟" المشاهير وعملية تقصي جذورهم حيث يقتفي أثر عائلة الشخص المشهور ويعود بنتائج مدهشة.

وقد ساعدت التطورات العلمية الحديثة على الوصول إلى ما هو أبعد من السجلات المطبوعة. فتحليل الشفرة الوراثية (DNA) يعني أنه بإمكان العلماء الآن تقصي سلالة الشخص من ناحية الأم وأيضاً يمكن إيجاد أشخاص يشتركون مع الشخص في الجينات، وفي ظل وجود قواعد بيانات المعلومات تزايدت إمكانية معرفة كيف هاجر البشر عبر السنين، هذا الكشف مهم لأي شخص يريد أن يعرف ماهو

أبعد مما هو مسجل على الورق وخاصة لهؤلاء الذين لم يكن لديهم توثيق ورقي كافي للبدء في ذلك. والمهاجرون إلى العالم الجديد الذين وصلوا في موجات كبيرة من أوروبا في القرن التاسع عشر والعشرين للهرب من حياة بائسة وغير مضمونة في الأغلب وفقدوا جميع روابطهم مع الماضي وأحياناً حتى أسماءهم القديمة. فتح تحليل الشفرة الوراثية(DNA) فجأة الباب لمعرفة أصول الأمريكيين المتحدرين من العبيد، الذين لم يكن لديهم أي بارقة أمل لاستعادة الطريق الذي سلكه أجدادهم من إفريقيا ولا معرفة ماذا حل بهم بعد وصولهم للولايات المتحدة؟. هناك برنامج مؤثر اسمه "حياة الأمريكان الأفارقة" (African American Lives) عرضته قناة بي بي اس (PBS) في ٢٠٠٦ حلل الشفرة الوراثية (DNN) لأمريكيين سود مشاهير من بينهم أوبرا وينفري (Oprah Winfrey) وكوينسي جونز (Quincy Jones). وأحيانا تكون النتائج مخيبة : فقصص الأسرة عن الجد الأكبر والذي ينحدر من سلالة ملوك تكون مجرد قصص وهمية. وأحياناً تكون هناك مفاجآت، مثل اكتشاف بروفيسور محاسبة مغمور في فلوريدا أنه ينحدر من سلالة جنكيز خان (Genghis Khan). ويعتقد البروفيسور أنه ربما يدين بمهاراته الإدارية إلى جده المرعب.

هذا الافتتان الحالي بالتاريخ الشخصي للناس يمكن أن يكون نرجسياً، كم من الوقت يجب أن يمضي والناس يحدقون إلى أنفسهم على كل حال؟ ولكنه أيضاً ينبع من الرغبة بمعرفة ما الذي يجعل الناس على ماهم عليه وما الذي صنع عالمهم الذي يعيشون فيه؟. لو استطاع الناس أن يروا تاريخهم من منظور أوسع فبإمكانهم أن يروا بأنهم ليسوا فقط نتاج أفراد معينين ولكن نتاج مجتمعات وثقافات كاملة. قد يجد أفراد مجموعات عرقية معينة أنهم ورثوا آراء أو معتقدات عن مجموعات عرقية أخرى كما يمكن أن يكتشفوا أن الآخرين أيضاً ينظرون إليهم بطريقة خاصة، ولقد صاغ التاريخ

قيم البشر ومخاوفهم وتطلعاتهم وما يحبون وما يكرهون وحين نبدأ بفهم ذلك نبدأ بإدراك بعض من سطوة الماضي.

حتى عندما يعتقد الناس أنهم قاموا بخطوات فذة في اتجاه جديد فإن مثالهم يأتي في الأغلب من الماضي. كم مرة رأينا ثورات التزمت ببناء عوالم جديدة تنحرف لا شعوريا إلى أساليب وعادات الأنظمة التي حلت محلها! أتى نابليون (Napoleon) إلى السلطة كنتيجة للثورة الفرنسية ولكن البلاط الذي أسسه كان على شاكلة بلاط البوربون (Bourbons). وعاش كبار القادة الروس الشيوعيون في مبنى الكرملين (Kremlin) مثلما عاش فيه من قبلهم القياصرة. ونظر ستالين (Stalin) إلى إيفان الرهيب وبيتر العظيم كأسلاف له، وأتوقع كذلك نظر بوتين (Vladimir Putin) إليهما بنفس النظرة حين كان رئيساً. احتقر الشيوعيون الصينيون مجتمع الصين التقليدي ولكن قيادتهم العليا اختارت العيش في قلب بكين التي ضمت في الماضي البلاط الإمبراطوري. وانسحب ماو زدونغ (Mao Zedong) إلى عزلة غامضة كما فعل الأباطرة عبر القرون. يقول كارل ماركس (Karl Marx) "يصنع الرجال تاريخهم" ويكمل" ولكنهم لا يصنعونه كما يريدون، فهم لا يصنعونه تحت ظروف يختارونها ولكن بفعل ظروف موجودة بالفعل، وجدت ونقلت من الماضي".

خلال الحرب الباردة، بدأ التاريخ وكأنه فقد الكثير من سطوته السابقة. انقسم العالم الحديث الذي ظهر عام ١٩٤٥م، إلى نظامي تحالف عظيمين وأيديولوجيتين متنافستين، وتدعي كل منهما أنها تمثل مستقبل الإنسانية، كانت الرأسمالية الأمريكية الإمبريالية والشيوعية على وشك، كما تقولان، بناء مجتمعات جديدة وربما أيضاً بشر جدد. وذهبت الصراعات بين الصرب والكروات والألمان والفرنسيين والمسيحيين والمسلمين كما يقول ليون تروتسكي (Leon Trotsky) في مقولته المعروفة إلى مزبلة التاريخ،

وبالطبع كان التهديد بحرب نووية مدمرة دائماً حاضراً. وبدأ العالم وكأنه شارف على نهايته أثناء أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢م. ولكن ذلك لم يحدث، وفي النهاية نسي معظمنا الموضوع، أخذ موضوع الأسلحة النووية منحًى أخف، ففي نهاية المطاف ومع تعادل كفتي الخوف لدى القوتين جعلهما لا تجرؤان على مهاجمة بعضهما دون تعريض دولتيهما للهلاك، في ذلك الوقت. توقع الناس أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي سيبقيان أسيرين لصراعهما، بين الحرب والسلام ربما للأبد، وفي تلك الأثناء تمتع العالم النامي بازدهار لا يضاهى، وظهرت على مسرح الأحداث قوى اقتصادية جديدة كان العديد منها في آسيا.

كان طلابي دائماً يرددون بأني محظوظة لأني أدرس التاريخ، ويظن الطلاب أنك عندما تلم بفترة ما أو أحداث حرب إلماماً كافياً فإنك لا تحتاج إلى التفكير فيها مرة ثانية، من المؤكد أنه أمر جيد ألاَّ تحتاج إلى إعادة كتابتك ملاحظات محاضرتك في كل مرة تلقيها، والماضي على كل حال زمن انقضى ولا يمكن تغييره، وكأن حال الطلاب يقول أن التاريخ ليس مُتطلباً مثله تماماً مثل اقتلاع حجر من الأرض، ممتع أن تقتلعه ولكنه ليس ضروريا، لا يهم ما حدث في ذلك الوقت إنه الحاضر الآن.

تمتع العالم حين انتهت الحرب الباردة فجأة في العام ١٩٨٩م، بانهيار الإمبراطورية السوفيتية في أوروبا، بفترة قصيرة من التفاؤل ولكنه فشل بشكل عام في فهم بأن ما أخذ على وجه التأكيد بعد عام ١٩٤٥م حل محله نظام عالمي معقد. وبدلاً من ذلك اعتقد الناس أن بقاء دولة عظمى واحدة هي الولايات المتحدة سوف تكون بالتأكيد قوة خير وسوف يستفيد السوفييت من "مردود السلام" لأنه يفترض انتفاء الحاجة إلى صرف مبالغ طائلة على التسليح، وانتصرت الديمقراطية الليبرالية وذهبت الماركسية إلى سلة النفايات، والتاريخ كما يقول فرانسيس فوكوياما (Francis Fukuyama) وصل إلى النهاية وتتجه المليونية التالية نحو عالم قانع ومزدهر ومسالم.

في الحقيقة بقيت العديد من الصراعات والتوترات القديمة متجمدة تحت سطح الحرب الباردة، وصاحب نهاية ذلك الصراع الكبير أحلام ظننا أنها ذابت لكن يبدو أنها قد طال كبتها وظهر الكره على السطح مجدداً، واحتلت عراق صدام حسين الكويت متذرعة بتاريخ مشكوك بصحته. واكتشفنا أنه لا زال مهماً الإقرار بأنَّ لدى الصرب والكروات الكثير من الأسباب التاريخية لكره بعضهما وخوفهما من بعض، وأن هناك من يفتخرون بتاريخهم من داخل الاتحاد السوفيتي ويريدون استقلالهم. كان على الكثير منا أن يعرف من هم الصرب والكروات وأين تقع أرمينيا أو جورجيا على الخريطة وشاهدنا ولادة التاريخ من جديد في كلمات عنوان كتاب ميشا جلني (Misha Glenny) عن وسط أوروبا، وبالطبع وكما يحدث دائماً ذهب البعض بعيداً إلى الجانب الآخر في لوم كل الأخطاء التي حدثت في البلقان في تسعينيات القرن الماضي، ولنأخذ أكثرالحالات الفاضحة عن "الكره المتجذر" والتي تغاضت بكل أريحية عن شر سلوبدان ميلسوفيك (Solbodan Milosevic)، الرئيس في ذلك الحين، وأمثاله الذين كانوا يعملون جهدهم لتدمير يوغسلافيا ومسح البوسنة. سمحت هذه المواقف للقوى الخارجية أن تقف وتفرك يديها بلا حول ولا قوة لوقت طويل.

كان العقدان المنصرمان فترة مضطربة ومربكة وليس غريباً عودة الكثير من الناس إلى التاريخ محاولين فهم ما يحدث، وارتفعت مبيعات كتب عن تاريخ البلقان أثناء تجزئة يوغسلافيا إلى مناطق. واليوم يسرع الناشرون لشراء حقوق نشر تاريخ العراق أو لإعادة نشر الكتب القديمة. وعاد كتاب تي. أي. لورنس *"أعمدة الحكمة السبعة"* t. e. Lawrence's *Seven Pillars of Wisdom*، والذي يصف صراع العرب ضد تركيا من أجل الاستقلال، ليتصدر المبيعات مجدداً. وله شعبية خاصة لدى الجنود الأمريكان الذين يخدمون في العراق، بينما لم يجد كتابي عن مؤتمر السلام في باريس عام

١٩١٩م، حيث أرسيت الكثير من أسس العالم الحديث فيه، ناشراً في ثمانينات القرن الماضي، وكما قال أحد الناشرين لا أحد يريد أن يقرأ عن اجتماعات مجموعة من الرجال البيض المتوفين يتحدثون عن اتفاقيات سلام نسيت منذ وقت طويل، وبحلول التسعينيات يبدو أن الموضوع أصبح ذا علاقة أكثر.

وعالم اليوم بعيد جداً عن ركود الحرب الباردة، ويبدو أقرب إلى العقد السابق لعام ١٩١٤م وبداية الحرب العالمية الأولى أو العالم في عشرينيات القرن الماضي. في تلك الأيام، ومع بداية ضعف الإمبراطورية البريطانية وتحدي القوى الأخرى من ألمانيا إلى اليابان إلى الولايات المتحدة ومحاولة تولي السيطرة العالمية، أصبح العالم غير مستقر، والآن لا زالت الولايات المتحدة أقوى الدول الموجودة ولكنها ليست كما كانت في الماضي، وتضررت كثيراً بتورطها في حرب العراق، كما تواجه تحديات من القوى النامية في الصين والهند ومنافستها القديمة روسيا. وتجلب المشاكل الاقتصادية كما كان الحال في الماضي، ضغوطًا داخلية من أجل الحماية والحواجز الجمركية. كما تتحدى الإيديولوجيات- سابقا الفاشية (fascism) والشيوعية، والآن الاصولية الدينية- افتراض الليبرالية العالمية وتشن حرباً على قوى ترى أنها تقف في طريقها ولا يزال العالم كما كان في النصف الأول من القرن العشرين القوى غير المنطقية للقوميات العرقية.

الفصل الثاني

تاريخ يبعث الاطمئنان
HISTORY FOR COMFORT

ليس سهلاً التعامل مع المواضيع المبهمة، وليس مفاجئاً تعلقنا بما يمكن أن يساعدنا، بما في ذلك التاريخ، وسوف آتي على الحديث عن الاستفادة من التاريخ أو استباحته في أخذ القرار لاحقاً ولكنِي أريد الآن الإجابة على السؤال التالي: لماذا يبدو التاريخ مطمئناً ومغريا لأول وهلة؟.

بداية يمكن للتاريخ أن يقدم الوضوح حين يبدو الحاضر مشوشاً ومضطرباً.

حاول المؤرخون عبر السنين تمييز أنماط كبرى للتاريخ أو ربما نمطاً واحداً كبيراً، يشرح كل شيء، كما يقدم التاريخ لبعض الأديان دليلاً على توجيه المقصد الإلهي، فبالنسبة للفيلسوف الألماني جورج ولهلم فردرك هيجل (George Wilhelm Friedrich Hegel) فإن التاريخ يبين عمل الروح اللامتناهية (جيست) (*Geist*) على الأرض، وبنى كارل ماركس نظريته "التاريخ العلمي" على هيجل والتي تدَّعي وتتبنّى الرؤية القائلة بأنَّ التاريخ يسير لا محالة إلى نهايته المحتومة، والمتمثِّلة في الانتشار التام للشيوعية، أما جوهن جوتفريد هردر (Johann Gottfried Herder)، المفكر الألماني المؤثر من القرن الثامن عشر، فإنه يرى أن التاريخ وضح تطور شعب من أصول ألمانية ظهر منذ قرون،

بالرغم من أن هذا الشعب لم يصل إلى قوة مكتملة بالمعنى السياسي. وتؤكد دراسة الماضي للإمبرياليين مثل تشارلز ديلك (Sir Charles Dilke) تفوق العرق البريطاني، ويرى أرنولد توينبي (Arnold Toynbee)، والذي لا تلقى أعماله الآن اهتماماً، أنّ الحضارات تظهر استجابة للتحديات في حين نشاطها، ثم تفشل حين تتحول إلى اللين والكسل، ويختلف الصينيون في نظرتهم للتاريخ عن معظم المفكرين الغربيين الذين يرونه كعملية ثابتة نهائياً. فقد تحدث العلماء الصينيون من منطلق دورة حاكمة تأتي فيها السلالات الحاكمة وتذهب في تعاقب مستمر، متبعة نمطاً لا يتغير في تطورها: الولادة والنضج، والموت وكلها تتم تحت رعاية السماء.

يمكن للتاريخ وربما هذا هو الحال الآن أن يكون مهرباً من الحاضر. وحين يكون العالم معقداً ومتغيراً بسرعة، ليس بالضرورة للأفضل، فليس مستغرباً أن ننظر للوراء ونعتقد خطأ بأن العالم كان أبسط وأوضح. يحلم المحافظون ببلدة صغيرة رسمها نورمان روكويل (Norman Rockwell)، يلعب فيها الأطفال ببراءة في حدائقهم دون رقابة الكبار المزعجة لهم. ويمارس الرجال والنساء أدوارهم بأريحية وتشرق الشمس بسعادة يوم بعد يوم. وفي كندا هناك رسام ولنسمه تريشا رومانس (Trisha Romance) يبيع آلافاً مؤلفة من صور الأطفال المطبوعة على المرايل والبدل، وتعبر الصور عن العصر الفكتوري تقريباً: أحصنة تجر عربات وزلاجات، وتتلألأ الشموع في أشجار الاحتفال بالميلاد المجيد، وتأوي العائلات إلى الدفء قرب نار المدفأة المشتعلة ولا يوجد حزين أو جائع أو أحد رث الملابس في ذلك الزمن. كما يعود اليساريون إلى الماضي إلى أيام العظمة حين كانت الحركة النقابية قوية وكان الرؤساء في حالة استنفار. ويكمن شعور وراء الافتتان بالحرب العالمية الثانية، وبالطبع فإنها كانت بالنسبة للحلفاء آخر حرب واضحة القيم، كان واضحاً أن الألمان النازيين والإيطاليين الفاشيين واليابانيين العسكريين سيئون ويجب هزيمتهم (وذلك بغض النظر عن كوننا متحالفين مع

أعتى الطغاة في القرن العشرين جوزف ستالين Joseph Stalin) لم تعد الحروب واضحة منذ الحرب العالمية الثانية، كانت الحرب الكورية بالفعل، ضرورية لدحر التوسع السوفيتي ولكن محاولة الجنرال دوجلاس مكارثي لتحويلها إلى حرب صليبية ضد الصين الشيوعية أحدثت انقساما داخل الأمريكيين وضد حلفائهم. وكانت حرب فيتنام كارثة على الولايات المتحدة، ويبدو أن احتلال العراق الآن كارثة أخرى.

ونفتقر اليوم إلى الأبطال أو أننا نعي قصور قادتنا، وهذا يساعد على تفسير شعبية ونستون تشرشل (Winston Churchill) وهي شعبية ربما تكون معلنة أكثر في شمال أمريكا منها في المملكة المتحدة. وعلى أي حال، فإن الإنجليز كانت لهم تجربة مباشرة مع تشرشل في مناصب أخرى غير القائد العظيم للحرب العالمية الثانية، يتذكرونه أكثر من خلال عمله الدبلوماسي الطويل بأخطائه واخفاقاته. أما في شمال أمريكا فإن تشرشل الذي يتذكرونه هو الشخصية العظيمة الذي حارب وحده ضد دول المحور وساعد في صنع انتصار الحلفاء، وليس العقل المدبر لمعركة جاليبولي (Gallipoli) المأساوية في الحرب العالمية الأولى أو رئيس الوزراء المريض الذي بقي طويلاً في منصبه في خمسينيات القرن الماضي. وليس مستغرباً شغف جورج بوش الابن بعقد مقارنة بينه وبين تشرشل الأول وليس الثاني.

يعرف القادة السياسيون دائماً أهمية مقارنة أنفسهم بعظماء من الماضي، ويساعدهم ذلك في إضافة مكانة وشرعية كورثة لتقاليد الأمة، حين قارن ستالين نفسه بايفان الرهيب وبيتر العظيم فإنه كان يلتحف عباءة بناة روسيا العظيمة، وأيضاً قارن صدام حسين نفسه بستالين، ومن الماضي العراقي والإسلامي بصلاح الدين، وحاول الشاه الأخير لإيران أن يرسم خطاً عبر القرون يمتد من كوروش وداريوس (Cyrus and Darius) إلى سلالته، ويحب مادزدونغ (Mao Zedong) أن يشير إلى التشابه بينه وبين الإمبراطور كين (Qin) الذي أسس الصين في عام ٢٢١م.

والملاحظ أنَّ حنيننا اليوم إلى أبطال أكبر بكثير من المردود السياسي. فعلى سبيل المثال نحن متلهفون للحصول على شهادة من محاربينا القدامى قبل وفاتهم، لأننا نشعر أن لديهم دروساً نحتاج إلى تعلمها، و قلقون من كيفية إحياء ذكراهم بشكل مناسب. وبتناقص عدد محاربي الحرب العالمية الأولى القدامى، فكرت عدد من الدول بإقامة جنازة رسمية لآخر جندي يموت، ومثل هذه الجنازة لا تقام عادة إلا للقادة المتميزين في الدولة مثل تشرشل ودارت نقاشات ساخنة منها على سبيل المثال: كيف تحدد الجندي الأخير؟ هل يحتسب الجنود الذين قضوا حياتهم في بلدان أخرى غير أوطانهم؟ ماذا لو أقامت حكومة ما جنازة للجندي الأخير ثم اكتشف جندي آخر؟ ففي عام ٢٠٠٦م ظهر فجأة جنديان قديمان في فرنسا.

ولم يُظهر الجنود وعائلاتهم حماساً كبيراً تجاه فكرة الأبهة والمسيرة العسكرية، وحين أعلن الرئيس الفرنسي في ذلك الحين جاك شيراك (Jacques Chirac) عام ٢٠٠٥م بأن آخر جندي سيدفن في مكان خاص، ربما في البانثيون (Pantheon)، كانت ردة الفعل باردة وقال لازر بونتسي (Lazare Ponticelli) بحزم وهو أحد محاربي الحرب العالمية الأولى: " إذا كنت أنا آخر الباقين على قيد الحياة من المحاربين فسأرفض هذا العرض، ستكون إهانة لجميع الذين ماتوا قبلي ولم يُحتف بهم أبداً." أراد بونتسي تأبيناً بسيطاً وتم له ما أراد وقال إنه يعتقد بأنه لا يجب أن ينصرف اهتمام الأمة إلى شخص واحد حينما يكون هناك مئات الألوف من الذين عانوا وماتوا، وتراجع شيراك بسرعة وتحدثت حكومته بشكل ضبابي عن إقامة أي جنازة كمناسبة ترمز للمصالحة الأوروبية.

وفي كندا اُفتتح معهد دومينيون (Dominion Institute) والذي أظهر براعة رائدة في جعل الكنديين يحسون بالذنب لجهلهم الكثير من ماضيهم، وطالب بإقامة مأتم رسمي

لآخر محارب قديم، خضعت الحكومة والتي لم تكن في البداية ملزمة بذلك، لما بدا وكأنه وجهة النظر العامة وسمحت باستفتاء في مجلس الشعب ولم يكن غريبا أن أحداً من الأعضاء لم يجرؤ على التصويت بالرفض في وجه قضية عاطفية مثل هذه. ومرة أخرى، لم يكن أهالي المحاربين متحمسين للموضوع. وهناك شيء آخر جعل الموضوع مربكاً وهو أن أحد الجنديين الباقيين على قيد الحياة زمن التصويت جون بابكوك (John Babcock)، يعيش في الولايات المتحدة منذ بداية عشرينيات القرن الماضي، وهو رجل عجوز صرح في مقابلاته الإعلامية عن محاولاته لممارسة الجنس لأول مرة أثناء الحرب.

تعكس غالباً الرغبة في إقامة جنازة رسمية هموم الأحياء في غالب الحالات، ويحاج الزعيم البريطاني المحافظ، إيان دنكن سميث (Iain Duncan Smith)، وعينه على الناخبين، بأن إقامة جنازة رسمية للمحاربين القدامى ستكون شكلاً من أشكال التكريم لجيل كامل كان هناك وشهد "بداية قرن الرجل المسالم". وصف التأبين الرئيس الإيطالي كارلو ازجلو (Carlo Azeglio)، حين دفنت الحكومة الإيطالية آخر جندي إيطالي بجنازة تشريف رسمية، بأنه "شهادة حية وغالية لتضحية الشباب الذين قاتلوا... من أجل أن تكون بلادنا عظيمة وحرة ومتحدة". وفي كندا، قال رئيس معهد دومينيون رود يارد جرفثز (Rudyard Griffiths): اذا كان هناك زمن ما لكندا والكنديين ليكونوا جريئين وكرماء في تكريمنا لتاريخنا، وتكريم قيمنا المشتركة، فبالتأكيد أن الاحتفاء بالجندي الأخير من الحرب الكبيرة هو ذلك الوقت.

كما أننا نعود إلى ماضينا ليساعدنا على الأقل جزئياً في دعم قيمنا لأننا لم نعد نثق بسلطات الحاضر ونشك أن ديبلوماسيينا يبحثون عن مناصب لهم وتبين أن العديد من رؤساء الشركات هم الذين يضعون الأنظمة أو يمنحون أنفسهم مكافآت سخية. أيضاً يملأ جنون القيل والقال صفحات مجلة هالو (*Hello*) أو فانيتي فير (Vanity Fair)،

ولكنه أيضاً يتركنا مع شعور مزعج بأنه لم يعد هناك وجود لأناس طيبين وصادقين. نعرف الكثير عن حياة الرئيس بيل كلينتون (Bill Clinton) الجنسية أو مشاكل إدمان بريتني سبير (Britney Spear). ونقرأ عن أخطاء أطباء أو مدرسين يكذبون، وكل هذا بالطبع سبق وحدث في الماضي، ولكن ليس بالشكل الذي تظهر فيه فضائح اليوم تحت الأضواء القوية التي توفرها وسائل الإعلام والشبكة العنكبوتية. يمدنا التاريخ بالاطمئنان على الرغم من أن معرفتنا به تقل شئياً فشئياً وياللمفارقة !.

في عالم علماني، الذي هو أوروبا وشمال أمريكا ومعظمنا يعيش فيه، يأخذ التاريخ دور المعرف بالخير والشر، والفضيلة والرذيلة، ولم يعد للدين دورٌ مهم مثلما كان في السابق حين كان يضع المعايير الأخلاقية وينقل القيم، تضاءلت أعداد المصلين في الكنائس القديمة المنتشرة بشكل كبير، صحيح أن هناك عدداً كبيراً من الكنائس البروتستانتية ولكنها للتسلية وللعلاقات الاجتماعية أكثر ممَّاهي دينية، والملايين الذين يصنفون أنفسهم بأنهم مسيحيون وجدوا معنى حقيقي لإيمانهم غالباً لديهم، بناءً على استفتاءات، وأفكار سطحية عما يؤمنون به. وحتى هؤلاء الذين لا يزالون يؤمنون بوجود إله ربما يتساءلون كيف يسمح هذا الإله بحدوث كل الشرور التي شهدها القرن العشرون ويقوم التاريخ وأحداثه بملء الفراغ، فهو يعيد الاحساس بشيء أكبر وأبعد من البشر وليس بالضرورة أن يكون وجود إله. ويصبح السلطة التي بمقدورها أن تدافع عنا أو تحكم علينا وتدحر معارضينا.

وبناءً على مايبثه الإعلام، يقرأ الرئيس بوش مؤخراً الكثير من كتب التاريخ ومن الواضح أنه وجد فيها بعض السلوى حيث اقتربت فترته الرئاسية من نهايتها وسقطت شعبيته بين الناخبين.، ويميل بوش إلى مقارنة نفسه بالرئيس هاري ترومان (Hary Truman)، نائب الرئيس قليل الخبرة الذي وجد نفسه فجأة رئيساً بعد وفاة الرئيس

فرانكلين ديلانو روزفلت (Frank Delano Roosevelt) في عام ١٩٤٥م. كان ترومان الذي وصل إلى الرئاسة دون أن يكون لديه دراية كافية، ويعود الفضل في ذلك إلى ميل الرئيس روزفلت بالاحتفاظ بالأمور المهمة لنفسه، ولم يكن بائع أدوات الخياطة من ولاية ميزوري يوضع في الحسبان، كان تقييمه ضعيفاً خلال فترة رئاسته مثل بوش الآن وكما قال عنه أحد الأذكياء: "أن تكون ترومان يعني أن تخطئ".

ولكن التاريخ كان رحيماً بترومان، ويقيمه المؤرخون الآن بشكل عام كأحد خيرة الرؤساء الأمريكيين في القرن العشرين فقد وجد نفسه في مواجهة عداء متزايد مع الاتحاد السوفيتي ووضع متدهور مع أوروبا ولكنه تعامل بشكل جيد مع التحدي. وأخذ هو وإدارته قرارات مهدت لمواجهة الولايات المتحدة مع الاتحاد السوفيتي أثناء الحرب الباردة، وتبنوا سياسات جديدة من بينها خطة المارشال، وهي تدابير دفاعية غير مسبوقة في زمن السلم، وتأسيس حلف الناتو، وكل ذلك ربما أنقذ أوروبا الغربية من السيطرة السوفيتية. أيضاً، أظهرت قرارات الرئيس ترومان أن الولايات المتحدة جاهزة لاحتواء التأثير السوفيتي. وفي ١٩٤٨م - ١٩٤٩م قادت الولايات المتحدة الغرب في تطويق وحصر الوجود السوفييتي في برلين الغربية عبر جسر جوي ضخم. وأرسل ترومان في العام التالي قوات أمريكية إلى كوريا الجنوبية لصد هجوم الشمال الشيوعي على الجنوب، وتمكنت إدارة ترومان وربما لا يزال آخرون يرون ذلك-من الأداء بصورة جيِّدة في تلك المواجهة الطويلة مع الكتلة السوفيتية والتي انتهت بانتصار الغرب في ١٩٨٩م.

أشار بوش كثيراً وبإعجاب إلى ترومان في انتخابات عام ٢٠٠٤م. وزادت إشارته إلى ترومان مع تناقص شعبيته، وفي ديسمبر ٢٠٠٦م قال لزعماء الكونجرس: إنَّه على الرغم من أن ترومان لم يكن محبوباً في زمنه إلا أن التاريخ بين أنه كان محقا. وفي مقارنة

أخرى تتعلق بالحرب الباردة، كان حديثه في معظمه عن الصراع مع الإرهاب والإسلام الأصولي كشيء واحد وسيستمر لعدة أجيال. وفي مايو ٢٠٠٦ في خطاب ألقاه أمام خريجي كلية وست بوينت (West Point) قارن نفسه ضمنياً بترومان وقال عنه بأنه اتخذ الإجراء السليم، على الرغم من انتقاده في تلك الفترةوقال أيضاً: "وضع الرئيس ترومان الأساس لانتصار أمريكا في الحرب الباردة وذلك بالأعمال التي أقرها والمؤسسات التي بناها والتحالفات التي أقامها والتعاليم التي وضعها". ولم يذكر بوش الحقيقة المزعجة بأن ترومان كان ديمقراطياً. ولم يشر إلى نقطة اختلاف مهمة وهي عمل ترومان من خلال الأمم المتحدة والتي لم يتعامل معها بتعالٍ. ولم تخف هذه الفروقات على الصحافة والديمقراطيين، ولكن البيت الأبيض حاول الالتفاف عن هذه التفاصيل غير المريحة. أنكر السكرتير الصحفي للبيت الأبيض توني سنو (Tony Snow)أن يكون بوش قد قارن نفسه بترومان ولكنه كان يذكّر الأمريكيين بأنهم يواجهون عدواً يتحرك بدافع إيديولوجي وطموح عالمي مثلما كان الوضع فترة الحرب الباردة وأن هزيمة هذا العدو ستأخذ وقتا طويلا.

وإذا كان التاريخ هو القاضي الذي نناشده فإنَّه أيضاً قد يكون ضدنا، ويمكنه أن يبرز أخطاءنا بتذكيرنا بآخرين في زمن آخر واجهوا مشاكل مشابهة ولكنهم أخذوا قرارات مختلفة وربما أفضل. وقد رفض الرئيس بوش التعامل مع إيران، على الرغم من تأثير إيران الكبير في الشرق الأوسط وخاصة في العراق، ويتذكر منتقدو بوش حين واجه رئيس أمريكي آخر وضعاً كانت فيه الولايات المتحدة عالقة في مستنقع حرب لا يمكن الفوز فيها وخسرت الكثير من سلطتها في العالم حينها قرر الرئيس آنذاك رتشارد نيكسون (Richard Nixon) أن يُخرج الولايات المتحدة من فيتنام ويعيد بناء مكانتها وكان الطريق لتحقيق ذلك عبر بكين. وبالرغم من العداء بين الولايات المتحدة

وجمهورية الصين الشعبية وعدم وجود علاقات بينهما لعدة عقود زمنية، إلا أن نيكسون أخذ مبادرة للوصول إلى تقدير متبادل وكان يأمل بمساعدة مشتركة. كان هناك سؤال يتردد باستمرار حين كنت ألقي محاضرة في الولايات المتحدة عن كتابي الذي يتحدث عن زيارة الرئيس إلى الصين في ١٩٧٢م، نيكسون وماو، لو كان نيكسون رئيسا اليوم فهل سيذهب إلى طهران طلباً للمساعدة لإخراج الولايات المتحدة من العراق؟

وباعتباره حكماً فإنَّ التاريخ يقلل أيضاً من ادعاءات القادة بالمعرفة، وعادة يعرف الدكتاتوريون ربما لأنهم يعرفون كذبهم جيداً سطوة التاريخ، ونتيجة لذلك حاولوا أن يعيدوا كتابة أو إنكار أو إتلاف الماضي. فقد أخذ روبسبير (Robespierre) في فرنسا الثورية وبول بوت (Pol Pot) في كمبوديا سبعينيات القرن الماضي أخذا على عاتقيهما إعادة بناء المجتمع من جديد. صممت روزنامة روبسبير الجديدة وسنة الصفر وهي مناظرة للرزنامة الفرنسية لمحو الماضي وإحيائه بأساليب بديلة لتنظيم المجتمع، ويذكر أن مؤسس الصين الإمبراطور كن (Qin) دمر كل التاريخ والأحداث الماضية ودفن العلماء الذين قد يتذكرونها وكتب بدلاً من ذلك تاريخه هو، ولم تكن الملكيات المتعاقبة بهذه القسوة لكنها أيضاً كتبت تاريخ الصين كما تراه، وذهب الرئيس ماو إلى أبعد من ذلك، حيث حاول ماو أن يمحو كل الذكريات والأعمال الفنية التي تذكر الصينيين بالماضي، وقد تمكّن ماو من إعادة تشكيلهم إلى رجال ونساء شيوعيين جدد، واندفع شباب الجيش الأحمر بتشجيع منه عبر الصين محطمين قطع البورسلان الثمينة ومحرقين للكتب ومحطمين للمعابد والتماثيل.يضربون وغالباً يقتلون المدرسين والكتاب ورجال الدين أو أي شخص يمكن اتهامه بأنه ينقل الماضي. وقد نجت المدينة المحرمة فقط في بكين لأنَّ زو إنلي (Zhou Enlai) أرسل جنوداً لحمايتها، وفي الاتحاد السوفيتي، ألغى

ستالين اسم منافسه ليون تروتسكي (Leon Trotsky) من الكتب والصور والوثائق إلى أن تحول تروتسكي كما في تعبير جورج أورويل (George Orwell) في روايته المرعبة مزرعة الحيوان إلى "شخص لا وجود له". وأظهر السجل الحقيقي لتروتسكي أن ستالين لم يكن الوريث الطبيعي للينين، المؤسس المحترم للاتحاد السوفيتي، وأنه لم يلعب الدور المهم في انتصار البلشفيين على أعدائهم الكثيرين.

وبالطبع لم يحُل موقف الدكتاتوريين من التاريخ من محاولة تخليد ذاتهم من خلال التماثيل والآثار والأضرحة، وفي الزمن الحديث استعملوا الصور والأفلام، وكتب ستالين تاريخ الشيوعية في الاتحاد السوفيتي من وجهة نظره هو، واعتبر أنَّ شخصين فقط لهما فضل التطوير: لينين ،وهو،وهما من تصارعا مع أعداء لم يسمهم، وبنى الإمبراطور "كن" ضريحاً عظيماً أراد به أن يخلد اسمه للأبد. (وفي المملكة العربية السعودية حيث توجد قبلة المسلمين في مكة يحاول السعوديون المتدينون والسلطة السياسية الاحتفاظ بمحمد عليه السلام بطريقة مختلفة وذلك باختطافه من المسار التاريخي فلا يغدو بشراً، ويحذر رجال الشرطة الدينية الحجاج من الصلاة في الأماكن التاريخية مثل غار حراء الذي نزل فيه الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم أول مرة، وينظر إلى الصلاة في هذه الأماكن على أنها من بقايا الوثنية وخلال الخمسين سنة الماضية أزيلت المباني التي تضم بيوت الرسول عليه السلام وأسرته وبناءً على ما ذكرته مؤسسة الخليج تم هدم ٩٥٪ من المباني القديمة في مكة المكرمة خلال العشرين سنة الماضية ويعود تاريخ تشييد هذه المباني إلى أكثر من ألف سنة*).

---

*العكس صحيح، تتعامل الدولة السعودية ورجال الدين مع النبي عليه الصلاة والسلام كبشر وينهون عن الغلو في شخصه وتقديسه.

وعادة ما يكون إيماننا بالتاريخ هو امتداد رغبتنا في إصلاح الماضي عبر الاعتذارات والتعويض عن تصرفات حدثت في الماضي، والآن هناك حجة جيدة لتوظيفها للأفراد والمنظمات الذين اعترفوا بارتكابهم أخطاء ويقدمون بعض أشكال التعويض مثل البنوك السويسرية التي جنت أرباحاً طائلة من جراء مصادرة الأموال وكانت مستفيدة ومتغاضية عن جرائم النازية ويجب أن تدفع تعويضاً لورثة الناس الذين عانوا، ودفعت الدولة الألمانية بحق تعويضا لسنوات لعائلات اليهود الذين قتلهم نظام أدولف هتلر (Adolf Hitler). ويجب، بالتأكيد، على الحكومتين الأمريكية والكندية أن تدفعا تعويضا لليابانيين الذين استولت على أملاكهم بلا حق حين اعتقلوا أثناء الحرب العالمية الثانية. وأيضاً المعتقلون ذاتهم من اليابانيين الذين كانوا مواطنين بشرعية مشكوك فيها. كلا الحكومتين اعتذرتا ودفعتا تعويضاً إلى جميع الذين مازالوا أحياء، وفي كل هذه الحالات كان الرابط واضحاً ومباشراً بين المذنبين والمذنب بحقهم.

غالباً لا يكون الربط واضحاً، ولكن الاعتذار يعطي معنى سياسياً في الحاضر. فاعتذار الملكة اليزابث إلى شعب الماوري (Maori) في نيوزيلندا عن اغتصاب أراضيهم في القرن التاسع عشر لا يعني أنها تتحمل اللوم ولكن المجتمع والحكومة النيوزيلندية يتحركان لإغلاق قضايا مع المورين وكانت تحاول أن تعوضهم عن الأضرار التي تعرضوا لها. وفي عام ٢٠٠٤، قدم ثلاثة من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي مشروع قانون للاعتذار رسمياً للسكان الأصليين عن "التاريخ الطويل من النهب الرسمي وسياسات حكومة الولايات المتحدة غير المدروسة". ويشير سنكس (Cynics) إلى أن واقع كون تلك الفترة سنة الانتخابات، فقد يكون الذين تبنوا القانون المقترح مدفوعين بأهمية أعداد المنتخبين في عدة ولايات، وفي نهاية المطاف لم يوافق على القانون المقترح.

وربما من الأفضل تحمل المسؤولية والتراجع عن الخطأ في المجتمعات التي تصارع لتتعايش مع أهوال الماضي. وفي جنوب إفريقيا ومع نهاية سياسة الفصل العنصرية بدأت الشخصيات العامة من السود والبيض بالحديث عن المشي قدما دون السماح للماضي بتمزيق المجتمع وفي نهاية ثمانينيات القرن الماضي كان التحدي المشترك الذي يواجه محادثات الرئيس فردرك ويلم دي كلرك (Fredrik Willem de Klerk) وحزبه الوطني الابيض لإنهاء سياسة الفصل العنصري مع نيلسون مانديلا (Nelson Mandela)، الزعيم الأفريقي الوطني، هو كيفية الانتقال السلمي إلى حكم الأغلبية السوداء. وكان التحدي من شقين: إعطاء ضمانات للمضطهدين السابقين- قوات الشرطة والأمن- على سبيل المثال، بعدم معاقبتهم لإطاعتهم الأوامر. وتهدئة الرغبة المفهومة للثأر وطلب العقاب لدى السود الذين اضطهدوا من قبل الحكومة سابقا، كان الاتفاق، ولم يكن التوصل إليه سهلاً، هو تكوين هيئة لدراسة الماضي، وتكون لديها السلطة لإصدار عفو عن الشهود وأن تقدم توصيات خاصة بتعويضات لضحايا سياسة الفصل العنصري، وفي عام ١٩٩٥م، بعد أقل من سنتين من انتخابات متعددة الأعراق، أقر برلمان جنوب إفريقيا قانون "المصالحة والوحدة الوطنية" وبدأت هيئة تقصي الحقائق والمصالحة جلسات الاستماع في ربيع عام ١٩٩٦م وقدمت تقريرها النهائي بعد ذلك بعامين، وكانت تجربة فريدة ومثيرة أخرجت شرور الفصل العنصري إلى العلن، وعقدت الهيئة ١٤٠ جلسة استماع في جميع مناطق جنوب إفريقيا وتحصلت على ٢٢,٠٠٠ إفادة من ضحايا الفصل العنصري. وقدم ٧,٠٠٠ عضو من النظام القديم طلباً للعفو. واعترف أفراد البوليس السري بالتعذيب والقتل، وبكى وصلى الشهود السود وهم يستعيدون ذكرى ما حصل لهم ولأسرهم.، وبالطبع لم تشف الهيئة جميع الألم، وبقي منح العفو غير مرغوب فيه خاصة في أوساط السود كما كان دفع

التعويضات يسير بوتيرة بطيئة ومتقطعة، وعلى كل حال، رؤي أنه بانتهاء الهيئة من سماع الشهود في عام ١٩٩٨م كانت جنوب إفريقيا بكل طبقاتها وألوانها قد راجعت وتعاملت مع ملف الفصل العنصري وبدأت تتقدم إلى مستقبل يتشارك فيه الجميع.

وبالرغم من ذلك هل من الجيد أن تعتذر المجتمعات عن أمور حدثت في قرون أخرى في وقت كانت تدين فيه بمعتقدات مختلفة؟ كان السياسيون وآخرون سريعين في تقديم كل أنواع الاعتذارات حتى عندما لا يكون هناك سبب واضح لتحمل المسؤولية أو الفائدة المرجوة من مثل هذه الاعتذارات، اعتذر البابا عن الحروب الصليبية، واعتذرت ابنة الشاعر البريطاني جون بيجمان (John Betjeman) إلى بلدة قرب لندن عن بيت شعر ورد في إحدى قصائده يقول فيه: "تعالي أيتها القنابل الصديقة واسقطي على سلأو Slough/ فهي غير جديرة بالإنسان الآن". وفي تسعينيات القرن الماضي اعتذر بيل كلينتون عن نظام الرق واعتذر توني بلير Tony Blairعن مجاعة البطاطا الإيرلندية. وارتدى رجل ينحدر من قاطع الطريق والنخاس الإليزابيثي جون هوكنز (Sir John Hawkins) فانيلة كتب عليها "آسف جدا" وهو راكع أمام الشعب الغامبي.

وفي كندا، اعتذرت حكومات فيدرالية متعاقبة، وفي بعض الأحيان، دفعت تعويضات لسياسات طبقت- بغض النظر عن اشمئزازنا منها الآن- قانونياً من قبل أسلافهم، هذا التطبيق أثار أسئلة مثيرة للاهتمام، كانت كندا تفرض ضريبة على كل فرد من المهاجرين الصينيين، وبلا شك كان الغرض من ذلك عنصرياً لمنع "الشرقيين" من الاستقرار في البلاد. ولكن هل يجب على كندا اليوم أن تدفع تعويضاً للمنحدرين من أصلاب هؤلاء الذين قبلوا دفع ضريبة الفرد؟ وكم يكفي؟ للأسف هناك مشاحنات غير مهذبة بين مجموعات مختلفة تدعي أنها تتحدث باسم الكنديين الصينيين عن الكيفية الصحيحة التي يجب أن توزع فيها هذه الأموال الحكومية.

ومّما سبق يمكننا طرح السؤال التالي : إلى أي مدى يمكننا التخمين أو حتى محاولة إلغاء قرارات الماضي؟ قررت مؤخراً الحكومة البريطانية بأنه لم يكن على الجيش إعدام الجنود الذين جبنوا في الحرب العالمية الأولى ولذلك فقد سامحتهم بعد موتهم. ويتساءل ماثيو باريس (Matthew Parris) ، صحفي بريطاني محترم ، هل ما فعلته الحكومة في تلك الفترة مقبول؟ : "أشك في قدرتنا اليوم على التخمين والحكم على أحكام صدرت قبل ثلاثة عقود في ظروف مختلفة وبناءً على قيم أخلاقية أقسى مما هو موجود الآن" ويكمل تساؤله عن إمكانية قيادة الجيوش دون نظام حازم بما في ذلك العقوبات القاسية ضد هؤلاء الذين يرفضون الانصياع للأوامر أو أولئك الذين يحاولون الهرب من وجه العدو؟ وليس من الطبيعي أن يخاطر البشر بالموت في ساحة المعركة ، ولذلك يمكن أن يساعد التهديد بالإعدام بحفظ الجيوش من التفرق إلى رعاع غير منتظم ، ونستطيع القول بأنه يجب أن لا تكون هناك حروب في العالم ولا جيوش ، ولكن إلى أن يتحقق مثل هذا السلام فإننا نحتاج إلى قوات مسلحة لتدافع عنا وتحقق سياساتنا.

ومؤخراً دخلت الحكومة الكندية في هذه المحاولات لإعادة صياغة الماضي على سبيل المثال ، اعتقال مجموعات عرقية معينة وقت الحرب ، وفي كلا الحربين العالميتين ، اعتقلت كندا من تظن أنهم أعداء قوميون. في الحرب العالمية الأولى ، كانت كندا في حرب مع النمسا – هنغاريا - والعديد من الأوكرانيين الذين يعيشون في كندا جاءوا من هناك وربما تركوا بلادهم لأنهم لم يرضوا بحكم هاسبورغ (Hapsburg) ، وربما لا زال بعضهم وفياً للإمبراطور. ومن المؤكّد أنَّ أسقفاً أوكرانيًّا من مدينة وينق الكنديَّة طلب في عام ١٩١٤م من رجال ابرشيته التوجه إلى الولايات المتحدة ليتمكنوا من الوصول إلى النمسا والقتال إلى جانب الإمبراطور فرانزجوزيف (Franz Josef). لكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن : هل كان يجب على الحكومة الكندية أن تقدر ولاءهم

لبلادهم الأصلية؟ إلا أنها اختارت ألا تفعل واعتقلتهم وقامت بذلك أيضاً الحكومتان البريطانية والأسترالية حين اعتقلتا مواطنيهما الألمان بالرغم من أن العديد منهم استقروا هناك منذ عدة عقود.

وفي الحرب العالمية الثانية، اعتقلت حكومات الحلفاء العديد من المواطنين من أصول يابانية وألمانية وإيطالية ونعرف الآن أن قوى المحور خسرت، ولكن وقت اتخاذ قرار الاعتقال لم يكن واضحاً ماذا سيحدث؟ ولم يكن مؤكد أن قوى المحور توقعت مساعدة من الجماعات المهاجرة في دول الحلفاء. لكن هل كان عملاً مسؤولاً لو أن أي دولة من دول المحور تغاضت عن إمكانية وجود متعاطفين مع ألمانيا النازية أو إيطاليا الفاشية أو اليابان العسكرية (من المؤكد كان هناك بعضٌ منهم) ولكن مالا يمكن التغاضي عنه عدم وجود أي محاولة جادة لمعرفة من المخلص ومن الذي لديه الاستعداد للخيانة. كان الأغلبية في المملكة المتحدة من "الأعداء الغرباء" لاجئين يهود من ألمانيا وأستراليا، ومع ذلك اعتقلوا وأرسلوا إلى مخيمات الاعتقال مثل تلك الموجودة في جزيرة ايل اف مان (Isle of Man)، وأرسل أكثر من سبعة آلاف شخص بالبحر إلى كندا واستراليا، ومات عدة مئات على ظهر السفينة أرنادورا ستار (*Arandora Star*) حين نسفت وأيضاً لم يكن تصرفاً مسؤولاً ولا قانونياً الاستيلاء على ممتلكات هؤلاء اللاجئين، وسرقت ممتلكات اليابانيين المعتقلين في الولايات المتحدة الأمريكية وحصلت أو بيعت في مزادات للمشاهدين المتلهفين لها، وقامت الحكومتان بدفع تعويضات عن ذلك.

الحديث سهل- حتى وإن أدَّى إلى مطالبات باهظة- ويحب السياسيون أن يظهروا بمظهر المهتم والمتعاطف. ويمكن أيضاً أن يكون الاعتذار حجة تبرر عدم القيام بشيء في الحاضر. تحاول أستراليا أن تتعامل مع الظروف السيئة التي يعيشها السكان الأصليون (يقل

العمر المتوقع للسكان الأصليين عن بقية السكان بسبعة عشر عاماً) وفي الواقع يستدعي جزء من المحاولة النظر إلى الماضي. في عام ١٩٩٧م أصدرت اللجنة الأسترالية لحقوق الإنسان وتكافؤ الفرص تقريراً يدين الإجراء القديم المتبع والذي استمر منذ الحرب العالمية الأولى حتى منتصف سبعينيات القرن الماضي والذي يقوم على نزع أطفال السكان الأصليين من عائلاتهم وتربيتهم في وسط أبيض ليشبوا كبيض، كان الليبراليون الأستراليون مذعورين، وعبرت جميع حكومات الدولة والمقاطعات عن اعتذارها عن "الجيل المسروق". وفي عام ١٩٩٨م، أقامت لجنة الأهالي أول يوم وطني للاعتذار ووقع آلاف الأستراليون كتب الندم أو (الاعتذار) والتي قدمت إلى مجتمعات السكان الأصليين. وبقيت حكومة الكومنولث صامتة. ورفض جون هاورد (John Howard)، رئيس الوزراء الأسترالي حتى هزيمته في عام ٢٠٠٧م، أي إشارة إلى أن أستراليا لديها ماتعتذر عنه وقدم خليفته كيفن رود (Kevin Rudd) توصية إلى برلمان الكومنولث والذي أقرها بالإجماع وفي ١٣ فبراير من عام ٢٠٠٨م وبحضور زعماء السكان الأصليين وضيوف آخرين وجميع الأستراليين في أنحاء البلاد يشاهدون التلفاز نطق رود بكلماته التاريخية "نعتذر عن قوانين وسياسات البرلمانات والحكومات المتعاقبة والتي سببت الكثير من الألم والمعاناة والفقد لإخواننا المواطنين الأستراليين". ولكنَّه تفادى موضوع التعويضات وقدم بعض المعلومات عن كيفية ونية الحكومة معالجة مشكلات مثل الأمية وإدمان الكحول والعنف ضد الأطفال والبطالة في مجتمعات السكان الأصليين. وعلق أحد الزعماء المحليين ساخراً عن التأثير المحتمل لاعتذار رود: "سيحصل السود على الكلام ويحتفظ البيض بالمال".

وفي الولايات المتحدة، هناك قضية لم يتوقف النقاش حولها وهي: هل يجب على الحكومة أن تعتذر عن نظام الرق. وينقسم تجاهه البيض والسود: فبينما يشعر أغلب البيض بعدم الحاجة إلى الاعتذار عن موضوع حدث منذ عقود فإنَّ الأغلبية

العظمى من السود يرون بأنه يجب تقديم اعتذار وهناك أغلبية من السود- لكنها لا تبلغ الأغلبية العظمى- التي ترى بأنه يجب على الحكومة أن تدفع تعويضاً لسلالة العبيد. و٩٦٪ من البيض لا يرون ضرورة دفع تعويضات. ويناقش رونالد روبنسون (Randall Robinson)، وهو محامي ناشط أسود، في كتابه الصادر عام ٢٠٠٠م *"الدين بماذا تدين أمريكا للسود"* *The Debt: What America Owes to Blacks* بأن نجاح أمريكا يعود في معظمه إلى تجارة الرقيق، ويشير إلى مؤسسات معينة مثل جامعة براون والتي تعود ثروة مؤسسيها إلى عملهم في تجارة بناء سفن العبيد، والفاتورة المقدمة الواجبة الدفع باهظة جداً، وأعلن رتشارد أميركا (Richard America)، وهو اقتصادي متخصص من جامعة جورج تاون، أن الأمريكيين السود يستحقون مابين ٥ و١٠ تريليون دولار. ورفعت عدة قضايا تعويض للسود ضد الحكومات والشركات الأمريكية ولكن لم ينجح أي منها حتى الآن.

وفي هذا السياق فإنّني أرى أنه من المفيد التّذكير بأنّنا إذا أطلنا النظر إلى الماضي وانشغلنا بالتاريخ وتقديم الاعتذارات فإننا نواجه خطر الانشغال عن مشاكل الحاضر وحلها. وهناك أيضاً خطر محتمل، كما أشار له عدد من زعماء الأقليات، وهو أن التركيز على مظالم الماضي قد يكون مصيدة، بما أن الحكومات والمجموعات تتجنب التعامل مع قضايا تواجههم الآن. يمكن أن يطالب الأمريكيون السود بالاعتذار عن الرق ويمكن للحكومات الأمريكية أن تقدمه ولكن كيف يمكن لذلك أن يساعد الأطفال السود الذين يذهبون إلى مدارس فقيرة أو الرجال الذين لا يجدون عملاً ولا كرامة؟ انشغل السكان الأصليون الكنديون (Aboriginal) لعقود بمعضلتهم الشبيهة بمعضلة "الجيل المسروق". حين التحق أطفالهم بمدارس داخلية يتعلمون فيها الإنجليزية والفرنسية ويصبحون قابلين للامتزاج بمجتمع "البيض". وبناءً على منتقدي هذه

المدارس السكنية كما تسمى في كندا، فإن هذه المدارس تستغل الأطفال الذين تحت رعايتها، وأحياناً يكون الاستغلال جنسيًّا وتجردهم من ثقافتهم. وتحدث زعماء السكان المحليون عن "الإبادة الثقافية". وادعى أحد رجال الدين السابقين من الكنيسة المتحدة United Church، وليس هناك أي دليل قوي حتى الآن، باكتشافه دليل على جرائم قتل، وتجارب طبية غير قانونية وعصابات استغلال جنسي، وقدمت الحكومة الكندية تعويضاً للطلاب السابقين وأنشأت لجنة الحقيقة والمصالحة والتي ستمضي خمس سنوات في جمع المعلومات وكتابة تقرير، وبالفعل تحدث رئيس اللجنة عن تهم جنائية محتملة، وبالطبع يجب على المجتمع الكندي أن يتعامل مع هذه التهم، ولكن للأسف لم يبد هذا المجتمع أي اهتمام يذكر لتوسيع ذات الوسائل للتعامل مع الظروف المروعة في العديد من مناطق السكان المحليين، ويحذر ليون ويستلر (Leon Wiesltier). وهو مثقف وكاتب يهودي أمريكي متميز، أن الرسالة التي تصل إلى مجموعات الأقليات عن التركيز على الماضي هي "لا تكونوا أغبياء... هناك فقط القمع" وتؤدي العودة إلى مآسي الماضي إلى عجز الناس عن مواجهة مشاكل الحاضر.

الفصل الثالث

من يملك الماضي؟

WHO OWNS THE PAST?

للأسف حين أصبح موضوع التاريخ مهماً في نقاشاتنا العامة، هجر الكثير من المؤرخين المتخصصين الحقل وتركوه للهواة، وانكفأ العمل التاريخي على ذاته في العقدين المنصرمين، والنتيجة أن الكثير من الدراسات التاريخية منغلقة على ذاتها. وتطرح هذه الدراسات أسئلة عن كيف نصنع، نحن المتخصصون بالتاريخ الماضي؟وأي النظريات نستخدم أونسيء استخدامها؟ أذكر حين كنت أقرأ الطلبات المقدمة للدراسة في كلية الدراسات العليا منذ بضع سنوات أنني قرأت في أحد الطلبات المقدمة من إحدى الطالبات، ويبدو أنه لطالبة نجيبة بأنها تريد أن تدرس في حقل معين في التاريخ لأنه لم "يدرس بما فيه الكفاية".

واتجه المؤرخون المختصون بشكل متزايد، ربما لرغبتهم الشديدة بأن يكونوا مثل زملائهم في التخصصات العلمية أو العلوم الاجتماعية، إلى استخدام لغة متخصصة وجمل طويلة معقدة. والكثير من الكتب صعب الفهم في معظم الأحيان دون حاجة إلى هذا التعقيد. ويقدم أندروكولن جو (Andrew Colin Gow)، من قسم التاريخ بجامعة البرتا، دفاعاً غريباً عن هذا الغموض المتعمد، قائلاً بصرامة: إنه يجب ألاَّ نتوقع من المؤرخين أن يقدموا متعة أو يخبرونا بقصص ممتعة : "هل نحتاج إلى تاريخ متخصص من

أجل متعتنا- خاصة حين يدفع المال العام للكثير مما نقوم به نحن المتخصصون بالتاريخ؟ هل نحتاج إلى الفيزياء للمتعة؟"

المؤرخون أو المتخصصون بالتاريخ ليسوا علماء، واذا لم يستطيعوا جعل عملهم مفهوماً للعامة فإن آخرين سيملؤون هذا الفراغ، وينجح في أغلب الأحيان السياسيون وغيرهم من القادة حين يستخدمون التاريخ من أجل غاياتهم لأن معظمنا لا يعرف مايكفي لمواجهتهم. والكثير من التاريخ الذي يقرؤه ويستمتع به العامة كتبه مؤرخون هواة. وبعض هذه الكتب جيد ولكن الكثير منها ليس كذلك، تتحدث الكتابات التاريخية الضعيفة عن جزء فقط من قصص معقدة. وتدعي معرفتها الشاملة وهو ما لا يمكن لها بأي حال عندما تكشف الأفكار غير المعلنة للشخصيات، مثلاً: أساء سيجموند فرويد (Sigmund Freud) إلى سمعته حين تعاون مع الدبلوماسي الأمريكي وليام بوليت (William Bullitt) لكتابة سيرة ودرو ويلسون (Woodrow Wilson) في حين أن فرويد لم يلتق بويلسون مطلقاً ولم يقرأ يومياته لأن ويلسون لا يحتفظ بها ومع ذلك تحدث فرويد بثقة عن هوس ويلسون بوالده وشعوره بالفشل. ويمكن للتاريخ السيئ أن يطالب أبطاله بمعرفة تفوق إمكاناتهم البشرية، على سبيل المثال: حين يتوقع منهم أن يكونوا ذوي نظرة ثاقبة أو أن يأخذوا قرارات لا يمكن بأي حال أن يتخذوها. وعلى سبيل المثال: هل كان بإمكان رجال الدولة في أوروبا أثناء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م رؤية مأزق الجبهة الغربية حين كان تأكيد جميع جنرالاتهم المفترض أن الحرب ستنتهي في وقت قصير؟.

أيضاً فإنَّ مثل هذه الكتابات التاريخية السئية تحتوي على تعميمات واسعة دون أي إثبات واضح وتتجاهل الحقائق المحرجة والتي لا تتماشى مع سياقه. على سبيل المثال: كان يعتقد بأن معاهدة فرساي بين الحلفاء وألمانيا في نهاية الحرب العالمية

الأولى، غبية وانتقامية إلى أبعد مدى ولذلك كان قيام الحرب العالمية الثانية حتمياً نتيجة لذلك. كانت قصة مقنعة، عزز ذلك مهاترات رجال مثل جون مينارد كينس (John Maynard Keynes)، ولكنها تتغاضى عن بعض الاعتبارات. خسرت ألمانيا الحرب ولم تعامل بقسوة كما يدعي ذلك العديد من الألمان وصدقهم الكثير من البريطانيين والأمريكان. كانت التعويضات عبئاً ولكنها لم تكن كبيرة كما تبدو، ودفعت ألمانيا جزءاً من الحساب، وحين أتى هتلر إلى السلطة ألغى التعويضات تماماً. وإذا كان لدى ألمانيا مشاكل مالية في عشرينيات القرن الماضي فإن ذلك يعود في جزء كبير منه إلى السياسات المالية للحكومة الألمانية والتي لم ترغب برفع الضرائب أو تقلل من سندات الحرب التي كان يملك معظمها أفراد الطبقة الوسطى، بالإضافة إلى أن الأوضاع كانت تتحسن في عشرينيات القرن الماضي ولم تكن تتراجع، كما كانت أوروبا والعالم يتعافيان اقتصادياً، وأعيدت ألمانيا وحتى الاتحاد السوفيتي إلى النظام العالمي، وربما لم يحدث العداء ومن ثم الحرب لولا وجود الكساد الكبير والذي وضع ضغوطاً مخيفة حتى على أقوى الديموقراطيات وأيضاً وجود سلسلة كاملة من القرارات الخاطئة، بما في ذلك قرارات رجال الدولة الألمان والجنرالات الذين ظنوا أن بإمكانهم استخدام هتلر حين يصل إلى السلطة. ولكن الكتابات التاريخية السيئة تتجاهل مثل هذه المفارقات وتفضل حكايات تعود إلى المسرحيات الأخلاقية ولكنها لا تساعدنا على قراءة الماضي بكل تعقيداته، والدروس التي يقدمها هذا التاريخ بسيطة أو ببساطة خاطئة. ولذلك نحتاج إلى أن نتعلم كيف نقيمه بشكل صحيح ونتعامل بحذر مع الادعاءات الموضوعة باسمه.

ويجب على المؤرخين المختصين ألاَّ يتنازلوا عن حقلهم بسهولة، ويجب الاجتهاد لرفع الوعي العام بالماضي بكل ثرائه وتعقيداته كما يجب أن نناقش التاريخ الأحادي

النظرة وحتى المختلق والمتاح في النطاق العام. وإذا لم نفعل، فإننا بذلك نسمح لقادتنا وصانعي الرأي باستخدام التاريخ لدعم الادعاءات الكاذبة وتبرير السياسات السيئة والتافهة، أضف إلى ذلك يجب على المختصين بالتاريخ عدم التخلي عن التاريخ السياسي تماماً للدراسات الاجتماعية والثقافية وسواءً أحببنا ذلك أم لا فإن السياسة مهمة لمجتمعنا وحياتنا نحتاج فقط إلى أن نسأل أنفسنا كيف يمكن أن يكون العالم لو أن هتلر والنظام النازي لم يستوليا على إحدى أقوى دول أوروبا؟ أو ماذا يمكن أن يحدث للرأسمالية الأمريكية وأمريكا لو أن فرانكلن ديلانو روزفلت لم يستطع كرئيس أن يطبق الاتفاق الجديد أو (New Deal) ؟

وفي حين أنه مثقف ومفيد وبالتأكيد ممتع دراسة مواضيع مثل وضع الكرنفالات (الاستعراضات) في الثورة الفرنسية، وصورة العذراء في العصور الوسطى، ودور كعك الدونات في العقل الكندي (من الواضح أن شخصاً واحداً من الكنديين يتناول من هذا الكعك أكثرمما يتناوله أي شخص آخر في العالم)، أو مكانة الهامبرجر (شطيرة اللحم) في الحياة الأمريكية، إلا أنه يجب ألاّ ننسى أحد جوانب التاريخ والذي لخصه مؤرخ القرن التاسع عشر الألماني العظيم ليبولد فون رانك (Leopold von Ranke)، بهذه الجملة "ما حدث فعلاً".

لكل جيل مشاغله وهمومه ولذلك يبحث عن أمور جديدة في الماضي ويسأل أسئلة مختلفة. حينما كنت طالبة في الجامعة كانت كتبنا عن التاريخ السياسي والاقتصادي، وكان هناك القليل عن التاريخ الاجتماعي وبالتأكيد لم يكن هناك تاريخٌ جنسي (نوع الانسان) وأثارت الموجة النسوية الأولى في نهاية ستينيات القرن الماضي اهتماماً بتاريخ المرأة، وترافق مع نمو حركة حقوق المثليين نمواً في تاريخ المثليين والمثليات. أدى انشغال جيل طفرة المواليد (١٩٤٦-١٩٦٤)، على سبيل المثال بالبقاء شباناً وجذابين إلى ظهور

مواضيع متخصصة مثل تاريخ الجسد، وظهر تاريخ عالمي أقل تمركزاً حول أوروبا وشمال أمريكا مع انهيار الإمبراطوريات الأوروبية وصعود القوى السياسية والاقتصادية في آسيا، وعملية البحث والكتابة عن أسئلة جديدة نطرحها عن الماضي هو الذي يجعل التاريخ يتغير ويتطور.

وعلى كل حال لقصة الماضي جوهر يتعذر اختزاله، هذا يعني ما الذي حدث؟ وبأي ترتيب حدث؟ السببية والتسلسل مهمان لفهم الماضي، لا يمكن أن نجادل في انتصار نابليون في معركة واترلو أو أن المعركة حدثت قبل غزوه لروسيا أو أسبانيا، على الرغم من أننا بكل تأكيد نختلف حول خسارته في معركة واترلو وكيف أسهمت قراراته السابقة في هزيمته وإذا لم نكتب نحن المؤرخون تاريخ الأحداث الجسيمة كما نكتب أيضاً القصص الصغيرة التي تشكل الماضي فإن آخرين سيفعلون وليس من الضروري أن يكتبوا ذلك بالطريقة الصحيحة.

قام المؤرخون خاصة في الماضي بكتابة جزء من التاريخ السيئ المغرض، وفي القرون الوسطى رأى المؤرخون المسيحيون جانباً واحداً وهو انتصار الكنيسة الكاثوليكية العالمية فقط.، وحين كشف باحث في عصر النهضة زيف الوثيقة التي تزعم نقل السلطة من الأباطرة الرومان إلى البابا، ساعد كشفه على استثارة نظرة جديدة إلى ذلك الافتراض، أيضاً صور المؤرخون الفيكتوريون الماضي غالباً كتطور حتمي يؤدي إلى الحاضر المزدهر حين كانت بريطانيا تحكم العالم، لم يكن البريطانيون وحدهم الذين مجدوا تاريخهم فالمؤرخون الفرنسيون والألمان والروس والأمريكيون أيضاً فعلوا ذلك مع تاريخ شعوبهم، وكانت كتبهم، مثل الملاحم الشعرية، تمتلئ بالأبطال والمجرمين والأحداث المثيرة، وكما يقول مايكل هاورد (Michael Howard)، المؤرخ البريطاني المعروف، مثل هذا التاريخ يعضدنا في الأوقات العصيبة ولكنه "تاريخ المهد".

والدور الحقيقي للمؤرخين كما يقول هاورد، وهو محق في قوله، أن يواجهوا أو حتى يسفهوا الأساطير القومية إذا لزم الأمر"هذا التحرر من الوهم جزء مهم في طريق الازدهار وجزء من وجود الفرد في مجتمع عاقل، والتعريف الجيد للفرق بين مجتمع غربي ليبرالي وآخر ديكتاتوري - سواءً كان شيوعيًّا أو فاشيًّا أو كاثوليكيًّا مستبدًّا - هو أن الحكومة تعامل المواطنين في المجتمع الأول كبالغين مسؤولين وفي الثاني لا يمكنها ذلك". بعد الحرب العالمية الثانية، أخذت معظم الديموقراطيات الغربية الخيار الصعب والحكيم بتوثيق التاريخ العسكري الحقيقي عن الصراع. وبعبارة أخرى، عينوا مؤرخين متخصصين وسمحوا لهم باستخدام لا محدود للأرشيف وكانت النتيجة تاريخاً لا يتستر على أخطاء وإخفاقات الحلفاء ولكنَّه تاريخ يجاهد لإعطاء صورة كاملة قدر الإمكان لصراع كبير ومعقد.

والحالة البريطانية مثيرة للاهتمام،أعطت الحكومة ونستن تشرشل دخولاً غير مشروط على السجلات (وصفقة ضريبية مفيدة جداً) ليتمكن من كتابة تاريخ عظيم عن الحرب العالمية الثانية، كان الهدف من ذلك التأكد من إصدار تاريخ بريطاني موثق عن الحرب قبل انطلاق مؤكد لكتب عن الذكريات والتاريخ من الولايات المتحدة وروسيا والنتيجة كما بين ديفيد رينولدز (David Reynolds) بشكل مقنع، سرد كثيف ووقور تغاضى عن الكثير من القضايا الحرجةعلى سبيل المثال :كتب تشرشل القليل عن النقاشات في الحكومة البريطانية في تلك الفترة المعتمة من مايو١٩٤٠م بعد سقوط فرنسا بأيدي النازيين، وبناءً على ما كتب تشرشل لم يكن هناك أي نقاش عن ماذا يجب على بريطانيا أن تفعل بل كان هناك فقط إجماع أنه يجب أن تحارب بمفردها، كتب تشرشل "قد ترى أجيال المستقبل أن السؤال الرئيس المطروح هو:هل كان يجب أن نحارب بمفردنا ويرون أنه يستحق النظر ولكن هذا السؤال لم يطرح في جدول

أعمال حكومة الحرب. كانت حربنا من المسلمات، وبطبيعة الحال كان كذلك لكل الرجال من جميع الأحزاب في الحكومة وكنا مشغولين عن إضاعة الوقت في قضايا أكاديمية غير واقعية". وفي الواقع وكما يبين السجل فكرت الحكومة بطرق مناسبة للبدائل، وأبرزها إمكانية أن يقدم الدكتاتور الإيطالي بنيتو موسوليني (Benito Mussolini) رغبته في السلام وأخذت الحكومة قرارها التاريخي حين رفضت هذا الاقتراح كبديل ليس محتملاً أن يؤدِّي إلى أي شيءٍ مفيد أكثر من ذلك قد يكون مخاطرة بتوجيه ضربة قاسية إلى المعنويات البريطانية.

وعلى كل حال أرادت الحكومة البريطانية أيضاً منذ بداية الحرب أن يكون هناك تاريخ رسمي وعينت في عام ١٩٤٦م السير جيمس بتلر (Sir James Butler)، وهو مؤرخ مرموق للإشراف على ما كان يؤمل أن يكون سلسلة من المجلدات عن جوانب مختلفة من مجهودات الحرب البريطانية وأوضح بتلر أنه يريدمن أجل سمعة السلسلة تعيين أفرادٍ مشاركين سمعتهم لا غبار عليها وأكاديميين مستقلين ليشاركوا على أن يكونوا من غير العسكريين أيضاً، و طلب أن يكون للمؤرخين العاملين معه صلاحية الاطلاع على جميع الوثائق المكتوبة وأن يسمح لهم باستخدام ما يجدون بشرط عدم تعريض الأمن القومي للخطر، ونتيجة لذلك فإن التاريخ الرسمي البريطاني مثّقف وواضح وأحياناً مثير للجدل مثلاً: الجزء المتعلق بالهجوم الانتحاري ضد ألمانيا، يتناول بصراحة الاختلاف في القيادة الجوية العليا على أفضل طريقة وأكثرها فاعلية لتدمير ألمانيا هل هي تفجير منطقة؟ ، وهو الخيار المفضل ، أو القصف المحدد؟ وتعني الإستراتيجيةالأولى في الواقع استهداف مدن وقرى بدلاً من مواقع صغيرة مثل مصانع الذخيرة أو مستودعات النفط، وحين اعترض وزير الدفاع الجوي في عام ١٩٥٩م على الموضوع من منطلق أن الكشف عن مثل هذا الجدل قد يضر بالقوات الجوية الملكية كان

جواب أمين مجلس الوزراء السير نورمان بروك (Sir Norman Brook) حاسماً مؤكداً بأن المقصود بالتاريخ ليس تبييض الوثائق ولكن المقصود هو التعامل مع القضايا الشائكة وبالتالي فإن التسجيل التاريخي المنصف سيساعد الحكومات المستقبلية على تعلم دروس من الأخطاء السابقة.

لا تلقى الكتابة التاريخية المتجردة دائمًا قبولاً حاراً، فقد وجد نوبل فرانكلاند (Noble Frankland) المؤرخ الذي كتب التاريخ الرسمي لحملة قصف ألمانيا نفسه هدفاً لهجوم شخصي شرس، وعلى الرغم من أنه شارك شخصياً في هذا القصف وحاز على ميدالية الصليب الأحمر الممتازة إلا أن الصحافة المحافظة في المملكة المتحدة أشارت إلى أنه سبق وأن قيم بأنه غير مؤهل والواقع أنه بقي لمدة نحو ثمانية أسابيع حين أصيب بالتهاب رئوي ثم عاد بعد ذلك إلى عمله الجوي فوق ألمانيا وادعوا خطأً منتقدوا فرنكلين بأنه لم يشارك ولا يفهم الوضع إلا من شارك فيه فقط، كما أقر العديد من منتقديه بأنهم لم يقرؤوا كتابه أو أنهم قرؤوا أجزاء منه ولكن هذا القصور لم يمنعهم عن انتقاده. وسرعان ما اتهم فرانكلاند بأنه ادعى بأن الحملة بكاملها "فشل باهظ الثمن" وهي كلمات لم يستخدمها حين أشار إلى الذخيرة التي استخدمت في التفجير وأشار إلى أنه ربما من الأفضل لو استخدمت في مكان آخر في الشهور الأخيرة من الحرب أو أن تأثير هذه الذخيرة على المعنوية الألمانية يستدعي النقاش كما قيل أيضاً إن فرانكلاند أهان ذكرى جميع الذين ماتوا في الحرب وجرح مشاعر الباقين على قيد الحياة وعائلاتهم. وقال عنه أحد أعضاء البرلمان إنه أنموذج للكتاب الساخرين المجردين من الضمير الذين يأملون بجمع المال عن طريق الكتابات المثيرة، ووجدت الاتهامات الموجهة ضد فرانكلاند مقابلاً لها في أحداث اليوم وهي الاتهامات الموجهة لمعرض متحف الحرب الكندي والذي هو أيضاً عن حملة القصف ذاتها، ويقول منتقدو

المتحف إنه يشير بشكل خاطئ في إحدى اللوحات التذكارية التي تحمل عنوان"جدل لا ينتهي" "An Enduring Controversy" إلى أن القصف الشامل للصناعة الألمانية والمدن والقرى الألمانية كان عملاً غير أخلاقي وغير مجد، وفي الواقع هذا التذكار المشار إليه عن حقيقة أخلاقية الهجوم الإستراتيجي ضد ألمانيا سيبقى اختلافاً مريراً.

وكما هو الحال عادة هناك علاقة قوية بين الطريقة التي يتفاعل بها الجمهور مع أعمال المؤرخين وقضية الفترة الزمنية في أواخر خمسينيات القرن الماضي كانت بريطانيا تمر بفترة عصيبة من إعادة تقييم ذاتية أثناء تكيفها مع تقلص أهميتها في العالم وظهور المشاكل الاقتصادية والاجتماعية في عقر دارها. كانت مغامرة قناة السويس في عام ١٩٥٦ كارثة مكلفة وبالرغم من أن رئيس الوزراء الجديد من الحزب المحافظ، هارولد ماكميلان (Harold Macmillan)، كان فاعلاً جداً في العلاقة المميزة بين بريطانيا والولايات المتحدة إلا أنه كان واضحاً أي الشريكين هو المسيطر. وبالتأكيد كانت الإمبراطورية تتناقص وماكميلان قد ألقى خطابه الشهير عن رياح التغيير التي تهب على إفريقيا إلا أنه كان عليه بالرغم من ذلك أن يقرر نشر كتاب فرانكلاند أو إيقافه في ظل تلك الظروف. أخذت الحرب العالمية الثانية أهمية كبرى حين اتحدت جميع بريطانيا وكانت إحدى القوى العالمية الثلاث.وظهر بوضوح وقسوة مزيج من الحنين والزهو في الفصل الساخر بعد "أسطورة الحرب" في المسرحية الهزلية *"ماوراء الأطراف" Beyond the Fringe* وأتى تقييم فرانكلاند الدقيق والواضح عن حملة الهجوم وكشفه عن النقاشات والاختلافات التي حدثت في ذلك الوقت كحمام من الماء البارد.

كتب فيلسوف التاريخ العظيم ر ج. كولنجوود (R. G. Collingwood) في سيرته الذاتية: يدقق المؤرخون في الماضي بحذر حتى وإن كان ذلك يعني تحطيم الأساطير المتأصلة "لا تنفع الحاضر معرفة الماضي بشيء مادام الماضي والحاضر غير مترابطين،

ولكن لنفترض أن الماضي يعيش في الحاضر ولنفترض أيضاً أنه بالرغم من تغليفه به وللوهلة الأولى مختفيًا تحت تناقضات الحاضر وملامحه الواضحة ولا يزال حيًّا ونابضًا وقد يكون المؤرخ مرتبطاً جيداً بالآخر غير المختص كما يرتبط الخبير باجتياز الغابات مع المسافر العابر" وغالبا يكون هذا مزعجًا جداً حين يثير المؤرخون التحفظات ويشيرون إلى أماكن الغموض هل فعلاً نريد أن نعرف أن أبطالنا العظام مثل ونستون تشرشل ارتكبوا أخطاء سخيفة؟ وأنه كان ولا يزال يدور جدل حول تأثير وأخلاقية قصف الحلفاء لألمانيا في الحرب العالمية الثانية وأن جون كندي (John F. Kennedy) عانى من عدة أمراض وكان يعتمد بشكل خطير على أدوية مهدئة، أعتقد نعم ليس من أجل أسباب فضولية ولكن لأنَّ صورة معقَّدة تكون أكثر إرضاءً للأشخاص الناضجين من صورة بسيطة، ويمكن أن يكون لدينا إبطال وأراء عن محاسن وأخطاء الماضي وسعداء أن الوضع هكذا وليس وضعًا آخر، ولكن يجب أن نقبل أنه في التاريخ كما هو في حياتنا، القليل يمكن أن يكون فقط أبيض أو فقط أسود.

وبالطبع لا يملك المؤرخون الماضي فهو ملك الجميع، ولكن كون المؤرخين يقضون جل وقتهم في دراسة التاريخ فذلك يجعلهم بوضع أفضل من معظم الهواة في إطلاق أحكام معقولة، وعلى كل حال فإن المؤرخين مدربون على طرح الأسئلة، وصنع روابط وجمع وتمحيص الأدلة. من ناحية مثالية، لديهم خلفية كبيرة وفهم لسياق زمن وأحداث معينةومع ذلك، حين ينشرون عملاً يتعارض بشدة مع المتعارف عليه ومع أساطير الماضي فإنهم غالبًا يتهمون بالنخبوية أو العدمية أو ببساطة ينتمون للعالم المتخيل، "العالم الحقيقي"، وفي حالة التاريخ الحديث، يقال لهم ما سبق أن قيل لنوبل فرانكلاند، بأنه لا يحق لهم إصدار رأي في حدث لم يشهدوه.

وفكرة أن الاشخاص الذين شاركوا في أحداث عظيمة أو عاشوا في أزمان معينة لديهم رأي عن الأحداث يفوق من أتى بعدهم هي فكرة متجذرة بقوة بالرغم من خطئها. والنقاش الحديث حول متحف الحرب الكندي عن حملة قصف الحلفاء لألمانيا أثار اتهامات متوقعة بأنه يجب على المؤرخين سواء اعترضوا على المتحف أو أيدوه بالعودة إلى طياري الدفاع الجوي المشاركين بالقصف، تقول مجلة ناشيونال بوست (*National Post*) "بالطبع هناك قضية حرية التعبير وليس الرضوخ أو الاستسلام لحساسية مجموعة ذات اهتمام مشترك". كنت أحد المؤرخين الخارجيين الذين تمت دعوتهم لتقييم المعرض حين بدأت الضجة. (دعمت الشعار ونصحت بشدَّة متحف الحرب بأن لا يتراجع) وحين عرف رأيي، بدأت أتلقى سيلًا من البريد الإلكتروني يبلغني بأني لا أملك السلطة لأعلق على الحرب العالمية الثانية لأني لم أشارك فيها، وتلمِّح بأني على كل حال كامرأة لا أعرف شيئاً عن العسكرية . صحيح أني لم أستلم البريد الذي استلمه زميلي وفحواه "قدَّم الجنود لبلادنا ولأسلوب حياتنا واظهروا شجاعة وإخلاصاً للواجب أكثر مما فعلت، وبما أنهم كانوا هناك بعكسك فإن المنطق يقضي بأن لهم الكلمة الأخيرة عما إذا كان الشعار عادلاً أم لا".

ولا يعطي وجود الشخص زمن الحدث بصيرة أعمق من غيره، وبالتأكيد يكون العكس صحيحًا أحيانًا. على سبيل المثال، عشت فترة أزمة الصواريخ الكوبية ولم أكن أعرف في ذلك الوقت إلا ما ينشره الإعلام. ومثل الملايين غيري، لم أكن أعرف شيئاً عن النقاشات الحامية في واشنطن وموسكو عن كيف ينبغي التعامل مع الأزمة؟ ولم يكن لدي أي فكرة عن وجود قنوات سرية للرئيس كندي مع السوفييت أو أن لدى السوفييت رؤوس صواريخ نووية في كوبا، كما لم أكن أعرف استعداد فيدل كاسترو لرؤية وطنه يدمر إذا كان ذلك يحقق النصر للسوفييت في نهاية الحرب الباردة،

ولم نعرف إلا بعد وقت طويل حين بدأت تظهر الوثائق السرية في الجهتين، عرفنا حينها الكثير من التفاصيل وأصبحت لدينا نظرة شاملة عما كان يحدث فعلاً، وهذه الهوة المعرفية ظهرت بين تجارب المحاربين وتاريخ حملة القصف، وعرفوا كيفية المخاطرة بحياتهم وهم يحلقون فوق ألمانيا ولكن لم يكن بإمكانهم معرفة النقاشات في القاعة البيضاء أو تأثير القنابل التي ألقوها، هذه المعرفة يمكن أن تأتي فقط مع الإدراك المتأخر والكثير من البحث والتحليل.

وكما يخبرنا علماء النفس فإنَّ الذاكرة خادعة، صحيح أننا نتذكر بعض الماضي، وعادة بتفاصيله الدقيقة، ونستطيع أن نتذكر ملابسنا وماذا قلنا في مناسبة معينة أو نتذكر المناظر أو الروائح أو الطعم أو الأصوات. ولكن لا نتذكر دائماً كل شيء بدقة، يقول دين أشسون (Dean Acheson) رجل الدولة الأمريكي المرموق إن المؤرخ آرثر شلسنقر جي آر (Arthur Schlesinger Jr)، قد احتاج إلى شرب كأس من المارتيني القوي بعد أن قضى صباح أحد الأيام يراجع ذكرياته، كان يضع مسودة عن استعدادات الوصول إلى ميناء بيرل هاربر ويتذكر جيداً وجوده في مكتب الرئيس روزفلت مع الرئيس كوردل هول (Cordell Hull)، وزير الخارجية في ذلك الحين، في ذلك اليوم المشهود من عام ١٩٤١م حين أخذت الولايات المتحدة خطوة قربتها من الحرب مع اليابان بتجميد أرصدة اليابان "كان الرئيس جالساً في مكتبه ويجلس كوردل هول قبالته وأنا أجلس على كرسي إلى جانب الوزير"، المشكلة في ذلك أن مساعده راجع السجلات ووجد أن هول لم يكن في مدينة واشنطن على الإطلاق في ذلك اليوم.

ونظن خطأً أن الذكريات مثل النقش في الحجر، إذا حدثت فإنها تبقى، وهذا الاعتقاد أبعد ما يكون عن الواقع، الذاكرة ليست فقط انتقائية وإنما أيضاً مرنة، في تسعينيات القرن الماضي كان هناك اهتمامٌ وشغفٌ شعبي باسترجاع الذكريات . وقامت

الشخصيات الرسمية بنشر كتب كما ظهرت هذه الشخصيات في الإعلام مدعية أنه يمكن كبت الذكريات المؤلمة والأحداث الصادمة تماماً، واكتشف عدد من المرضى بعد زيارتهم لمعالجين ذكريات بشعة مثل الاستغلال الجنسي من قبل والديهم، وأكل لحوم البشر، والعبادات الشيطانية، والجريمة. وانهارت العديد من العائلات وتدمرت حياة المتهم والمتهمين. والآن بعد أن هدأ الذعر، ثبت أنه لا يوجد دليل على الإطلاق بأن الإنسان يكبت الذكريات المؤلمة ويخفيها، وإذا كان هناك شيءٌ فهو بقاء الذكريات واضحة.

وحديثاً قام مختبر بيولوجيكال سايكيتري (Biological Psychiatry Lab) في مستشفى مكلين (McLean) بالتعاون مع كلية الطب بجامعة هارفرد بمشروع بحثي لمتلازمة الذاكرة المكبوتة، وأثار اهتمامهم ظهورها المفاجئ في أواخر القرن العشرين،فإذا كانت المتلازمة متأصلة في المخ البشري فبالتأكيد هناك دليل على وجودها عبر التاريخ، ووجدوا أمثلة على ذلك في أدب القرن التاسع عشر ولكن لم يجد الباحثون، على الرغم من أنهم قدموا مكافآت لمن يجد أي مثال سواءً في الكتابات الأدبية أو غيرها قبل العام ١٨٠٠م. وانتهى هؤلاء الباحثون إلى أن الظاهرة ليست عملية عصبية طبيعية ولكن متلازمة "مرتبطة ثقافيا" متجذرة في القرن التاسع عشر. وقد أدَّى انشغال الحركة الرومانسية بما وراء الطبيعة والخيال وأيضاً انشغال الأعمال المتأخرة، وأشهرها أعمال سيجموند فرويد، باللاشعور، إلى إيماننا بأنَّ العقل يمكنه أن يلعب حيلاً استثنائية علينا.

وننقح ذاكرتنا عبر السنين وهذا التنقيح في جزء منه غريزة إنسانية طبيعية لجعل أدوارنا أكثر جاذبية أو أهمية،ولكننا أيضاً نغير ها لأن الزمن والمواقف تتغير عبر السنين، في السنوات الأولى بعد الحرب العالمية الأولى، كرم المتوفون في فرنسا وبريطانيا كأبطال سقطوا وحاربوا للدفاع عن حضارتهم. ولم يزل هذا الوهم موجوداً إلى وقت

متأخر حين وعى الشعبان البريطاني والفرنسي وأصبحا يتذكران هؤلاء المحاربين كضحايا لصراع عقيم. كما ننقح ذاكرتنا مما نرى أنه لم يعد مناسباً أو صحيًا، وفي مقابلاتي مع النساء البريطانيات اللاتي عشن في الهند فترة الاستعمار البريطاني لها، كنت دائماً أسأل عن العلاقة بين الحكام البريطانيين ومواطنيهم الهنود، أخبرنني جميعهن دون تردد بعدم وجود أي توتر على الإطلاق بين القوميتين وأن البريطانيين لم يعبروا عن أي رأي عنصري، ومع ذلك نحن نعرف من مصادر معاصرة مثل: الرسائل، أو اليوميات، أن العديد وربما الأغلب، من البريطانيين في الهند كانوا ينظرون إلى الهنود بفوقية.

ونلمع ذاكرتنا أيضاً في استعادة الذكريات. حذر بريمو ليفي (Primo Levi) الذي فعل الكثير لإبقاء ذكرى مخيمات الحشود النازية حية في الذاكرة، من الذكرى التي تستدعى دائماً وتظهر على شكل قصة، بأنها تميل إلى أن تصبح نمطًا ثابتًا متبلورة ومكتملة ومزينة، مثبتة ذاتها بدلاً من الذاكرة الخام وتنمو على حسابها، وكلما زادت معرفتنا عن الماضي كلما أصبحت هذه المعرفة جزءًا من ذاكرتنا أيضاً. وفي إسرائيل قال بحزن مخرج فلم ذكرى محارق الهولوكوست يادفاشيم (Yad Vashem): لا يمكن الاعتماد على معظم التاريخ الشفهي الذي تم جمعه، ومع ذلك وعلى سبيل المثال: فإن الناجين من محارق الهولوكوست يتذكرون مشاهد الأعمال الوحشية الشهيرة بينما هم في الواقع لم يكونوا بأي حال قريبين من موقع الأحداث.

وفي عشرينيات القرن الماضي أطلق عالم الاجتماع الفرنسي موريس هالبوتشز (Maurice Halbwachs) مصطلح "الذاكرة الجماعية" على ما نعتقد أننا بالتأكيد نعرفه عن ماضي مجتمعاتنا. وكتب "تعرف عادة الذاكرة الجماعية، على الأقل الذاكرة الجماعية المهمة بأنها تعبير عن بعض الحقيقة السرمدية والأساسية عن الجماعة، وهي عادة تكون

مأساوية". ولذلك يتذكر البولنديون تقسيم وطنهم مشبهينه بـ "المسيح بين الأمم"- في القرن الثامن عشر كجزء من استشهادهم كشعب، ويتذكر الصرب معركة كوسوفو في عام ١٣٨٩م كذكرى لانهزامهم على الأرض وانتصارهم المعنوي في صراعهم الأبدي ضد المسلمين. وعادة تؤثر اهتمامات الحاضر على ما نتذكره كجماعة، فلقد اكتسبت كوسوفو أهميتها العميقة في ذاكرة الصرب حين كانوا يصارعون للحصول على استقلالهم في القرن التاسع عشر، وفي القرون السابقة كانت تذكر هذه المعركة كحادثة في قصة أكبر. والذاكرة الجماعية معنية بالحاضر أكثر من الماضي لأنها جزء مهم من كيف ترى مجموعة ما ذاتها، وعادة يمكن أن تكون ماهية هذه الذاكرة موضوعًا للنقاش والجدل بينما يعرفها هالبوتشز بالتالي،" سرد متنافس عن رموز مركزية في الماضي الجماعي وعلاقة الجماعة بالماضي، تناقش وتتداول من أجل إعادة تحديد الحاضر الجمعي".

يجادل بيتر نوفك Peter Novick؛ في كتابه الهولوكوست في الحياة الأمريكية The Holocaust in American Life" بأن الهولوكوست لم تكن سمة مميزة لليهود الأمريكيين إلا في ستينيات القرن الماضي، وخلال سنوات الحرب العالمية الثانية رغب القليل من اليهود الأمريكيين في تذكر أن إخوتهم في الدين كانوا ضحايا، وحفزت المنظمات اليهودية مجتمعاتها للنظر إلى المستقبل وليس إلى الماضي، ولم يبدأ التغير في الموقف إلا في الستينيات، ويجادل نوفيك بأن موضوع الضحية، بدأ يأخذ مكانة إيجابية بصورة جزئية، ويعود السبب في ذلك في جزء منه إلى أن حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣ بيَّنت قوة إسرائيل وحساسية استمراريتها.

وحين بدأ صهيونيون مشروعهم الجريء في إعادة إنشاء دولة إسرائيل في القرن التاسع عشر، نظروا إلى التاريخ اليهودي بحثًا عن رموز ودروس، ووجدوا من بين

عدة أشياء أخرى قصة ماسادا (Masada)، والتي حدثت في عام ٧٣ بعد الميلاد حين قضى الرومان على آخر بقايا المقاومة اليهودية لهم، وسجن مجموعة من نحو ألف رجل وامرأة وطفل يهودي في أعلى قلعة ماسادا. وحين أصبح واضحاً لهم أن القضاء عليهم محتم أقنع زعيمهم العازار بن يير (Elazar Ben-Yair) الرجال بأنه من الأفضل أن يموتوا ولا يخضعوا لروما، وقام الرجال بقتل نسائهم وأطفالهم ثم أنفسهم، والقصة موثقة ولكن لم تحظ باهتمام اليهود إلا في العصر الحديث، وينظر إلى حادثة ماسادا كرمز للإصرار اليهودي على الموت إذا احتاج الأمر ذلك في صراع اليهود من أجل الحرية وليس كرمز للخضوع لقدرهم المحتوم، وأصبحت هذه القصة في إسرائيل مصدر إلهام وقبلة للجيش الإسرائيلي والمدنيين على حد سواء، وتذكرها إحدى القصائد الشعبية "لن تسقط ثانية ماسادا". وفي السنوات الأخيرة ومع ازدياد التشاؤم حيال منظور السلام مع جيرانها، بدأت ذكرى جماعية أخرى عن ماسادا بالتشكل تحذر اليهود من مواجهتهم الدائمة للاضطهاد على يدي أعدائهم.

وتتركز الذاكرة الجماعية عادة في الواقع ولكن ليس بالضرورة. لو ذهبت إلى الصين فمن المحتمل جداً أن يخبرك أحدهم عن قصة الحديقة العامة الواقعة في منطقة مخصصة للأجانب في مدينة شنغهاي ومعلق على مدخل الحديقة "لا يسمح للصينيين والكلاب بالدخول" وفي الواقع تخصيص الحديقة للأجانب فقط إهانة كافية للصينيين إلا أن الإهانة الحقيقية بالنسبة لأغلب الصينيين هو جمعهم مع الكلاب في جملة واحدة، والمشكلة الوحيدة أنه لا يوجد أي دليل على وجود هذه اللوحة، وحين أبدى بعض المؤرخين الصينيين الشباب شكهم في وجود هذه اللوحة في عام ١٩٩٤م كانت ردة فعل الصحف غاضبةً وكتب أحد الصحفيين المعروفين:

البعض لا يفهمون إهانة تاريخ الصين القديم أو أنهم يحتضنون مواقف مشككة ويذهبون إلى حد كتابة تاريخ الإهانة التاريخية باستخفاف وهذا شيء خطير".

ربما يكون خطيراً مناقشة القصص التي يرويها الناس عن أنفسهم لأن الكثير من هويتنا يصاغ ويرتبط بتاريخنا، ولذلك فإنَّ التعامل مع الماضي في اختيار الرواية التي نريد، أو ماذا نريد أن نتذكر، وماذا نريد أن ننسى قد يكون مشحونًا سياسيًا.

الفصل الرابع

التاريخ والهوية

HISTORY AND IDENTITY

نناقش التاريخ لأ نه ربما يكون ذا أهمية في الحاضر، ونستخدمه بعدة طرق ليساعدنا على تحقيق أهداف في المستقبل، على سبيل المثال، للمطالبة بأرض أو، للأسف، لمهاجمة الآخرين والتقليل من شأنهم، ويمكن أن تندرج معرفة الماضي تحت أحد أنواع المعالجة حين نكشف معلومة عن مجتمعاتنا أهملت أو كبحت، وأيضاً يصبح التاريخ بالنسبة لهؤلاء الذين لا يملكون سلطة أو لا يملكون سلطة كافية وسيلة للاحتجاج ضد تهميشهم، أو ضد اتجاهات لا تعجبهم مثل العولمة، ويمكن استخدام التاريخ الذي يكشف الظلم الماضي أو الجرائم للمطالبة بإعادة طرح الموضوع في الحاضر، ويساعدنا التاريخ جميعاً، القوي والضعيف على حدٍ سواء، على تحديد هويتنا وشرعيتنا.

أحد الأسئلة التي نوجهها إلى أنفسنا: من أنا؟ وأيضاً وبنفس الأهمية: من نحن؟ نستقي جزءًا كبيرًا من هويتنا من المجتمعات التي ولدنا فيها أو التي اخترنا أن ننتمي إليها، وبالطبع بإمكان التاريخ أن يجد الطريق الذي نحدد فيه هويتنا، الجنس والعرق، الميول الجنسية والعمر والطبقة الاجتماعية والجنسية والدين والعائلة والقبيلة والمكان الجغرافي والوظيفة، وكما تظهر طرق جديدة لتحديد هويتنا كذلك الحال في المجتمعات

ففكرة مسمى "المراهقين"، مثلاً، بالكاد ظهرت قبل العام ١٩٠٠م. كان الناس قبل ذلك مقسومين إلى بالغين وأطفال، وفي القرن العشرين، في الدول المتطورة، أصبح الأطفال يبقون في المدارس وقتاً أطول وبالتالي زاد اعتمادهم على والديهم، وأصبحت سنوات المراهقة جسرًا طويلاً بين الطفولة والبلوغ، ووجد السوق فرصة سانحة في ذلك، فأصبح لدينا ملابس مراهقين خاصة، وموسيقى ومجلات وكتب وبرامج استعراض مخصصة لهم.

ونرى أنفسنا كأفراد وأيضاً كجزء من مجموعة، أحياناً تكون مجموعتنا صغيرة ربما العائلة الممتدة، وأحيانا كبيرة، أطلق بندكت اندرسون (Benedict Anderson) العبارة المشهورة "الجماعات المتخيلة" للجماعات، مثل الشعوب أو الأديان والتي تكون كبيرة ولا يمكن معرفة جميع أعضائها ولكنها لا تزال تحظى بولائنا. وتميز الجماعات هويتها من خلال الرموز، سواء أعلام أو فانيلات ملونة، أو أغاني خاصة. كما يلعب التاريخ دوراً رئيسياً في عملية التعريف، وعرفت أفواج الجيوش منذ وقت طويل أهمية التاريخ في خلق شعورا بالتماسك والالتحام. ولذلك لديهم التاريخ النظامي وتكريم المشاركين في معارك الحملات الماضية وليس غريباً أن يحتفى بقصص الوطن المروية من جانب أحادي ساذج.

يعرف معظم الأمريكيين قصة شجاعة بول ريفر (Paul Revere): الوطني الشجاع الذي ركض وحيداً في ظلام ليلة من عام ١٧٧٥م ليحذر زملاءه الثوار عن قرب هجوم الجنود البريطانيين وبعد ذلك بثمانية عقود رسخ هنري وادزورث لونقفلو (Henry Wadsworth Longfellow) ذلك في ذاكرة الأمريكيين في ملحمته الشعرية، ومن المؤسف للمؤرخين، ورود بعض التفاصيل الرئيسة خطأ، على سبيل المثال: ريفر لم يضع المشاعل على برج الكنيسة القديمة الشمالي لتشير إلى حركة البريطانيين (إشارة

واحدة إذا كانت الحركة على الأرض واثنتان إذا كانت في البحر) بل كانت إشارة له هو، وربما الأهم أنه لم يكن يعمل وحيدًا ولكن كجزء من خطة محكمة وإستراتيجية منسقة جيداً. في تلك الليلة خرج عدد من الفرسان في اتجاهات عدة، وجد ديفيد هاكيت فيشر (David Hackett Fischer)، الذي كتب عن الدراسة المؤكدة عن حادثة تلك الليلةأن الحادثة الأخيرة نسخة أصدق من رواية لونقفيلو. "كلما عرفنا أكثر عن هؤلاء الموفدين كلما أصبح دور بول ريفر أكثر إمتاعًا- ليس فقط كموفد وحيد ولكن كمنظم مبادر لجهد مشترك من أجل الحرية".

أيضاً قام المؤرخون بدراسة أسطورة الغرب الأمريكي وساعدت المئات من الأفلام الغربية وآلاف الروايات لكتاب مثل زين جري (Zane Grey) (والذي لم يذهب إلى الغرب إلا مرة واحدة في حياته لقضاء شهر العسل) وكارل مي (Karl May) (لم يذهب هناك على الإطلاق) في رسم صورة عن عالم غربي يتغلب فيه رعاة البقر الشجعان والمستوطنون الجدد على قبائل الهنود المتوحشة، وألقت الأسطورة سحرًا قويًّا على المتلقِّين. ويلاحظ حب النخب السياسية الأمريكية بدءًا من الرئيس تيدي روزفلت وانتهاءً بجورج دبليو بوش تقديم أنفسهم كرعاة بقر جريئين.

وحتى هنري كيسنجر (Henry Kissinger) سقط تحت تأثير هذا السحر، وإن بدا ذلك غير مناسبٍ له، حين أخبر الصحفي الإيطالي أوريانا فالاشي (OrianaFallaci): "الأمريكيون مثل راعي البقر الذي يركب في مقدمة العربة وحيدًا على حصانه ليقود القطار، يأخذ دور القيادة فقط، ويكون في المكان المناسب في الوقت المناسب". ومع ذلك، فإنَّ الغرب القديم "الحقيقي" زمن تحرك عربة القطار عبر المساحات الحدودية المفتوحة بلا قوانين، وقد كان كذلك لفترة قصيرة فقط، تقريبًا، منذ أربعينيات القرن التاسع عشر، حين ازداد تحول المستوطنين إلى قرب نهر ميزوري، وافتتاح أول سكة

حديد عابرة للقارة في عام ١٩٦٨م، بالإضافة إلى، تحول العديد من السلوكيات المألوفة إلى شيء أكثر تعقيدًا وحتى مزعجًا، كان رعاة البقر عادة مراهقين مأجورين من الذين يمكن أن نجد أمثالهم في عصابات المدن أو السجن، كان بيلي ذا كيد (Billy the Kid) قاتلاً بارد الدم وساحراً، وسيدة الصالون اللطيفة والجذابة مس كيتي رسل (Kitty Russell) في المسلسل التلفزيوني جن سموك *(Gunsmoke)* كانت ستبدو مختلفة في الغرب القديم الحقيقي، كانت النساء المماثلات لها على الحدود بائسات وبائعات هوى رخيصات، وفي العادة مخمورات ومليئات بالأمراض، وانتحر العديد منهن.

وتواجه الأساطير الوطنية المترابطة تحدياً من قبل تلك المناطقية القوية وخاصة في الجنوب. وقد أنشأ الأمريكيون البيض بعد الحرب الأهلية في الجنوب تاريخهم الخاص، وليس غريباً أن جنوب ما قبل الحرب القديم أخذ وهجاً ذهبياً، حيث يوجد الرجال والنساء المحترمون، وحيث تصطبغ العلاقات بين الناس بالرقة والأدب وحتى بين الرقيق وأسيادهم، ولكنَّ انتصار الأمريكيين الشماليين أنهى حضارة قائمة، ولم تجلب إعادة البناء إلا الخسارة والتراجع، وكانت منظمة يونايتد دوترز آف ذا كونفدراسي (The United Daughters of the Confederacy) والتي تأسست عام ١٨٩٤م يقظة في مراقبة المناهج الدراسية للتأكد من أن نسختها المعتمدة هي التي تُدرَّس في المدارس، وأذعن ناشرو الكتب التعليمية لنشر نسختين مختلفتين عن التاريخ الأمريكي: واحدة للجنوب تقلل من شأن موضوع الرق وتتجاهل وحشيته والأخرى للمدارس الشمالية، وقُدِّمت للأطفال السود في مدارسهم المفصولة عن مدارس الأطفال البيض صورة عن الجنوب يغيب فيها بشكل كبير الرق والعنصرية، و يقال لهم علاوة على ذلك أيضاً بأن الأفارقة محظوظون لأنهم جلبوا إلى أمريكا واحتكوا بالحضارة الأوروبية، كان محزناً أن الكتب المدرسية تختم بأسى بعبارة أن الأفارقة لا يملكون

القدرة الفردية للاستفادة من الفرصة المتاحة لهم. وبذل المعلمون السود جهدهم لكشف بطلان هذه الآراء وذلك بإدخال تاريخ الأفريقيين والأمريكيين الأفارقة إلى مدارسهم، ولم يكن ذلك دائمًا سهلاً لأنه كان يتوجب الموافقة وتصديق المناهج من قبل مجلس أمناء المدارس البيض.

ودعمت الاحتفالات العامة والمتاحف والأرشيفات النسخة البيضاء عن تاريخ الجنوب، وتنتشر في كل أرجاء الجنوب مثل: الساحات العامة، والحدائق والميادين أسماء أبطال الكونفدرالية وتماثيلهم. أقامت ولاية فرجينيا في عام ١٩٥٧م احتفالاً بالذكرى ٣٥٠ لأول مستوطنة في مدينة جيمس تاون، وكان الماضي المحتفى فيه ماضي البيض ولم يكن هناك ذكر للهنود السكان الأصليين، أو العبيد الأفارقة الذين جُلبوا بعد ذلك بسنين، ولم يدع أي شخص أسود للاحتفال في عام ١٩٥٧م، ولكن دعي بالخطأ ستة أشخاص وتم إلغاء دعواتهم بسرعة.

وفي ستينيات القرن الماضي ومع نمو حركة الحقوق المدنية، بدأ ميزان القوى في الجنوب يتحول ويتحول معه التاريخ الجنوبي. وبتوحيد الولايات واحدة بعد الأخرى لنظام مدارسها أصبحت الكتب المدرسية القديمة مخجلة، وبدأت المتاحف تعترف بالحضور الأسود في الجنوب في عروضها ومعارضها، وبالتأكيد كان عرض متحف الكونفدرالية للأغلال الحديدية علامة على تغير الزمن، وضغط سود الجنوب للحصول على متاحف لهم تضم تاريخ المواطنين السود وتاريخ الحقوق المدنية، ولم تكن مهمتهم دائماً سهلة، ليس فقط بسبب معارضة البيض القوية ولكن لأن تاريخ السود لم يكن ذا قيمة للمؤسسات التي يسيطر عليها البيض وببساطة لم يتبق الكثير من التوثيق والأعمال الحرفية التي كان يمكنها أن توضح تاريخ السود في الجنوب، وازدادت مطالبة السود بالاحتفاء بأبطالهم في المجالات العامة. وكانت مدينة ريتشموند

(Richmond) بولاية فرجينيا، وهي المدينة الأولى التي تنتخب مجلسًا بلديًّا أغلبيته من السود في عام ١٩٧٧م، وأضيف تمثال للاعب التنس الأسود العظيم أرثر آش (Arthur Ashe) إلى جانب تماثيل أبطال الحرب الأهلية في شارع مونيومنت. وفي عام ٢٠٠٠م سُميِّ جسران فوق نهر بوتوماك (Potomac) بأسماء جنود الحرب الأهلية ستون ول جاكسون (Stonewall Jackson) وجب ستيورت (Jeb Stuart) وأعيدت تسميتهما بأسماء المناضلين المحليين للحقوق المدنية.

وحاول البيض والسود في الجنوب مؤخرًا تقاسم تاريخ مشترك. وفي عام ١٩٩٩م وقف البيض والسود معاً حين رفع الغطاء عن لوحة طريق عام تشير إلى إعدام زوجين أسودين منذ نصف قرن، وكانت هذه المرة الأولى في تاريخ الإعدام السيئ السمعة الذي يعلن في ولاية جورجيا، وكتبت إحدى الصحف المحلية" حان الوقت لتلتئم الجروح". وفي وليمزبورق في فرجينيا (Williamsburg, Virginia) وهي إحدى المستعمرات المحفوظة بعناية ولم تكن هناك أي إشارة إلى سكانها السود الكثيرين والتجديد التاريخي يشير إلى البيض فقط. ويبين التاريخ الأجد العلاقة بين العبيد وملاكهم، وعلى سبيل المثال: هناك حالات تدخل فيها السياح الغاضبون حين بدا تصوير ضرب العبيد الهاربين حقيقياً لهم، ولكن لا يقدر الجميع النظرة الواسعة للماضي، ولا يزال العديد يرون أنه يجب أن يكون التاريخ مشجعاً وليس محزناً. ويحتج المعارضون لإقامة تذكار ثورة العبيد الفاشلة في فرجينيا بأنه احتفال بالعنف.

والشعور بالانتماء لشيء ما، في أيامنا هذه المتغيرة يبعث على الراحة. إذا كنا مسيحيين أو مسلمين أو كنديين أو أسكتلنديين أو مثليين فإنَّ ذلك يعني أننا ننتمي إلى شيء أكبر وأكثر استقراراً واستمرارية من أنفسنا، جماعتنا تسبقنا زمنيًّا وستبقى بعد موتنا، وحين لا يؤمن البعض منا بفكرة البعث بعد الموت فإن انتماءنا لجماعة ما يعدنا

بنوع من الخلود على الرغم من أن الهوية يمكن أيضاً أن تكون مصيدة تسجننا وتفرقنا عن بعضنا، وفي العصر الفيكتوري كان يقال للطفل "لا تبك فأنت سيد بريطاني صغير". وكرر على مسامع النساء الطلب بأن يكنَّ أعضاء وديعات ومستسلمات في مجتمعات معينة، ويقال للجيران بأن لا يثقوا ببعضهم البعض لأنهم صرب أو كروات، مسلمين أو يهود. ويذهب البروتستانت والكاثوليك في مدينة تورنتو، حيث نشأت، إلى مدارس مختلفة عن بعضها، وكان ينظر بعين الخجل والحرج إلى زواج أحد أفراد إحدى الطوائف من الأخرى. والتاريخ وسيلة لتأكيد المجتمع المتخيل، ولنأخذ مثلاً القوميون فهم يحبون أن يدعوا بأن قوميتهم وجدت منذ القدم وترجع إلى تلك الفترة الضبابية غير الواضحة تاريخيًّا. وتدعي الكنيسة الإنجليكية، بغض النظر عن انفصالها عن روما خلال فترة الإصلاح الديني، أنها جزء من تطور غير منقطع يمتد للكنيسة الأولى. وفي الحقيقة فإن دراسة أي مجموعة يبين أن هويتها عملية مستمرة وليست ثابتة. وتعرف المجموعات ذاتها وتعيد التعريف عبر الزمن في استجابة لتطور داخلي، ربما صحوة دينية أو ضغط خارجي. وإذا كنت مضطهدًا أو ضحية، مثل وضع المثليين ولا يزالون كذلك في العديد من المجتمعات، فإن ذلك يصبح جزءًا من رؤيتك لذاتك. وأحياناً يقود ذلك إلى منافسة غير لائقة بالنسبة للضحية. فمثلاً يشاهد الأمريكيون السود بغضب المكان الكبير الذي يحتله الاحتفال بذكرى الهولوكوست في الضمير الأمريكي، ويتساءل البعض أليس الرق جريمة لا تقل بشاعة عن الهولوكوست؟

وحين تنمي المجموعات التي كانت سابقاً مهمشة أو مغفلة شعوراً بالذات فإن الماضي حتماً سيأخذ دوره، فعلى سبيل المثال: تطور تاريخ النساء والمثليين أكثر من قبل حين بدؤوا يطالبون بحقوق أكبر وساعدت دراسة المؤرخين للجوانب التي كان فيها النساء والمثليون منتقصين في الماضي أو كيف تعاملوا مع ذلك، أو بالكشف والحديث

عن البدايات النسوية أو الناشطين المثليين على خلق شعور بالتضامن وأيضاً الإحساس بأحقية الحصول على تعويض بشكل من الأشكال.

أنشأ المؤرخ والمعلم الأمريكي الأسود كارتر جي ودسن (Carter G. Woodson)، في عشرينيات القرن الماضي تقليد *أسبوع تاريخ السود* لإيقاف الصورة النمطية للسود عند البيض وتم ذلك جزئيًّا بالتركيز على إنجازات السود، وبحلول سبعينيات القرن الماضي نجح الأمريكيون السود في إعلان حقوقهم من خلال حركة الحقوق المدنية وازداد فخرهم بأنهم سود. وفي عام ١٩٧١م ومع احتفالات الولايات المتحدة بيوبيل مرور مائتي عام على وجودها، أصبح أسبوع ودسن *شهر تاريخ السود*. وأرسل الرئيس جيرالد فورد (Gerald Ford) تهنئة جاء فيها "أخيراً شهد الربع الأخير من القرن العشرين خطوات مهمة في مسيرة الاندماج التام للسود في كل أوجه الحياة الوطنية، ويمكننا في احتفالنا بشهر تاريخ السود النظر برضى إلى التطور الحديث في تحقق تصور الآباء المؤسسين المثالي، وأكثر من ذلك، نقتنص الفرصة لتكريم الإنجازات التي حققها السود الأمريكيون والتي غالباً ما تم تجاهلها في كل محاولة عبر تاريخنا." وتتشابه أهداف الشهر الأمريكي مع مثيلها في المملكة المتحدة والذي يحتفل بإسهامات السود في المجتمع البريطاني ويشجع السود على الاعتزاز بثقافتهم، وفي كندا اشتكى في تسعينيات القرن الماضي، أهالي الطلاب السود من قلة المعلومات التي تقدمها المدارس المحلية عن إسهامات السود في كندا. وقال مدير المركز الثقافي للسود في نوفا سكوتيا (Nova Scotia) "مكان الأفارقة خارجاً في أمريكا". والآن يحتاج السود بعد أن دخلوا في التيار العام أن يعرفوا تاريخهم. وبالنسبة للقادة السود الآخرين كان تاريخهم بمثابة وسيلة للتعامل مع عالم عدائي حولهم والتغلب على الصورة النمطية عنهم. وفي عام ١٩٩٥م استجابت الحكومة الكندية لضغط السود وأصدرت مرسومًا ينص على أنَّ لكندا شهرها الخاص بتاريخ السود

"للاحتفال بالإسهامات والإنجازات العديدة للكنديين السود الذين قاموا بالكثير عبر التاريخ من أجل التنوع الثقافي الكندي ولتكون كندا متعاطفة وناجحة كما نعرفها اليوم".

واليوم يصر النشطاء من الصم على أن الصمم ليس إعاقة ولكنَّه علامة فارقة في طريق الاستقلال لإنشاء "مجتمع الصم". ويرفضون التدخل الطبي مثل: زراعة القوقعة، أو محاولات تدريب الأطفال الصم على الحديث (يقولون بازدراء "شفوي") كما يصرون على أن لغة الإشارة لغة كاملة بحد ذاتها، ويرمز كتابة الحرف الأول من كلمة الصم باللغة الإنجليزية بالحجم الكبير إلى أن الصمم ثقافة وليس ببساطة فقد حاسة السمع، ويقدم الباحثون أوراقاً علمية ويدرسون كتباً عن تاريخ الصم كما ينشرون كتباً بعناوين مثل إرث الصم في كندا ثقافة متنوعة وصابرة *"Deaf Heritage in Canada: A Distinctive, Divers, and Enduring Cultur"e*، أو *"Britain's Deaf Heritage"* أرث بريطانيا من الصم، وفي عام ١٩٨٤م بدأ برفسور أمريكي اسمه هارلين لين (Harlan Lane) بالبحث والنشر عن اضطهاد الصم في الماضي، وبالرغم من أنه يستطيع السمع إلا أنه مع ذلك يتعلم لغة الإشارة.

ويضع من يعتبرون أنفسهم صم شريطة زرقاء اللون لأن النظام النازي كان يجبر الصم على حملها، وفي احتفال الشريطة الزرقاء الرسمي بأستراليا عام ١٩٩٩م تحدث سبعة أشخاص صم وهم يحملون الشموع، عن ثقافتهم وتاريخهم واستمرارهم كمجتمع. " نتذكر الصم الذين كانوا ضحايا تعلم اللغة المنطوقة في تعليمهم وحرموا من لغة الإشارة والمدرسين الصم". وأكمل المتحدث "نتذكر المحاولات المستمرة للتخلص منا سواءً بطردنا أو منع ولادتنا، وذلك بمنع الصم من الزواج من بعضهم، والتعقيم القسري". وفي مؤتمر حديث للصم في المملكة المتحدة قال لين لمستمعيه البريطانيين إن معالجي النطق ومصنعي مساعدات السمع في الولايات المتحدة كونوا

تحالفاً قوياً لطحن الأقلية الصماء، أيضاً أشاد بادي لاد (Paddy Ladd)، وهو برفيسور بريطاني أصم ومتحمس للموضوع بالعالم الفرنسي الأصم فرديناند بريثير (Ferdinand Berthier)، والذي أحبطت محاولاته لإنشاء مجتمع دولي للصم بسبب الأمبريالية الشفوية. وفي تاريخ الصم هناك فترة أسعد ويمكن القول بأنَّها عصر ذهبي، حين أنشأ قسيس فرنسي جليل مدرسة للأطفال الصم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وعرف أهمية وجود لغة الإشارة الخاصة بهم، ولسوء الحظ، بالنسبة لناشطي الصم، يظهر السجل بأنه لم يكن ينوي أن تكون اللغة هدفاً بذاتها ولكن مرحلة في سبيل تعليم طلابه قراءة الشفاه وربما حتى الحديث.

قد تكون العصور الذهبية عوامل مؤثرة في تحفيز الناس في الحاضر. طالب جوسيب مازيني (Giuseppe Mazzini)، وطني إيطالي عظيم من القرن التاسع عشر، شبه الجزيرة الإيطالية المنقسم بالاتحاد قائلا: "كانت ولا تزال الوحدة قدر إيطاليا" وأضاف "قامت إيطاليا مرتين بفرض المدنية عبر جيش قيصر وصوت كرسي البابوية- وقدرها أن تقوم مرة ثالثة بالشعب - الأمة"وكان مازيني أيضاً ليبراليا يؤمن بأن العالم المليء بشعب يحكم ذاته سيكون سعيداً وديمقراطياً ومسالماً، إلا أن نصيحته شابتها نغمة متشائمة حين قال: "هؤلاء الذين لم يستطيعوا منذ أربعين عاماً أن يروا علامات التقدم نحو الوحدة التي تحققت في المراحل المتعاقبة في الحياة الإيطالية، هم ببساطة لا يرون نور التاريخ ولكن إذا حاول أحد، في وجه هذا التمظهر الرائع والحقيقي لشعبنا، أن يقودهم مرة أخرى إلى فكرة الكونفدرالية، وحرية المحافظات المستقلة فإنه يستحق أن يوصف بالخائن". يمكن للتاريخ العظيم أن يكون واعداً ولكنه أيضاً قد يكون حملاً بغيضاً. فلقد وعد موسوليني الإيطاليين بإمبراطورية رومانية ثانية وقادهم إلى كارثة في الحرب العالمية الثانية.

آمن الوطنيون اليونانيون ومؤيدوهم الأوربيون في بدايات القرن التاسع عشر بأنهم يحررون ورثة الحضارة الإغريقية الكلاسيكية من الأمبراطورية العثمانية، وبالتأكيد سيمنحهم التاريخ فرصة ثانية، وكتب الباحثون اليونانيون كتباً تبين وجود خط متصل يبدأ من العالم الكلاسيكي ويصل إلى العالم الحديث. (وتم التغاضي عن مغلب القرون الأربعة من الحكم العثماني). وتجاهلوا أو سخروا من الباحثين الأجانب الذين أشاروا إلى أن مثل هذه النظرية سطحية جداً، ووضعت كتابة اللغة اليونانية على مثال الكلاسيكية اليونانية، وبذلك عانى أطفال المدارس من التعامل مع لغة تختلف كثيراً عن اللغة التي يتحدثون بها، واستمر الوضع كذلك حتى عام ١٩٧٦م حين قبلت الحكومة أن تكون اللغة اليونانية الحديثة هي اللغة الرسمية، والأخطر، كأن الماضي كان يحمل الأمل بولادة إمبراطورية يونانية وأثناء الحرب العالمية الأولى جمع الثيوريوس فينزلد (EleutheriosVenizelo)، سياسي يوناني رائد، أصدقاءه حول خريطة ورسم حدود اليونان القديمة، في ذروة قوتها عبر الحدود الحديثة، وتشمل حدودها معظم تركيا المعاصرة، وجزءًا كبيراً من ألبانيا ومعظم جزر شرق المتوسط. (كان يمكنه أيضاً إضافة أجزاء من إيطاليا ولكنه لم يفعل). وأرسل الجنود الإيطاليون تحت تأثير هذه الفكرة العظيمة إلى آسيا الصغرى في عام ١٩١٩م للاستيلاء على ماتدَّعيه اليونان من الأراضي، وكانت النتيجة كارثة للجيش اليوناني ولجميع اليونانيين الأبرياء الذين عاشوا لأجيال فيما أصبح يسمى تركيا الحديثة. وحين دحرت الجيوش التركية الفتية تحت قيادة كمال أتاتورك القوات اليونانية وتراجع اليونانيون إلى الوراء يتبعهم مئات الألوف من اللاجئين المذهولين، والعديد منهم بالكاد يعرف اليونان، وفي المقابل هجرت أعداد كبيرة من الأتراك منازلهم وقراهم حيث كانوا يعيشون بسلام مع جيرانهم اليونانيين لا يفرقهم عنهم إلا الديانة ورحلوا إلى تركيا، وأصبحت أحداث هذه السنوات جزءاً من التاريخ وسممت العلاقات بين اليونان وتركيا حتى يومنا هذا.

وتعود الإيديولوجيات أيضاً إلى التاريخ ولكن التاريخ يصبح بين يديها نبؤه، وبالنسبة لهذه الإيديولوجيات فإن المؤمن قد يعاني وربما تستمر معاناته، ولكن التاريخ يسير إلى نهاية محتومة، وسواءً كانت الإيديولوجيا علمانية مثل الماركسية أو الفاشية أو دينية مثل الأصوليين في معتقدات مختلفة إلا أن القصة التي يروونها بسيطة بشكل مذهل وشاملة وكل الأحداث موجودة في القصة الكبيرة وكل ذلك موضح فيها. يتذكر الكاتب ارثركوستلر (Arthur Koestler) إحساسه بالراحة والسعادة حين اكتشف الماركسية في السنوات العصيبة حين كانت جمهورية فايمر (Weimar) تتداعى والنازيون يصلون إلى السلطة .أصبح الماضي والحاضر والمستقبل مفهوم: " وبدا وكأن الضوء الجديد يسقط من كل الاتجاهات عبر الجمجمة وينتظم جميع الكون في قالب مثل قطع الأحجية الصغيرة التي تنتظم بضربة واحدة".

آمن كارل ماركس بأنه اكتشف أن التاريخ تحكمه قوانين مثله في ذلك مثل العلوم وتبين هذه القوانين أن الشيوعية قادمة لا محالة في المستقبل، بدأ التاريخ باشتراكية بدائية عالم مثالي من الصيادين والحطابين ولم يكن هناك ممتلكات خاصة بل كان الجميع يتشاركون حسب احتياجاتهم، ووعد ماركس بأن نهاية التاريخ ستكون مجتمعًا مشابهًا لبدايته ولكن هذه المرة وبفضل ا لأنواع الجديدة والمحسنة من الإنتاج، سيكون أكثر نجاحاً. ورأت الفاشية نفسها مثل الاشتراكية، تواجه المستقبل ولكنها أيضاً تلامس وتر المشاعر والذكريات، وأخذت النازية الكثير من الخرافات والأساطير القديمة والشخصيات التاريخية مثل فريدريك العظيم أوفريدريك بارباروسا (Frederick Barbarossa)، الذي توج ملكاً لألمانيا في القرن الثاني عشر، والفرسان التوتايون المعاصرين لتلك الفترة والذين شملت حروبهم الصليبية ليس فقط الأراضي المقدسة ولكن تعدتها إلى الكثير من مناطق البلقان، ويفترض أن يؤكد هؤلاء عبقرية واستمرارية العرق الألماني- والحاجة له

لاستكمال المسيرة للأمام، وكتب هتلر في كتابه "كفاحي *"Mein Kampf*" نبدأ من حيث توقفنا قبل ستمائة عام" ويكمل قائلاً: أوقفنا حركة الألمان المستمرة إلى الجنوب والغرب ونظرنا نحو الشرق". وبالطبع الأصوليون الدينيون يفعلون ذلك حين يدعون المؤمنين إلى العودة إلى الدين "الحقيقي" كما كان حين عاش جميع المؤمنين في تناغم، مطيعين للشرائع التي أعطيت لهم، على سبيل المثال: يريد الأصوليون المسلمون إعادة الخلافة الإسلامية وإعادة قانون الشريعة (بالرغم من صعوبة اختيار المدرسة التشريعية المناسبة من بين عدة مدارس فقهية).

وأصبحت العودة للماضي والإخفاقات جزءاً من هذه القصص بدلاً من دراسة مدى مصداقيتها، وإذا كانت هناك معاناة للمؤمنين فإن سبب تلك المعاناة خطط ومكائد أعدائهم، وبالطبع بالنسبة لهتلر كان هؤلاء الأعداء هم اليهود، فهم من بدأ الحرب العالمية الأولى وخلقوا الثورة البلشفية وعملوا جهدهم ليعاني الشعب الألماني من جراء معاهدة فرساي، وكرر هتلر تحذيره بأنه سيدمرهم، ونعتهم بـ "طفيليات أوروبا" لو تجرؤوا على بدء حرب أخرى. وكانت الحرب العالمية الثانية خطأ اليهود وحان الوقت لإيقافهم للأبد. وإذا كان هناك شخص واحد مسؤول عن الحرب فإنه هتلر ولكن العقل والمنطق لا يدخلان في رؤية هذه الأنظمة المغلقة نحو العالم. وفي عام ١٩٩١م حذر الداعية التلفزيوني الأمريكي بات روبرتسن (Pat Robertson) من أن انتصار بوش على العراق ليس كما يبدو، وكان يمهد الطريق لانتصار الشر وليس السلام. كان كل شيء واضحاً جداً لروبرتسن. منذ الثورة البلشفية في عام ١٩١٧م كانت هناك مؤامرة تدفع العالم نحو الاشتراكية وانتصار أعداء المسيح، وكان واضحًا أن الاتحاد الأوروبي جزء من المخطط وكذلك الأمم المتحدة، كانت حرب الخليج والصواريخ التي أسقطها صدام حسين على إسرائيل خطوات نحو النهاية المحتمة.

إنَّ ممًّا يساعد المؤمنين على التحمل تذكر شرور الماضي ، صحيح أن الحاضر قد يبدو حالكًا ولكن هذا أيضاً جزء من قصة انتصار المؤمنين وتحقق الجنة على الأرض أو في السماء. بعد أسابيع قليلة من تفجيرات ١١ سبتمبر ، ٢٠٠١ أصدر أسامة بن لادن شريطًا هلل فيه لتدمير مبنى برجي مركز التجارة العالمي قائلا : "ذاقت أمتنا الإسلامية هذا الألم وعاشت أكثر من ثمانين عاماً من الذل والمهانة ، يُقتلُ أبناؤها وتسيل دماؤهم وتدنس مقدساتها". ولم يعرف القليل من الغربيين ذلك إلا منه ، بدأ انحطاط المسلمين في العصر الحديث مع انهيار الخلافة العثمانية ، حين قام كمال اتاتورك ، مؤسس تركيا العلمانية الجديدة ، في عام ١٩٢٤ بخطوة لم يكن لها صدى كبير في الغرب وهي إلغاء آخر منصب سلطان من السلطنة العثمانية ، كان العثمانيون كخلفاء يملكون السلطة الروحية في العالم الإسلامي. وانسحب آخر السلاطين وهو شاعر رقيق إلى المنفى بهدوء. كان إلغاء الخلافة بمثابة ضربة لكثير من المسلمين من الهند إلى الشرق الأوسط وحلمهم بعالم مسلم متكاتف يحكم بشرع الله ، وبالنسبة لابن لادن ومن يحملون فكره ، سمح الانفصال بين الدول الإسلامية للقوى الغربية بالتغلغل في الشرق الأوسط للاستيلاء على بتروله ، وأرضه بإنشاء دولة إسرائيل عليها وفساد قادتها ودفع المسلمين إلى الفساد. وبالنسبة لهم فإن الحكومة السعودية ارتكبت خطيئة لا تغتفر حين سمحت لقوات الولايات المتحدة بالدخول إلى الأراضي المقدسة "في الواقع الأراضي المقدسة والتي لا يدخلها غير المسلمين هي مكة والمدينة فقط (المترجمة)" والتي تضم أشد المناطق حرمة لدى المسلمين (الحرمين). ويشمل تاريخ ابن لادن فترة تمتد إلى أكثر من ثمانين عاماً. فهو يضم إلى جانب قصة إذلال المسلمين ومعاناتهم الحروب الصليبية وانهزام المسلمين في أسبانيا والإمبريالية الغربية في القرن التاسع عشر وشرور القرن العشرين ، ويغذي مثل هذا التاريخ الشعور بالغضب ويحفز ويجذب موالين جدد له.

وبالرغم من أن معظمنا لا يأخذ بمثل هذه النظرة الساذجة نحو العالم إلا أننا نجد التاريخ مفيداً لتبريرأعمالنا الحالية. وفي عام ٢٠٠٧م، قام رئيس وزراء كندا ستيفن هاربر (Stephen Harper) بزيارة إلى فرنسا للاحتفال بذكرى حرب فيمي ريدج Vimy Ridge التي قتل فيها العديد من الجنود الكنديين في عام ١٩١٧م. وكان الكنديون قلقين من دعم حكومته لحرب بوش ضد الإرهاب ومن الخسائر المتزايدة التي عانت منها القوات الكندية في أفغانستان، كان هاربر قد تحدث عن موقفه بوضوح: مصلحة كندا هي مساندة واشنطن تقريباً في كل قضية دولية رئيسة، وينوي أن يبقي القوات الكندية في أفغانستان على مدى المستقبل القريب، وأكد في حديثه على أن الانتصار على فيمي ريدج كان انتصاراً للقوات الكندية وشدد على أن ذلك كان لحظة عظيمة في نشأة الأمة الكندية، وقال: "لكل شعب قصة نشأة يرويها" وأكمل حديثه قائلا: "الحرب العالمية الأولى ومعركة فيمي ريدج محوريتان بالنسبة لقضية وطننا". ودفع الكنديون ثمناً غالياً لذلك الانتصار، وبقي مقصد هاربر يتراوح بين المديح والتقريع بسبب عدم دقة اختياره للكلمات، وخاطب الأحياء قائلاً بأن واجبهم تذكر "حجم" التضحية و"حجم" واجبهم وهو "متابعة مثال المحاربين وحب وطننا والدفاع عن حريته للأبد". واستحث مستمعيه القريبين وعلى نطاق كندا إلى أن يستمعوا إلى صوت الجنود المتوفين "قد نسمعهم يقولون بهدوء: أحب عائلتي، وأحب رفقائي وأحب وطني وسأدافع عن حريتهم للأبد".

ولا يجمع الكنديون اليوم على مفهوم هاربر لمعنى حرب فيمي ريدج، ولدينا وجهات نظر متعددة تجاه الماضي ومغزاه في الحاضر، وفي المقابل بذل الحزب الشيوعي جهده لإيصال وجهة نظر أحادية من التاريخ للشعب، وحين صدر كتابي "رحلة نيكسون إلى الصين" في عام ١٩٧٢م أظهر الناشرون الصينيون اهتماما بترجمته، وبالطبع سيكون هناك بعض التغييرات البسيطة، سيحذف الجزء الخاص بالثورة الثقافية

وحياة ماو الخاصة والمثيرة للإشاعات (لم ينشر الكتاب في الصين حتى الآن). وعلى الرغم من تخلي الحزب الشيوعي عن معظم سياسات ماو إلا أنه لا يزال ينظر له كأب للثورة الشيوعية، ومجرد النقاش حول ماو يعني التقليل من سلطة الحزب لحكم الصين.

وتجد الأنظمة المستبدة طريقة ذكية لاستخدام الماضي أيضاً كأداة نافعة في التحكم الاجتماعي. واسترجعت الحكومة الشيوعية في بكين التاريخ الصيني في تسعينيات القرن الماضي حين قلق الحزب الشيوعي من تضاؤل الإيديولوجية الشيوعية وارتفاع المطالبات بديمقراطية أوسع والتي أدت إلى مظاهرات في ميدان تيانن مين (Tiananmen) في عام ١٩٨٩م. وفي عام ١٩٩٤م حضر أحد أعضاء المكتب السياسي، وهو القسم الرئيس في الحزب احتفالاً بذكرى الأمبراطور الأصفر، ربما يكون شخصية أسطورية منذ خمسة ألاف سنة ويقال بأنه الأب لجميع العرقية الصينية، ويبدو هذا الاحتفال مشابهًا لعبادة الأجداد بشكل ملفت، وهو أحد الممارسات التقليدية التي يدينها الشيوعيون. سمحت السلطات في السنة التالية بإقامة مؤتمر رئيس عن كونفوشيوس. وقبل عشرين عاماً، وتحت نظر وموافقة ماو، أحرق الجيش الأحمر الكتابات الكلاسيكية لكونفوشيوس وبذلوا جهدهم لهدم قبر الحكيم، كما رعى الحزب أيضاً حملة مهمة للتعليم الوطني، والذي يؤكد كما وضعه التوجيه الرسمي :"وطنية الشعب الصيني والعمل الوطني الشجاع". وأصبح سور الصين العظيم، الذي انتقد في العقود الماضية لتكلفته العالية في حياة المواطنين العاديين، رمزاً لتصميم الصينين على البقاء والانتصار. وقيل النزر اليسير عن أفراح الاشتراكية ولكن ربطت إنجازات الصين الماضية بدقة بالحزب الشيوعي الحاكم: "مفهوم الوطنية تاريخي وله معنى محدد في مراحل وأوقات مختلفة في التطور الاجتماعي، وفي الصين المعاصرة الوطنية في جوهرها مماثلة للاشتراكية". وبشكل آخر، الإخلاص للصين يعني الإخلاص للحزب، وقدم

تاريخ الصين كقصة صراع قرون من أجل أن يتحد الصينيون وينجحوا في وجه التدخل الخارجي واضطهاده، وربطت جميع الأحداث التي مرت بالصين: فشل الصين في استضافة الألعاب الأولمبية عام ٢٠٠٠م وحرب الافيون في بداية القرن التاسع عشر وانتقاد الاجانب للقمع الوحشي في ميدان تيانن مين والغزو الياباني في القرن العشرين كل ذلك ربط مع بعضه وحول إلى مخطط إمبريالي مستمر لتحطيم الأمة الصينية.

من السهل ألاَّ يجد الشخص حين ينقب في الماضي إلا قائمة من الشكاوي، وقد قام بذلك العديد من الدول والناس. وفي سبعينيات القرن الماضي ألقى الأمريكيون اللاتينيون الوطنيون بجميع مشاكلهم الحالية على كاهل الاستعمار ونسبوها له. ويفكر الصينيون بقرن من الذل عاشوه وبجميع الآلام التي عانوها على يد الإمبرياليين. وحين نشأت دولة يوغسلافيا الجديدة بعد الحرب العالمية الأولى تذكر الصرب والكرواتيون كل على حده تاريخًا مختلفًا، فبينما ينظر الصرب إلى أنفسهم كمحررين لرفاقهم السلافيين الجنوبيين فإن التاريخ الكرواتي يرى أنهم سُحبوا دون موافقتهم إلى بلد يسيطر عليه الصرب وحرموا من المشاركة العادلة في حكومتهم.

رسم الكنديون الفرنسيون صورة ماضٍ قاد فيه الغزو البريطاني في عام ١٧٦٣ إلى قرنين ونصف من الذل لهم، وقللوا أو تجاهلوا العديد من الأمثلة المتكررة من التعاون والصداقة بين الفرنسيين والإنجليز الكنديين. من وجهة نظرهم، الكنديون الفرنسيون - أبرياء وطيبون واجتماعيون وحليمون مع الآخرين- وهم أبطال القصة والإنجليز - لا مبالون وبلا مشاعر ومحبون للمال- وهم السيئون. دخلت إيستر ديليسيل (Esther Delisle)، مؤرخة من كيوبك، في مشكلات لمحاولتها جلاء بعض الغموض عن تلك الصورة، وبينت أن أبي لنول جرولكس (Abbe Lionel Groulx)، الباحث والمدرس المشهور، قد تحول إلى أيقونة للقوميين الكنديين الفرنسيين الذين تغاضوا عن

عنصريته ضد السامية. وبينما يؤكد القوميون الأخطاء التي حدثت تجاه كيوبك في أزمة التجنيد للحربين العالميتين، فإنها تشير إلى أنهم فشلوا في التعامل مع حقيقة وجود تعاطف واضح مع حكومة فتشي (Vichy) في فرنسا المؤيدة للنازية، وكما يؤكد ذلك الأعمال الحديثة عن بيير ترودو (Pierre Trudeau)، فهو مثل أعضاء النخبة الفرنسية الآخرين، عاش حياته وعمله بين الأعوام ١٩٣٩-١٩٤٥ دون اكتراث لما يحدث في العالم، وكتب ديلسيل "قراءة مذكرات بيير اليوت ترودو، وجيرارد بيلتر، وجيرارد فيلون (Pierre Elliott Trudeau, Gerard Pelletier, Gerard Fillion) وغيرهم من الكنديين الفرنسيين الذين تنتظرهم مهن مرموقة بدا وكأنهم لم يسمعوا شيئاً ولم يقولوا شيئاً عن ذلك، كانوا فقط مهتمين (وحتى ذلك هامشياً) بالصراع ضد التجنيد الإلزامي، ويحمل الموضوع أكثر من صمت ولمسة نرجسية . كانت هناك الحاجة لإخفاء المناصب والتي جعلها انتصار الحلفاء محرجة. ويجب على هؤلاء الرجال أن يُنسوا وأيضاً ينسوا الآخرين، انجذابهم إلى النغمات الساحرةللفاشية والديكتاتورية في أسوأ الأحوال، وفي أفضل الأحوال يجب عدم معارضتهم لها".

وقصص الماضي العظيمة أو البشعة أدوات مفيدة في الحاضر، ولكنها أيضاً تأتي على حساب إساءة استخدام التاريخ ويساء أيضاً للتاريخ حين يتجاهل الناس أو يخفوا أدلة تتعارض مع نظرتهم الشخصية تجاه الماضي.

وحالياً في اليابان، اليمين الوطني غاضب من علماء الآثار الذين سيفحصون بعض المقابر المتفرقة حيث دفن أجيال من العائلة الملكية اليابانية. وطالب الباحثون لسنوات بحقهم في البحث في المواقع التي يعود بعضها إلى القرن الثالث أو الرابع الميلادي، ويعود سبب الغضب الشعبي إلى إيمانهم بأن الأمبراطور مقدس وينحدر من الشمس مباشرة، واليابان من وجهة نظر الوطنيين "أرض مقدسة". والتفسير الأقرب للواقع هو أن العائلة المالكة

جاءت في الأصل من الصين أو كوريا، وحتى إذا كان ذلك ليس صحيحاً، فمن المحتمل وجود عدد كبير من الزيجات بين اليابان والأرض الرئيسة وبالتالي فإن دماء العائلة تحمل جينات غير يابانية، وسيقضى على جزء رئيس من الأسطورة القومية إذا وجدت الأبحاث دليلاً يؤكد هذه النظرية.

وتراوح التعامل مع المواقع الأثرية في اليابان حسب التيارات السياسية، وبينما كان الأباطرة مجرد رموز فقد أهملت معظم المواقع، ومع بدء اليابان مشروعها الوطني الكبير للتحديث السريع وهو إصلاح ميجي (Meiji) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر خدمت صورة الأمبراطور كرمز مُرض للإرادة الوطنية والتف حوله الشعب. وحين اكتشفت المقابر المشتبه بكونها أمبراطورية قامت الحكومة بشراء الأرض وإخلائها من السكان، ومنع الحفر فيها حتى هزيمة اليابان في عام ١٩٤٥م . بعدها باشر المحتلون الأمريكيون برنامجًا طموحًا لإعادة صياغة المجتمع الياباني ويشمل ذلك إعادة كتابة تاريخ اليابان نظرياً، رُفع الحظر عن التنقيب في المقابر الإمبراطورية، وبالتأكيد كان هناك عددٌ من الكشوفات التي أشارت إلى تأثير واسع للصين وكوريا على الثقافة اليابانية الأولى، ولكن بقي الوصول صعباً لأن وكالة المنازل الأمبراطورية والتي تدير الممتلكات الأمبراطورية- استمرَّ إصرارها على أن المواقع دينية يجب ألا تقلق أرواح أسلاف الأمبراطور، واستمرت مطالبة علماء الآثار بسماح كامل للبحث، واستلم العديد منهم تهديدات بالموت من مجموعات قومية متطرفة.

وهذا القلق عما يمكن أن يكشفه التنقيب ليس حكراً على اليابان. ففي عام ١٩٩٢م تعثَّر اثنان من المتفرجين على سباق الطائرات المائية على نهر كولومبيا بالقرب من مدينة كين ويك (Kennewick) في ولاية واشنطن بجمجمة بشرية، وأثار

اكتشافهما نقاشًا تراوح بين الشد والجذب واستمر لِعقدٍ من الزمن حول الجمجمة والعظام التي اكتشفت لاحقاً، وظهر أن البقايا ترجع إلى حقبة ما قبل التاريخ، نحو تسعة آلاف سنة والمدهش أن قسمات الجمجمة قوقازية وليست مثل قسمات السكان الأصليين، ويتعارض هذا الاكتشاف مع المجمع عليه بشكل واسع قبل هذا الاكتشاف بأن السكان البدائيين كانوا السكان المحليين للأمريكتين، وكانت الحكومة الفيدرالية والتي كانت تفضل تجنب التعامل مع هذه القضية، مستعدة لتسليم العظام إلى القبائل الأمريكية الأصلية، ولكن العلماء رفعوا دعوى بحقهم في البحث. وأصرت قبيلة أوماتيلا (Umatilla)على أحقيتها في استلام العظام بناء على أساطيرها، وكانت البقايا بالقرب من كين ويك منذ البدء. وقال أحد أعضاء القبيلة "لدى قبيلتنا تاريخ شفوي يمتد إلى عشرة آلاف سنة" وأكمل "أعرف أين عاش قومي وأين ماتوا وأين اصطادوا الحيوانات والسمك؟ وأين دفنوا؟ لأن تاريخي الشفوي" يخبرني بذلك، كان رجل كين ويك من الأسلاف ويجب أن يدفن بشكل لائق، بالإضافة إلى أن سماح الحكومة الأمريكية للعلماء بدراسة العظام يعني إظهار الاحتقار لمعتقدات القبيلة المقدسة، وقررت المحكمة بعد ثماني سنوات من المحاكم أن تبقى العظام في حوزة وكالة مهندسي الجيش التي وجُدت العظام على أرضها ويسمح للعلماء بدراستها.

ويكون التاريخ مؤلماً حين يتعارض مع الافتراضات المطمئنة عن مجموعة ما ولكنه كما قال مايكل هاورد (Michael Howard) علامة على النضج، في السنوات القليلة الماضية شهدت أيرلندا مراجعة جوهرية لتاريخها وذلك لأنها مزدهرة وناجحة وواثقة ،وأيضاً لأن القصص القديمة عن دور الضحية لم يعد لها معنى كما كان الحال في الماضي، ونتيجة لذلك عدلت الصورة القديمة البسيطة للوطنيين الأيرلنديين

الكاثوليك في مقابل البروتستانت من منطقة الستر (Ulster) ومسانديهم الأنجليز وكذلك تاريخهما المنفصل عن بعضهما لكي يعرض تاريخ أكثر تعقيداً وألغيت بعض الأساطير الأثيرة. وفي الحرب العالمية الأولى كان يعتقد أن البروتستانت فقط حاربوا،لكن الوطنيين أيضاً كانوا مشاركين، ويعتمد ذلك على كيف نرى الأمور، سواءً من زاوية الخيانة أم الصراع من أجل الاستقلال. وفي الواقع، حارب ٢١٠,٠٠٠ متطوع من أيرلندا، أغلبيتهم من الكاثوليك الأيرلنديين الوطنيين، مع الإنجليز ضد الألمان. ولم تكن "صحوة الفصح" (Easter Rising) الحركة الوحيدة التي ينضوي تحتها جميع الوطنيين الأيرلنديين للأسطورة القومية ولكنها كانت، على الأقل جزئياً، محصلة صراعات القوى الداخلية.وكما قال رئيس أيرلندا، ماري مكليس (Mary McAleese)، في محاضرة حديثة في لندن: "بينما كان تاريخنا سابقاً يتسم باختلاقات من الماضي لأمور فرقت بيننا وجعلتنا مختلفين عن بعضنا، فإن مستقبلنا يحمل إمكانية متفائلة بأن تكون أيرلندا مكاناً أفضل، ليس فقط في بناء علاقات جديدة ولكن أيضاً أن نرى الماضي بأريحية ونجد هناك... عناصر الأخوة التي أغفلت وعلاقات تم تجاهلها عمداً".

أحيانًا يكون تاريخاً مشوَّهًا، وأدلة مخفية، وببساطة قد يكون التاريخ ليس صحيحًا، ذلك بدوافع حسنة وللشعور بفخر بين هؤلاء الذين عانوا كثيرًا وعاشوا أحساسًا بالعجز والمهانة، ففي عام ١٩٢٣ م، كتب ماركس جارفي (Marcus Garvey)، القائد الأمريكي الأسود هجوماً ساخراً ومثيراً بعنوان "من وما هو الزنجي؟" حاول فيه أن يعيد للسود الذين سرق منهم- ماضي مثل غيرهم- إحساسًا بماهيتم وبإنجازاتهم. وذهب إلى أبعد من ذلك، وأعلن عدة ادعاءات لا يمكن إثباتها حين قال "يعرف كل طالب في قسم التاريخ وله عقلية محايدة أن الزنوج حكموا العالم في فترة ما حين كان الرجال البيض متوحشين وبربريين يعيشون في الكهوف، وآلاف الأساتذة الزنوج في

ذلك الوقت درسوا في جامعات الأسكندرية منارة التعلم في ذلك الحين، وأن مصر القديمة قدمت الحضارة للعالم وأن اليونان وروما سرقا من مصر فنونها وعلومها، واحتسب كل ذلك لهما". وكانت حجته والتي لا تزال تظهر بين الحين والآخر أن الحضارة كانت مثل شعلة انتقلت من جنوب الصحراء الكبرى بإفريقيا إلى مصر ثم انتقلت عن طريق السرقة إلى اليونان وروما. وهذه نظرة غريبة وجامدة للحضارة، وكأنها شيء يمكن تحريكه ويمكن نقله من شعب لآخر- أو أن هناك "حضارة" واحدة فقط. وفي الواقع، كانت وما زالت هناك العديد من الحضارات، وهي مستمرة ومتغيرة، والقوى التي تشكلها داخلية وخارجية، وبالطبع كانت هناك مؤثرات خارجية على الحضارة الإغريقية ولكنها على الأرجح جاءت من الشرق ومصر وهناك أدلة قليلة على أن جزءاً كبيراً من الحضارة المصرية جاء من جنوب الصحراء الكبرى.

وحديثاً حاول علماء دعم هذا الادعاء مستخدمين أدلة لغوية وأثرية، وادعوا بأن كلمة "أثينا" أفريقية في أصلها وأن سقراط كان أسود اللون لأن أحد التماثيل يظهره بأنف مسطح ورفض العلماء المختصون هذه الأدلة ولكنها كانت دليلاً لمناصري نظرية جارفي والتي تثبت ببساطة أن الأوروبيين ارتبطوا بمؤامرة منذ عهد الإغريق لإخفاء سرقتهم وأنهم لا يمكن أن يؤسسوا حضارة بمفردهم. وبناءً على قول شيك أنتا ديوب (Cheikh Anta Diop)، من السنغال، فإن الأوروبيين وضعوا سلسلة من الأدلة الكاذبة على مدى القرون، وتحمل مثل هذه القصص علاقة مع الماضي مماثلة لما تحمله رواية "شفرة دافنشي *The Davinci Code*" مع اللاهوت المسيحي والتي قد تساعد في إدخال الزهو ولكن بثمن.

وفي الهند، في تسعينيات القرن الماضي، أدى تنامي القومية الهندوسية إلى محاولات غير عادية لإلغاء أجزاء من التراث الهندي وإعادة كتابته. وفي عام ١٩٩٢م قام أصوليون، مدعومون من الجناح اليميني من السياسيين الهندوس، بتدمير مسجد من القرن السادس

عشر في مدينة أيودهيا (Ayodhya) في شمال الهند بناءً على مزاعم بأنه بني فوق مسقط رأس الإله الهندوسي راما، ونتيجة للدعم أعلنوا بأنهم سيتحركون لهدم مواقع إسلامية بما في ذلك تاج محل، كان هذا التصرف جزءاً من تحرك أكبر لتأكيد هوية الهند الهندوسية فقط أو كما يسميها القوميون الهندوس "هندوتانا" (Hindutva).

وبالطبع أصبح تاريخ الهند عاملاً رئيسًا في ذلك. والنظرة السائدة، المبنية على الأدلة الموجودة، تقول أن وادي السند الخصيب احتضن حضارة هَرَبَّه (Harappan) في الفترة بين ٣٠٠٠ و١٧٠٠ سنة قبل الميلاد تقريباً وبالتدريج تداخلوا أو اضمحلوا حين انتقل هناك فرسان الخيل الأريان من الشمال ربما كمهاجرين مسالمين أو من المحتمل أن يكونوا غزاة محاربين، ولم يكن هذا مناسبًا للقوميين الهندوس لأنه يشير إلى أن حضارة محلية تنازلت لأخرى خارجية وقد يكون في ثقافتهم عناصر أجنبية، وكما كتب مادهف جولورك (Madhav Golwalkar)، الأب الروحي للهندوس اليوم، في ثلاثينيات القرن الماضي "لم يأتِ الهندوس إلى هذه الأرض من خارجها بل كانوا أطفالا أصليين لهذه الأرض منذ نشأتها". وبالطبع هذه نظرة ساذجة عبثية لكيفية تطور الشعوب والحضارات وامتزاجها، فهم ليسوا حشرات ملتصقة ببعضها للأبد ولكنها مثل الأنهار المشتملة على جداول فرعية كثيرة.

وحين فاز حزب الشعب الهندي بهاراتاي جاناتا (Bharatiya Janata)، بالسلطة في منطقة المركز عام ١٩٩٨م، قام مباشرة باستعادة ماض متناسق مع وجهة نظره. وأعلن أن حضارة هاريان في الحقيقة أريانية، ووجد ختم من الطين في موقع هاريان والذي يظهر صورة حصان (هذه القطعة هي الدليل الوحيد، وتبين للأسف أنها غير حقيقية). وأعلنت الحكومة بثقة أن حضارة هَرَبَّه أقدم مما كان متعارفًا عليه وفعلاً أعلن مورلي مانوهار جوشي (MurliManohar Joshi)، من حزب الشعب الهندي والوزير المكلف

للتعليم في الفترة من ١٩٩٨ إلى ٢٠٠٤م، أنه اكتشف حضارة هندية محلية أقدم وأسماها هو ومؤيدوه سارافاتي (Sarasvati) وقال عن ذلك روميلا ثابار (Romila Thapar)، أحد المؤرخين الهنود المرموقين، "الدليل على ذلك واضح حتى الآن". ومع ذلك كان واضحاً وعلى الأقل لحزب الشعب الهندي ومناصريه أن أرض الهند احتضنت أولى حضارات العالم، وأنها ليست وراء كل أنواع الاختراعات والتطورات قبل الآخرين بوقت طويل فحسب، ولكنَّها أيضاً حضَّرت بقية العالم أيضاً، وقد يصاب الصينيون بالدهشة لو عرفوا أنهم في الواقع منحدرون من محاربين هنود. وادعى القوميون الهندوس أن اللغة السنسكريتية اللغة الهندية القديمة، أم جميع اللغات وأن الفيدا (The Vedas)، أقدم النصوص في اللغة السنسكريتية، هي الأصل لمعظم المعارف الحديثة بما في ذلك الرياضيات.

وليتأكد جوشي من استيعاب الطلاب الهنود لهذه المعلومات قام بإدخال مواد تعليمية جديدة والتي تؤكد على المواضيع "الهندية" مثل اليوجا والسنسكريتية وعلم التنجيم ورياضيات فيدك وثقافة فيدك، واحتل مجالس المدارس ومراكز البحوث قوميون هندوس كان ارتباط رؤيتهم البسيطة بماضي الهند وتاريخه أكثر أهمية من مصداقيتهم كمؤرخين. وبُلغ المجلس الهندي للبحث التاريخي المرموق في نيودلهي باستبدال مؤرخه لبدايات الهند بآخر في منصب موجه، ولكن لم يتم هذا التعيين بسبب الرفض الجماهيري له لضعف مصداقيته وهجومه على المسيحيين والمسلمين.

ويقف وراء هذه المحاولات المضحكة لإعادة صياغة تعليم الهند أجندة سياسية شريرة. نظرة الحزب الوطني ومؤيدوه للهند كأمة هندوسية بالإضافة إلى أنها تعكس قيم هندوس الطبقة العليا بما في ذلك تقديس البقر وعدائهم لأكل لحم البقر، ولا يوجد في هندهم متسع أو تحمل للأعداد الكبيرة من أقليات المسلمين والمسيحيين والقليل جداً من ذلك للطبقات الدنيا من الهندوس. ونظرة الحزب إلى الماضي تختصر بأن الحضارة

الهندية كانت منذ نشأتها هندوسية كما هو الحال اليوم. ويجب إلغاء أي ذكر أو إشارة إلى أن الهندوس الأوائل كانوا مختلفين، واحتمال كونهم يأكلون لحم البقر على سبيل المثال كان حقيقة، أقر أحد الهندوس القوميين بأن هناك دليلاً على أن الطبقة العليا من الهندوس تناولت لحم البقر في الماضي البعيد، ولكن هذه المعلومة قد تشتت أطفال المدارس ومن المحتمل أن تصدمهم.

كانت هند الحزب الوطني وطنًا عاش فيه الهندوس مع بعضهم في انسجام إلى أن دخلها الغرباء - المسلمون ثم البريطانيون- وآذوا وفرقوا المجتمع الهندي بالنهب والسرقة والتحول الديني القسري، وتسهب الكتب المدرسية الجديدة في ذكر ذنوب الدخلاء ولكنها تسكت غالبًا عن التصرفات القاسية للحكام الهندوس، بالإضافة إلى ذلك تتجاهل هذه الكتب الأدلة الكثيرة عبر القرون على التعايش السلمي بين المسلمين والهندوس والمسيحيين والسيخ وجميع المؤمنين على اختلاف معتقداتهم مستفيدين ومتعلمين من بعضهم البعض. وعندما أدخل الغزاة المسلمون الأساليب الفنية للمغول والفرس إلى الهند اندمجت وامتزجت بالفن المحلي بالهند، أعجب الأمبراطور المغولي أكبر بالأديان الأخرى وحاول دون نجاح أن يوجد دينًا متوافقًا يحمل سمات من الإسلام والهندوسية والمسيحية. ووقف جواهر لآل نهرو Jawaharlal Nehro، أول رئيس وزراء، بحزم في الهند المستقلة لإحلال العلمانية والتسامح في الهند المتنوعة الأعراق والأديان. ولا يظهر شيء من ذلك في نسخة الهندوس عن ماضي الهند، والموجود أن المسلمين كانوا وسيظلون أعداء إلى أن يتحولوا إلى الهندوسية أو تتم تصفيتهم.

واتُهم المؤرخون الذين أشاروا إلى هذه العيوب في تاريخ الهند بالماركسية أو بكل بساطة بأنهم هنود سيئون. وقال أحد الأصوليين أنه مع الأسف لا يوجد فتوى في الديانة الهندوسية، وفي الواقع يتصرف القوميون الهندوس المتطرفون وكأن هناك

فتوى، وأرسل للعلماء بما في ذلك روميلا ثابار (Romila Thapar)، الذي أصدر عملا مخالفاً لعقيدة الهندوتافا بريدًا إلكترونيًا مليئًا بالكره وحتى تهديدات بالقتل، وكما هو الحال دائما، كان المغتربون الأكثر صخبًا في دفاعهم عما أسموه تاريخ وثقافة الهند الحقيقية، فمثلاً، طورد ثابار حين ألقى محاضرة في الولايات المتحدة. وأثناء محاضرة للبروفيسورة ويندي دونقر (Wendy Doniger) في لندن قذفها ناشط هندوسي ببيضة لأنها تجرأت وألقت محاضرة عن الملحمة الهندوسية العظيمة راميانا (*Ramayana*). وفي ولاية كاليفورنيا الأمريكية، تقدم والدان هندوسيان إلى مجلس أمناء مدرسة عامة مطالبين بتنقيح الكتب التدريسية من الأخطاء المضافة إلى المنهج من معادي الهند مثل ثابار وباحثين مثل مايكل ويتزل (MicaelWitzel) من جامعة هارفارد. وتشمل الأخطاء التي سرداها، وليس ذلك مستغربًا، انتقال الآريين إلى الهند.

وفي سلسلة معينة من الأحداث المجنونة وجد جيمس لين (James Laine)، وهو باحث أمريكي في كلية صغيرة في منسوتا وكتب كتاباً يبحث فيه الأساطير المحيطة بحياة الملك والبطل الهندوسي شيفاجي (Shivaji) من القرن السابع عشر، نفسه هدفًا لغضب القوميين، لقد تجرأ لين وأشار إلى أن إحدى القصص العديدة قد تكون دعابة ساخرة وهي عن احتمال ألاَّ يكون شيفاجي أباً لابنه. وقامت شيف سينا (Shiv Sena)، حركة سياسية يمينية في مقاطعة مهاراشترا (Maharashtra) وهي بلد شيفاجي، بحملة ناجحة لتسحب مطابع جامعة أكسفورد الكتاب من السوق. وفي بداية عام ٢٠٠٤م قامت مجموعة من عصابات الشوارع بضرب باحث هندي محترم ودهنه بالقار لأنه كان قد ورد اسمه في شكر وعرفان في كتاب لين، واقتحمت عصابة رعاع أخرى مؤسسة بحثية في مدينة بون حيث أجرى لين بعض الأبحاث والمفارقة أنهم دمروا نصوصًا هندوسية قديمة ولوحات وحطموا تمثال آلهة التعليم الهندوسية، وردت قوة الشرطة في بون

باتهام لين ومطابع جامعة اكسفورد بـ"استفزاز متعمد لإثارة الشغب" وغضب الرأي العام الهندي المعتدل وحذر من تحويل الهند إلى نظام مشابه لطالبان.

بالطبع كان الدافع خلف الهجوم تعبيرًا عن الحاضر أكثر ممًّا كان عن الماضي، وعكست وجهات النظر المتنافسة في المجتمع الهندي- الهندوسية مقابل العلمانية- ومحاولات السياسيين لجذب عاطفة القومية الهندوسية، وقد كانت الهند على وشك خوض انتخابات عامة في ربيع ٢٠٠٤م وأصبح كتاب لين جزءًا من الحملة بينما يتنافس السياسيون ليظهروا مدى هندوسيتهم ومقدار وطنيتهم. كان هناك أيضاً مطالبات للإنتربول الدولي للقبض على لين، وقال رئيس وزراء الحزب الوطني أتال بيهاري فاجبائي(Atal Behari Vajpayee): يجب أن يتعلم الكتاب الأجانب أنهم لا يستطيعون إهانة كرامة الهند.

الفصل الخامس

التاريخ والقومية

HISTORY AND NATIONALISM

تُعتبر القومية أحد أكثر الطـرق جذباً لنا لتحديد هويتنا - على الأقل في القرنين الماضيين - ففكرة أننا جزء من عائلة كبيرة جداً، أو كما يقول بندكت اندرسون (Benedict Anderson) "لها قوة كبيرة كجزء من مجتمع متخيل مثل الفاشية والشيوعية". أنتجت القومية دول ألمانيا وإيطاليا، ودمرت اتحاد النمسا - هنغاريا وحاليا جزأت يوغسلافيا. وقد عانى الناس وماتوا أو تعرضوا للأذى وقتل آخرون من أجل "قوميتهم".

ويقّدِمُ التاريخ الكثير من الوقود للقوميَّة، ويصنع الذكريات الجمعية التي تساعد في تشكل القومية، كما تدعم وتعزِّز الاحتفالات المشتركة بإنجازات الأمة العظيمة، والأحزان المشتركة لهزائمها القومية. وكلما امتدَّ التاريخ كلما بدت القومية أكثر صلابة وتحملا، وزادت وجاهة مطالباتها، وألغى ارنست رنان (Ernest Renan) (المفكر الفرنسي من القرن التاسع عشر الذي كتب مبكرًا كتبًا كلاسيكية عن القومية) كل المبررات الأخرى لوجود قومية مثل رابطة الدم أو الجغرافيا، أو اللغة أو الدين، وكتب قائلا " القومية هي تضامن كبير نشأ بفعل مشاعر التضحيات التي قدمت والتي ينوي الفرد تقديمها في المستقبل". وكما يفضل أن يضعها أحد منتقديه " القومية مجموعة من

البشر اتحدت بفعل فكرة خاطئة عن الماضي وكره لجيرانهم". ويرى رينان القومية كشيء يعتمد على إجماع أعضائه. "وجود قومية هو استفتاء يومي مثله في ذلك مثل وجود الفرد فهوتأكيد ثابت للحياة". وبالنسبة للعديد من القوميين فإنه لا يوجد إجماع إرادي، فأنت ولدت في قومية ليس لديك خيار الانتماء إليها من عدمه، حتى وإن تدخَّل التاريخ. فمثلاً: حين طالبت فرنسا بأحقيتها بمقاطعة الراين بعد الحرب العالمية الأولى، كان أحد مقومات مطالبتها التي استخدمتها أن السكان وإن كانوا يتحدثون الألمانية إلا أنهم فرنسيون. بالرغم من أن سوء الحظ جعلهم يقعون تحت الحكم الألماني، إلا أنهم بقوا فرنسيين في جوهرهم كما يبين ذلك بوضوح حبهم للنبيذ وديانتهم الكاثوليكية واستمتاعهم بالحياة.

كان رينان يحاول أن يتلمس طريقه مع ظاهرة جديدة، فالقومية تطور حديث في تاريخ الإنسانية. كان الأوربيون ولعدة قرون ينظرون إلى أنفسهم كأعضاء عائلة معينة أو قبيلة أو منطقة أو ديانة أو طائفة، وليس كبريطانيين (إنجليز أو أسكتلنديين أو من ويلز) أو فرنسيين أو ألمان. وأحياناً يعرفون أو يعرفون هويتهم من خلال الشخص الكبير في المنطقة، سواءً النبلاء المحليين أو الأمبراطور. وبالنسبة لمن يشيرون إلى أنفسهم كألمان أو فرنسيين فإنهم يشيرون إلى تصنيف ثقافي مثلما هو سياسي، وبالتأكيد لم يكونوا يفترضون -كما تفعل دائمًا تقريباً - الحركات القومية الحديثة، أن القومية لها الحق في أن تحكم منطقة محددة.

واستمرت الطرق القديمة في تحديد هوية الشخص حتى العصر الحديث. كما واجهت باستمرار لجان عصبة الأمم المتحدة حين حاولت رسم الحدود في وسط أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى – على سكان محليين ليس لديهم أي فكرة عما إذا كانوا تشيكيين أو سلاف، أو ليتوانيين، أو بولنديين. كانت إجاباتهم نحن كاثوليكيون، أو

نحن أرثذوكسيون، تجار أو مزارعون أو بكل بساطة من هذه القرية أو تلك. وأصيب دانيلو دولشي (Danilo Dolci). الناشط الإيطالي وعالم الاجتماع) بالدهشة حين وجد في خمسينيات القرن الماضي أناساً يعيشون في أواسط صقلية، ولم يسمعوا أبداً بإيطاليا على الرغم من أنهم نظريا إيطاليون لعدة أجيال. كانوا يمثلون الاستثناء، وبقوا في مؤخرة الركب، بينما أصبحت القومية باضطراد هي الطريقة التي يعرف بها الأوروبيون أنفسهم. غذت الموجه الكبيرة للقومية والتي هزت أوروبا في القرن التاسع عشر والعالم الأوسع في القرن العشرين مظاهر الحياة: الاتصالات السريعة ونمو التعليم، والتحضر، وأهم من ذلك فكرة أن الأصح والأنسب أن يرى الشخص نفسه كجزء من قومية بالإضافة إلى أنه يجب أن تكون لتلك القومية دولتها وحدودها ونشير هنا إلى الحديث الذي يقال عن القوميات الأبدية فهي لم تظهر بفعل القدر، ولكن بفعل النشاطات الإنسانية، ولا نقلل هنا من دور المؤرخين في ذلك. بدأ كل هذا الحديث عن القومية بهدوء في القرن التاسع عشر. عمل العلماء على اللغات وصنفوها إلى عائلات مختلفة محاولين أن يحددوا إلى أي مدى يمكن تتبعها تاريخيًّا. ووضعوا قوانين تشرح التغيرات التي طرأت على اللغة، واستطاعوا وضع نظرية، على الأقل ترضيهم، بأن هناك كتباً عمرها قرون كتبت على سبيل المثال في بدايات اللغة الألمانية أو الفرنسية. وجمع علماء الآثار مثل الإخوة جريم (Grimm) القصص الفلكلورية كوسيلة تبين وجود شيء يسمى القومية الألمانية في القرون الوسطى، كما عمل المؤرخون بدأب لإعادة القصص القديمة، وضموا شذرات التاريخ لما أن يندرج تحت قومية ما كما لو أنه وجود متواصل منذ القدم. وادعى علماء الآثار أنهم وجدوا دليلاً على الأماكن التي عاشت فيها مثل هذه القوميات وتنقلاتهم خلال موجات الهجرة الكبيرة.

كانت النتيجة النهائية ظهور نسخة غير حقيقية، ولكنَّها مؤثرة في كيفية نشأة القوميات. ولا يمكن إنكار حقيقة انتقال مجموعات مختلفة من الناس: من الغوط إلى السلاف إلى وداخل أوروبا مختلطين مع بعضهم ومع السكان المحليين، وتفترض مثل وجهة النظر هذه أنه في لحظة ما في العصور الوسطى، توقف العزف الموسيقي واستقرت النوتات الموسيقية في أماكنها، واحدة للفرنسيين وأخرى للألمان والأخيرة للبولنديين. وهنا صنفهم التاريخ كـ"قوميات". على سبيل المثال، يمكن للمؤرخين الألمان أن يقتفوا أثر قومية ألمانية عاش أسلافها بسعادة في غاباتهم قبل الإمبراطورية الرومانية وفي فترة ما، يحتمل أن تكون القرن الميلادي الأول، صنفوا على أنهم "ألمان". ولذلك، -وهنا السؤال الخطير- ما هي أرض القومية الألمانية المناسبة؟ أو أرض أي قومية أخرى؟ هل هي حيث يعيش هؤلاء الناس الآن؟ أو حيث عاشوا حين ظهروا في التاريخ أم كلاهما؟

هل كان من الممكن أن يستمر العلماء في افتراضاتهم لو قدر لهم أن يعرفوا ماذا سينتج عن هذه القوميات؟ مثل الحروب الدموية التي قادت إلى نشأة إيطاليا وألمانيا؟ ومشاعر الكره التي مزقت النمسا-هنغارية القديمة المتعددة القوميات؟ ومطالبات قوميات قديمة وجديدة، مبنية على أسس تاريخية، بأرض واحدة يتنازعونها. والأنظمة البشعة لهتلر وموسوليني وإعلاؤهم للقومية والمصلحة الأسمى ومطالباتهم الشرسة بأراضي الآخرين.

والمفارقة، كما عبر عنها المؤرخ البريطاني (إريك هبسبوم Eric Hobsbawm) بأن "القومية فكرة حديثة ولكنها صنعت لنفسها تاريخًا وتقاليد". وتنهل التواريخ التي غذت القومية من الحقائق الموجودة بدلاً من اختراع أخرى جديدة. وعادة يحمل هذا التاريخ الكثير من الحقائق ولكنه يميل لكي يؤكد وجود القومية عبر الزمن وتشجيع الأمل باستمرارها. وساعد ذلك في خلق رموز للنصر أو الهزيمة-واترلوا، ودنكرك،

ستالينجراد، جيتزبورق (Waterloo, Dunkirk, Stalingrad, Gettysburg) أو فيمي ريدج (Vimy Ridge) بالنسبة للكنديين. وسلطوا الضوء على أعمال القادة السابقين- كـ: انتصار تشارلز مارتل Charles Martel على عرب الأندلس في تورس. والملكة اليزابيث الأولى في معركة بلي ماوث (Plymouth) في مواجهة الأسطول الأسباني أرمادا (Armada). وهوراشيو نيلسون (Horatio Nelson)- مدمر الأسطول الفرنسي في معركة الطرف الأغر. وجورج واشنطن (George Washington) حين رفض أن يكذب بشأن شجرة الكرز التي يملكها. وعادة ما يأخذ القوميون من جماليات الهوية الوطنية. انظر إلى تمثال الحرب الذي يشبه الشهداء أو المسيح على الصليب أو الطقوس المبالغ بها مثل ١١ نوفمبر.

والعديد ممَّا يُنظر إليه في العصر الحالي على أنه رموز واحتفالات قديمة هو في الواقع أعيد إلى الحياة حديثاً، وبما أن كل جيل يبحث في التاريخ، ويأخذ ما يناسب احتياجه الحالي، ففي عام ١٩٥٣ شاهد جميع سكان العالم ممن يملكون جهاز تلفاز برعب وانبهار الطقوس القديمة لحفل التتويج - ركوب الحاكم وسط لندن في العربة الحكومية المذهبة والموكب الرسمي إلى كنيسة وستمنستر آبي (Westminster Abbey) والموسيقى والزينات ورئيس أساقفة كانتربري (Canterbury) بملابسه الرائعة والاحتفال الكبير بالتتويج - وبالنسبة لي كطالبة مدرسة بكندا فقد قُدِّم لي كتيبٌ يشرح كل ذلك. والذي لا يعرفه معظمنا أن أغلب ما شاهدناه باحترام كان إحياءً لاحتفالات للقرن التاسع عشر. لكنَّ التتويجات التي سبقت ذلك كانت مبتذلة، وحدثت أمور مخجلة. فحين توج جورج الرابع (George IV) الضخم جدا في عام ١٨٢٠م طرقت ملكته المبعدة، كارولين (Caroline)، الباب بقوّةٍ. وفي حفل تتويج الملكة فكتوريا عام ١٨٣٧م تعثّر رجل الدين أثناء أداء القسم، وواجه رئيس القسم مشكلة مع الخاتم الذي كان كبيراً جداً على إصبعها. وفي نهاية القرن، كانت الملكية مهمة كرمز لبريطانيا العظمى.

وأصبحت المناسبات الملكية أفخم وأفضل إعدادًا. وأضيفت احتفالات جديدة: مثل حين وجد ديفيد لويد جورج (David Lloyd George)، رئيس الوزراء المتطرف الويلزي، أنه من المفيد إقامة احتفال داخل القصر القديم سنيروفن (Caernarfon) لتنصيب الأمير إدوارد، ولاحقاً إدوارد الثامن (Edward VIII)، أميراً لويلز.

وأحد أشهر الرموز الوطنية هي معركة كوسوفو، حيث تغلبت القوات التركية على القوات الصربية في عام ١٣٨٩م. وفي التقليد الوطني الصربي، كان هذا انهزامًا دنيويًّا وروحيًّا يحمل في طياته الوعد بالبعث. وبالنسبة للقوميين الصرب، كانت القصة واضحة بكل أسى. العثمانيون المسلمون هزموا الصرب المسيحيين بسبب الخيانة. وفي الليلة السابقة للمعركة، رأى الأمير لازار (Lazar)، القائد الصربي، رؤية وعد فيها بمملكة وخير بين مملكة في السماوات أو أخرى في الأرض. وكمسيحي صالح اختار لازار مملكة السماوات، ولكن كان هناك وعد ضمني أنه في يوم ما سيبعث الشعب الصربي من جديد على الأرض. وهنا أهو خلاص روحي أم دنيوي؟ ومات لازار في أرض المعركة بعد أن خانه يهوذا آخر، زميل صربي. ويتذكر شعبه المؤمنون بدينهم، الهزيمة والوعد وبقي حنينهم لاستعادة الدولة الصربية طيلة السنوات الأربعمائة التالية.

وليست المشكلة الوحيدة في القصة، في سذاجتها فحسب، ولكن السجلات البسيطة في تلك الفترة لا تدعم أحداثها. حيث لم يكن لازار أميرًا على جميع الصرب، ولكنَّه واحد من ضمن عدة أمراء يتصارعون لتولي السلطة على انقاض الإمبراطورية الصربية التي بناها الأمير دوستان (Dustan). بعض هؤلاء الأمراء عقدوا اتفاقيات سلام مع العثمانيين، وكتابعين للسلطان أرسلوا جيوشًا تحارب ضد لازار. وليس واضحًا ما إذا كانت المعركة هزيمة ساحقة للصرب، وفي الواقع فإن تقارير ذلك الوقت أسمته بالنصر. وقد يكون تراجعًا من الطرفين لأن كليهما لم يظهر العداوة لمدة من الزمن. وبقيت دولة صربية مستقلة لعدة أجيال.

وبدأت أرملة لازار والرهبان الأرثوذكس عملية تحويل الأمير الميت إلى شهيد من أجل الصرب. والملفت للنظر أنه في ذات الوقت كان ابنه يحارب كتابع للأتراك. ولعدة قرون، كان لازار وكوسوفو مثالاً أكبر للصربيين كمسيحيين ارثوذكس وشعب يتشارك في لغة واحدة أكثر من كونهم دولة قومية وصربية مستقلة. وحفظت القصة في الأديرة مع الثقافة الصربية وفي الملاحم الشعرية العظيمة والتي انتقلت من جيل إلى آخر. ولم تتفاعل هذه القصص إلا في القرن التاسع عشر مع استيقاظ القومية في كل أوروبا وأصبحت القصة محورية في تحريك لصرب ليقاتلوا من أجل الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية المتهالكة والعاجزة.

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر، وبوحي من التاريخ تحرك الصرب للحصول على أول حكم ذاتي في الإمبراطورية العثمانية،ثم الاستقلال التام. وقام العالم الصربي المؤثر جداً في بدايات القرن التاسع عشر (فوك كاردزك Vuk Karadzic) بوضع لغة صربية موحدة مكتوبة وجمع الملاحم الشعرية. وخلَّف أيضاً تركة مسمومة بادِّعائه أن الناس مثل الكروات والبوسنيين المسلمين والذين يتكلمون فعلياً ذات اللغة هم أيضاً صرب. أما اليجا جارشنن (Ilijia Garasanin)، رجل الدولة الذي فعل الكثير لصياغة القومية الصربية ولبناء أسس الدولة الصربية الجديدة، فقد اتجه إلى التاريخ ليوجه زملاءه الصرب نحو قدرهم وليقول لهم بصورة غير مباشرة: " هدم الأتراك العثمانيون الإمبراطورية الصربية، أما الآن فقد آن الوقت لإعادتها". وقال في وثيقة بقيت سرية إلى بداية القرن العشرين نحن" ورثة حقيقيون لآبائنا العظام". ولم تكن القومية الصربية أمراً جديداً، أو لا سمح الله، ثورية ولكنها مزهرة بجذور قديمة. ومرة أخرى، كانت رؤية خطيرة لأنها افترضت أن الكرواتيين والصرب جزء طبيعي من الإمبراطورية.

من السهل تفنيد مثل هذه الآراء عن الماضي، ولكن ليس من السهل هز إيمان الراغبين في تصديقها. في حادثة تفكك يوغسلافيا في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي حضرت الأساطير التاريخية القديمة إلى الواجهة . ومرة أخرى كان الصرب يحاربون وحيدين في عالم قاس. وفي عام ١٩٨٦م حذرت مذكرة كتبها الأكاديميون العاملون في الأكاديمية الصربية للعلوم من أن جميع ما حققه الصرب منذ عصيانهم الأول ضد العثمانيين في عام ١٨٠٤م سوف يخسرونه. كان الكرواتيون يروعون الصرب في كرواتيا، وأجبر الألبانيون الصرب على الهرب من مقاطعة كوسوفو. وفي عام ١٩٨٩م ذهب سلوبودان ميلوشفيك (Slobodan Milosevic) إلى كوسوفو في الذكرى الستمائة للمعركة وأعلن "لا تسمح لنا شجاعة كوسوفو أن ننسى أننا في وقت ما كنا شجعان ومحترمين ومن القلائل الذين لا ينهزمون في المعركة". وفي نفس الوقت، في كرواتيا كان القوميون ينظرون إلى الوراء إلى ماضيهم ويصرون على أن كرواتيا الكبيرة (العظيمة) تشمل مئات الآلاف من الصرب وأنها ضرورة تاريخياً. لم يهدم التاريخ يوغسلافيا أو يقود إلى الإشاعات التي رافقت الهدم ولكنَّ التلاعب الذكي لرجال مثل ميلوشفيك ومثل فرانجو تودجمان (Franjo Tudjman) في كرواتيا ساعد في إثارة رفاقهم وأرهب المتمرد.

وتملك دول البلقان تاريخاً، كما وصفه ونستون تشرشل في عبارته الرائعة، أكثر مما يمكنها استهلاكه. بينما تقلق الشعوب الجديدة لأنها لا تملك الكفاية منه. حين ظهرت إسرائيل إلى الوجود في عام ١٩٤٨م كانت - بغض النظر عن الارتباط الطويل بين اليهود وأرض فلسطين - دولة جديدة. وبنت إسرائيل هوية وطنية قوية ضرورية لها إذا كانت تريد البقاء وذلك عن طريق هجرات من جميع مناطق أوروبا ومنذ خمسينيات القرن الماضي ازدادت الهجرات من الشرق الأوسط. كان صعبا تحديد

ثقافة وتقاليد مشتركة. ما المشترك بين يهودي من مصر وآخر بولندي؟ لم يكن الدينُ أساسًا كافيًا. ولم يكن العديد من الصهاينة متدينين حقيقيين. وبالرغم من أن العبرية انتعشت إلا أنها لم تنتج أدباً قومياً حتى ذلك الحين. وهذا أعطى للتاريخ أهمية خاصة كموثق لحقها في الوجود. استندت إسرائيل على الماضي في إعلانها الاستقلال لتبرر وجودها. كانت الأرض هي المكان التاريخي لولادة اليهود: "بعدأن أجبروا على النفي من أرضهم، حافظ اليهود على إيمانهم في الشتات ولم يتوقفوا عن الصلاة والأمل ليعودوا إليها ولإعادة حريتهم السياسية". وأصبح التاريخ الحديث جزءًا من القصة. واستطاع اليهود ان يعودوا بأرقام كبيرة: " أحيوا الصحراء واستعادوا اللغة العبرية وبنوا قرّى ومدنًا، وأنشؤوا مجتمعًا ناجحًا متحكما باقتصاده وثقافته. محباً للسلام ولكنه أيضاً يعرف كيف يدافع عن كيانه وجلبوا معهم نعمة التقدم لجميع السكان. وحلّقوا عاليًا كأمة مستقلة".

وافق الكنيست الإسرائيلي في عام ١٩٥٣ على قانون التعليم الوطني وعلى قانون آخر لإحياء الهولكوست (ياد فاشم YadVashem). وكان مقدم القانون وزير التعليم والثقافة بن زيون دينور (Ben-Zion Dinur)، وهو ناشط كمعلم للصهيونية وسياسي قبل استقلال إسرائيل، كانت تنبع نظرته إلى التاريخ من الحاجة إلى بناء الوعي الإسرائيلي، وصرح في الكنيست "لا يمكن أن يكون لأي أمة وعي بذاتها وأهميتها إلا إذا كان لها ذاكرة (بمعنى تاريخ المترجمة) وعرفت كيف تجمع شتات تجاربها في بوتقة واحدة". ويعني ذلك بالنسبة لدينور وداعميه (وسانده العديد من حزبي اليمين واليسار) تعليم الإسرائيليين بأنه كانت ولاتزال هناك أمة إسرائيلية بقيت بالرغم من قرون النفي كما أنها أرادت دائمًا العودة إلى

أرضها المفقودة. وبالتالي فإن اسرائيل - بناء على ذلك التصور- كانت الوريث، ونتاج عملية تاريخية طويلة. وانتقدت رؤية دينور كثيرا لإهمالها الدين، فعلى سبيل المثال، تعريف اليهودية وتقديم رؤية ساذجة للتاريخ اليهودي، ولكنها كانت مؤثرة جداً في المدارس الإسرائيلية. ووجدت دراسة أجريت على الكتب المدرسية المستخدمة بين ١٩٠٠و١٩٨٤، وكان التاريخ اليهودي يقدم فيها من خلال تأسيس إسرائيل، ويبين أن الحلم الصهيوني بدولة يهودية بين اليهود في الشتات كان هو"الأقوى والاقدم" ويزداد ذلك بتقدم الزمن.

لم تأخذ القومية مسارها الصحيح، ولا تزال تظهر شعوب جديدة - وهم أيضاً يجدون أن التاريخ مهم في تحديد هويتهم. وفي ستينيات القرن الماضي اكتشف ولف جانج فيوشتين (Wolfgang Feuerstein) (عالم ألماني شاب) أناسًا يعيشون في وادٍ بعيد جنوب ساحل البحر الأسود بالقرب من الميناء التركي طرابزون. كان جميع هذا الشعب اللازي (Lazi) وعددهم تقريباً ٢٥,٠٠٠ شخص مسلمين، مثل معظم الأتراك، ولكن لهم لغتهم الخاصة وتقاليدهم وأساطيرهم. وبدا للشاب الألماني أنهم كانوا بالضرورة مسيحيين في السابق. وبدأ بدراستهم، وخاصة الجوانب التي أهملها التاريخ، ولكي يسجل قصصهم، ابتكر لغة مكتوبة لهم. بدأ اللازيون بالاهتمام بماضيهم وثقافتهم، وأقلق ذلك السلطات التركية التي كان لديها مشاكل كافية مع مطالب الأقليات داخل الدولة مثل الأكراد. وقبض على في فيوشتين وضُرب ورُحل، ولكن من منفاه أرسل نصوصًا من قصص اللازيين وشعرهم إلى المدارس غير الرسمية والتي تدار الآن سرًّا. وأصبح اللازيون شعبًا حين طوروا شعورهم بذاتهم وماضيهم. وفي عام ١٩٩٩م، تشكل حزب لازي يضغط للحصول على مقاطعة "لازستان" داخل تركيا. ويتحدث البيان الرسمي لهم عن تبني اللغة

اللازية وثقافتها وتشجيع دراسة التاريخ من وجهة نظر لازية. وإذا لم أكن مخطئة، سيستخدمون ذلك التاريخ لتقديم قائمة من الطلبات في يوم ما.

الفصل السادس

تقديم فاتورة التاريخ

PRESENTING HISTORY'S BILL

إنَّ الشخص الذي يردد مثل هذه العبارات في نقاش ما " أنت دائمًا تفعل ذلك" أو "وثقت بك" " أنت مدين لي" فإنه يستخدم التاريخ للحصول على فائدة في الحاضر. وجميعنا تقريباً، من أعلى الهرم السياسي إلى المواطنين، نفعل ذلك. نغزل أحداث الماضي لنبين أننا دائما نميل إلى التصرف الجيد بعكس أعدائنا أو أننا في العادة محقون والآخرون مخطئون. وغني عن القول، أننا نرى أنفسنا محقون مرة أخرى.

حين بدأت المشاكل في يوغسلافيا في تسعينيات القرن الماضي لجأت جميع الأطراف إلى التاريخ لتبرير أفعالها. صور الصرب أنفسهم كمدافعين تاريخيين عن المسيحية ضد هجوم المسلمين وكمحررين للسلاف الجنوبيين مثل الكروات والسلاف. ويرى الكروات ماضيًا مختلفًا جداً عنهم. كانت كرواتيا دائماً جزءًا من الغرب، من الامبراطورية النمساوية العظيمة والحضارة الكاثوليكية، بينما صربيا جاءت من عالم الأرثوذكسية المتأخرة والمؤمنة بالخرافات. وبدأت الحكومة في صربيا تشير إلى الكرواتيين بيوستاشا (Ustasha)- اسم القوى الفاشية في الحرب العالمية الثانية التي ذبحت الصرب

واليهود. كما دأب التلفزيون الصربي على عرض أفلام وثائقية عن اليستاشا مع التحذير الضمني الواضح من أن ذلك قد يحدث مرة أخرى. ورد على ذلك بسخرية الرئيس الكرواتي، فرانجو تودجمان (Franjo Tudjman) وهو أيضاً مثل ميلوشفك (Milosevic) شيوعي آخر تحول إلى قومي وبالتأكيد ارتكبت اليوستاشا جرائم ولكنها مع ذلك كانت "تعبيرًا عن الرغبة التاريخية للشعب الكرواتي بوطن مستقل".

حين بدأت القوات الصربية بمهاجمة البوسنيين المسلمين حاولوا أن يبرروا اعتداءهم غير المبرر بالقول للعالم إنهم أيضاً يدافعون عن الغرب المسيحي في وجه الشرق المتعصب. ولم تقف حقيقة أن المسلمين البوسنيين ليسوا فقط في الأغلب علمانيين ولكنهم في معظمهم ينحدرون من الصرب أو الكرواتيين في طريق القوات الصربية. وأصر الصرب القوميون على الإشارة لهم بالأتراك أو خونة الصرب والكنيسة الأرثوذكسية الصربية، وبالطبع، فضل الكرواتيون أن يروا المسلمين البوسنيين كمرتدين كرواتيين كاثوليكيين. (وللمفارقة، كان تأثير الحرب على العديد من المسلمين في صربيا تمسكهم أكثر بإسلامهم).

كان استخدام التاريخ للتصنيف والتقليل من الخصوم دائمًا أداة مفيدة. يصرخ اليساريون ضد اليمينيين (الفاشيين)، بينما يستخدم المحافظون مسميات الستالينيين والشيوعيين. حين زار أراييل شارون (Ariel Sharon)، وكان حينها رئيس الوزراء الأسرائيلي، نيويورك عام ٢٠٠٥م، واجه معارضين صرخوا "أوسشتيز (Auschwitz)" أو "نازي" لأنه أزال المستعمرات اليهودية غير القانونية في قطاع غزة. وفي يناير ٢٠٠٦، حين كانت هيلاري كلينتون (Hillary Clinton) تفتتح حملتها الانتخابية للرئاسة. هاجمت مجلس النواب الأمريكي، والذي كان يسيطر عليه الجمهوريون قائلة "حين تنظر إلى الطريقة التي يدار بها مجلس النواب وكأنه مزرعة وأنتم تعرفون عمَّ أتحدث"

كان ذلك في اجتماع عام في هارلم أغلبية حضوره من السود وكانوا يعرفون عما كانت تتحدث وأيضاً عرف ذلك الجمهوريون الذين اتهموها أنها تلعب بورقة العنصرية.

وتستخدم الدول أيضاً أحداثًا من الماضي لإحراج الآخرين والضغط عليهم. على سبيل المثال، تكرر الصين إشارتها إلى قرن الذل والذي بدأ مع حرب الأفيون في عام ١٨٣٩م وانتهى بانتصار الشيوعيين في عام ١٩٤٦م. ولدى الصينين قائمة طويلة من الشكاوى: الهزيمة على يد القوى الأجنبية، بدءاً ببريطانيا وانتهاء باليابان، وحرق القصر الصيفي عام ١٨٦٠ في بكين على يد الجيوش البريطانية والفرنسية والمناطق التي تعطي حق الامتياز فيها للأجانب حيث حصل السكان الأجانب على ثروات وعاشوا هناك بقوانينهم وليس قوانين الصين، والمعاهدة غير المتكافئة التي تقلل من استقلال الصين، وبالطبع، اللوحة المشهورة " لا يسمح للكلاب والصينين بالدخول". وأيضاً حين باعت الولايات المتحدة أسلحة لتايوان ذكرتها الصين بالدعم الأمريكي لأعداء الشيوعيين في الماضي. وحين قام هنري كسينجر بزيارته السرية الأولى إلى الصين في صيف ١٩٧٢م كان عليه أن يتحمل تذكيره مراراً من قبل رئيس الوزراء الصيني في ذلك الحين زو انلي (Zhou Enlai) بذنوب أمريكا بما في ذلك الحادثة المشهورة في مؤتمر جنيف عام ١٩٥٤ حين رفض جون فوستر دالاس (John Foster Dulles)، وزير الخارجية الأمريكي مصافحة زو. وفي عام ١٩٨١م اشتكى رئيس الصين، دنق اكيسبونق (deng Xiaoping)، إلى الولايات المتحدة من ترددها في بيع الصين تقنية متقدمة: " ربما تكون المشكلة هي في تعامل الولايات المتحدة مع الصين، وأتساءل عما إذا كانت الولايات المتحدة لا تزال تعامل الصين كدولة عدوة".

وفي تاريخ الحزب الشيوعي الصيني، تظهرالصين وكأنها الضحية الأبدية ولا يمكن أن ترتكب خطأ. كانت قوة مسالمة طوال تاريخها الطويل، ولم تحاول أن تغزو أي

شعب أو تستولي على أراض، بعكس القوى الغربية واليابان. وحتى حين وجه لها نقد دولي لدعمها أنظمة مرعبة مثل التي في بورما والسودان، كانت أيضاً تعامل بظلم. والقوى الخارجية من وجهة النظر الصينية، تستخدم انتهاكات حقوق الإنسان لمهاجمة الصين وللتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد. ويتحدث الدالاي لاما (Dalai Lama)، بدعم من قوى تخدم مصالحه الشخصية الشريرة في الغرب، عن قصص كاذبة عن التبت بينما كان التبت - بناء على وجهة النظر الرسمية الصينية، مجتمعًا متخلفًا ومحكومًا برجل الدين قدمت له الصين مساعدة غير محدودة لتحديثه بسرعة. وعلى كل حال، يقول الصينيون ليس لدى الغربيين السلطة الأخلاقية لانتقادهم، حيث يضم تاريخ الغرب الإمبريالية والرق ومحارق الهولوكوست. وحين قامت الحكومة الكندية حديثاً بإجراء تحقيق عن مصير المواطن الكندي حسين سليل (Huseyin Celil)، المسجون في الصين، ردت الصين باتهامات مرة أخرى قائلة بأن الأجانب يحاولون إهانة الصين ولكن الصين تقف بحزم في وجه الإهانة. وظهر اختلاف مثير في استخدام التاريخ لتبرير أعمال الحاضر ففي صيف الدورة الأولمبية ٢٠٠٨م حين أشار النقاد الأجانب إلى أن السلطات الصينية لم تحترم حقوق الإنسان، كما وعدت اللجنة الأولمبية الدولية، وجاء الرد من المدافعين عن الصين بأنه ليس للأجانب الحق في نقد الصين بما أنهم لا يعرفون تاريخها الطويل.

واستخدمت الصين التاريخ بشكل كبير في علاقتها مع اليابان، وبشكل خاص الغزو والاحتلال الياباني بين الأعوام ١٩٣٧ و١٩٤٥م، والأعمال الوحشية الموثقة جيداً مثل اغتصاب ومذبحة الجيوش اليابانية لنانجنق التي رافقته. وكانت تصرفات اليابان في الصين ودورها في إشعال الحرب العالمية الثانية في آسيا مواضيع لنقاش مؤلم في اليابان، ولكن الحكومة الصينية فضلت أن ترى أن اليابان استمرت في إنكار

المسؤولية. وفي تسعينيات القرن الماضي ومع بداية الحزب الشيوعي في تدشين حملة التعليم الوطني لدعم سلطته زادت الهجمات على اليابان ومحاولة تقويض سمعتها. وكان تصوير اليابان الحديثة كخليفة غير نادمة للبلد العسكري في الحرب العالمية الأولى، طريقة مقنعة لتبرير مطالبات الصين بالقيادة في آسيا، والتقليل من شأن مطالبة اليابان بمقعد في مجلس الأمن الدولي . وفي ربيع عام ٢٠٠٥م وتحت نظر ورضا السلطات، وربما بتشجيعهم المباشر، هاجم الشباب الصيني الأعمال اليابانية في عدة مدن صينية كبرى زاعمين أن الكتب التدريسية اليابانية تغفل أي اشارة إلى نهب نانجنج (Nanjing). وحين انتشرت الاضطرابات واتسعت أهدافها لتشمل فشل الحكومة الصينية في عدة مواضيع من ضمنها البيئة قرر الحزب أنه وصل إلى كفايته. وتوقف هيجان الوطنيين. ولكن بقيت العاطفة التي استثاروها بالرغم من أن الحزب استمر يغريه اللعب الخطر باستخدام القومية لدعم سلطته الأيديولوجية المتهالكة.

ويُستدعي أحيانًا الحاضر لإحداث تغييرات في الماضي. ونأخذ مثالاً واحداً انتشر في الأخبار حديثاً: تطالب المجموعات الأرمنية حول العالم بعدم السماح لتركيا بالانضمام إلى الاتحاد الأوروبي حتى تقر بقيامها بمجازر قبل أكثر من تسعين عامًا. ومعاناة المواطنين الأرمن في الدولة العثمانية من أمور فظيعة تعرضوا لها خلال الحرب العالمية الأولى حقيقة مؤكدة. حين تقدمت الجيوش الروسية في تركيا وخافت الحكومة التركية أن يقدم الأرمن دعماً للغزاة، وهجرت الحكومة مئات الآلاف من الأرمن من بيوتهم في الشمال الشرقي لتركيا، وأرسلوا إلى الجنوب. والعديد منهم لم يتحمل الرحلة كماعذبهم المسلمون المحليون، عادة الأكراد، وكان موقف السلطات التركية هو المشاهدة دون أن تحرك ساكناً، أو لم تعر الأمر اهتمامًا، أو شجعت القتل. وفي دول مثل الولايات المتحدة وكندا وفرنسا أقنع الأرمن ومساندوهم المشرعين على تحديد

الجرائم على أنها مجزرة محتجين بأنها كانت سياسة تركية رسمية للقضاء على الأرمن، ويطالبون أن تعتذر الحكومة التركية الحالية اعتذارا كاملاً. وأصرت تركيا بعناد محتجة بأن تركيا الحالية لا يمكن أن تكون مسؤولة عن أفعال الماضي التي ارتكبت تحت نظام مختلف. بالإضافة إلى (إنكار أن ما حدث كان مجزرة) أدى إلى تعقيد قضية شائكة في انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي.

وبعد الحرب العالمية الأولى استخدم الألمان التاريخ كسلاح بطريقة أخرى، لقد استفادوا منه في نزع شرعية معاهدة فرساي التي وقعوها مع الحلفاء المنتصرين. جاءت الهزيمة العسكرية -وكانت كذلك بلا شك- كصاعقة للحكومة المدنية الألمانية والألمان العاديين، وكلاهما لم يكونا مطلعين بسبب إخفاء القيادة العليا للحقيقة. ومنذ عام ١٩١٨، بذل الجيش جهده لتجنب مسؤولية الهزيمة وتبنى باستمرار خرافة الطعن بالظهر: لم تهزم ألمانيا على أرض المعركة ولكن بفعل نشاط خونة الوطن، سواء كانوا اشتراكيين أو مناوئين للحزب أو يهود أو كل هؤلاء مجتمعين. واكتسبت هذه الخرافة مصداقية بين أبناء الشعب الألماني بسبب واقع أن الحلفاء قرروا، وجزء من قرارهم يعود لأسباب تتعلق بتعب الحلفاء من الحرب، عدم غزو أو احتلال ألمانيا (ماعدا جزء صغير على شرق نهر الراين). أيضاً دعمت ظروف استسلام ألمانيا الشعور بأنها يجب أن لا تعامل كأمة مهزومة. كانت حكومة ألمانيا قد تبادلت مذكرات مع الرئيس الأمريكي، ودرو ويلسون (Woodrow Wilson)، تحدث فيها الرئيس عن سلام خال من الاتهامات أو الانتقام. وبالنسبة للألمان، كانت الهدنة مع الحلفاء قد بنيت على نقاط ويلسون الأربعة عشرة، والتي رسمت صورة لعالم جديد ومسالم يقوم على العدالة واحترام حقوق الشعوب. ويعني ذلك بالتأكيد أن الحلفاء لن يبحثوا الاستيلاء على أجزاء كبيرة من الأراضي الألمانية، المأهولة بسكان ألمان، أو يطالبوا بتعويضات باهظة. وعلى كل

حال، ولدعم قضية ألمانيا وحقها بمعاملة عادلة، احتج الألمان بأن ألمانيا الآن مختلفة. لقد هرب القيصر واختفت الملكية وألمانيا الآن جمهورية فلماذا تدفع ثمن أخطاء الحكومة السابقة؟ وكانت الصدمة هي ردة فعل الألمان على معاهدة فرساي حين اكتشفوا الشروط في ربيع عام ١٩١٩م وقناعتهم بأن هناك خونة. وشجبوا المعاهدة واعتبروها "مفروضة عليهم" حين وجدوا أنه لا مكان للنقاش وليس أمامهم إلا التوقيع فقط.

وفي عشرينيات القرن الماضي، وصل العداء للمعاهدة إلى داخل المحيط السياسي الألماني. ونظر إلى الشروط على أنها تأديبية وغير شرعية كما كان هناك اجماع صامت على أنهم يجب أن يتحايلوا على الشروط متى ما كان ذلك ممكناً. وما كان مثيراً للحنق بشكل خاص هو البند ٢٣١ والذي يحمل ألمانيا مسؤولية بدء الحرب. كانت عبارة "ذنب الحرب"، كما أصبحت خطأً تعرف بذلك، ترمي إلى أمرين: خيبة أمل الحلفاء المعنوية وربما - وهو الأهم - توفير أساس قانوني للمطالبة بتعويضات. وأخذ رئيس الوفد الألماني - الذي أستلم الشروط - قراراً واعيًا بمهاجمة القرار ٢٣١. وفي ألمانيا أنشأت وزارة الخارجية وحدة خاصة لإكمال ما بدأه. وجاءت أحداث يوليو عام ١٩١٤م متطلبة تدقيقا محددًا. ونشرت وثائق مختارة أو عرضت للمؤرخين المتعاطفين؛ لخلق صورة عن أوروبا المتجهة نحو الحرب، لم تكن الكارثة خطأ أحد، لكنها أيضاً كانت خطأ الجميع. ولذلك لا تتحمل ألمانيا مسؤولية عن تلك الحرب أكثر من غيرها من الدول.

وفي ألمانيا، كانت هذه الآراء عن الماضي مؤثرة كثيراً، ودافعًا لإشعال شعور عميق بالغضب ضد الحلفاء (وبالتأكيد تجاه الحكومة الألمانية التي وقعت المعاهدة والتي يشكل معظمها الاشتراكيون)، وأيضاً رغبة قوية بتحطيم "قيود" معاهدة فرساي. وكان

أدولف هتلر يركز على موضوعين الخيانة والسلام غير العادل حين بدأ بجمع الدعم من المحاربين الساخطين وأجنحة اليمين المتطرفة وجمهور مرتادي حانات ميونخ في عشرينيات القرن الماضي. وبعد أن حاز على اهتمام الطبقات الوسطى المحترمة ساعده استناده إلى القومية الألمانية المحبطة على اكتساب الشرعية . ولسوء حظ السلام العالمي ، أثرت إعادة كتابة التاريخ على خارج ألمانيا أيضاً ، وخاصة في الدول الناطقة بالإنجليزية. وازداد تعاطف القادة والجماهير في دول مثل المملكة المتحدة والولايات المتحدة مع ألمانيا واعتبار أنها عوملت بظلم وأن لها الحق بالمطالبة بإعادة النظر بمعاهدة فرساي. وخدم تحريف وسوء استخدام التاريخ هتلر بطريقتين: توفير داعمين له ، وتغذية السياسات المرضية لخصومه المحتملين.

وفي القرنين الماضيين أصبح التاريخ مهمًا بطريقة أخرى - كأساس للمطالبة بأرض ، من داخل الدول أو بينها. ويعود ذلك في جزء منه إلى عدم وجود سجلات واضحة لانتقال ملكية الأرض من مجموعة من الناس إلى أخرى كما هو الحال مع الأرض الوطنية في كندا ، وتساعد الأدلة المثبتة للملكية في الماضي في دعم المطالبة بأن انتقال الملكية تم بشكل شرعي. بالإضافة إلى أننا الآن لا نعتبر المعاهدات والاتفاقات التي وقعت فاعلة حين لا يعي أحد أطرافها أي فكرة عن معنى كلماتها. ولم يكن الحال كذلك في الماضي حين ذهب هنري ستانلي (Henry Stanley) إلى أعالي نهر الكونجو ليضع أمام الرؤساء المحليين أرقامًا على ورقة لا تعني لهم شيئًا وحصل بموجبها على أراضٍ واسعة لملك بلجيكا ليبولد (King Leopold) ، وكذلك حصلت القوى العظمى أيضاً على حصتها والتي كانت تقوم بذات الشيء إلى حد كبير. اليوم نتعامل مع مثل هذه الأعمال على أنها احتيال.

أيضاً نحن لا نؤمن ، الا إذا كنا متدينين متعصبين ، بأن وعود الآلهة أساس قوي للمطالبة بأقاليم معينة. وأيضاً لا تقبل اليوم الأسباب التقليدية للمطالبة بإقليم ما. مثلاً

الزواج، حين تزوج تشارلز الثاني (Charles II) ملك بريطانيا من ملكة برجانزا، في البرتغال، كاثرين (Catherine of Braganza) أحضرت معها ملكية مدينة بومبي كجزء من مهرها. ولو رغب اليوم الأمير تشارلز بإهداء دوقية كرونويل (Duchy of Cornwall) لزوجته الجديدة فإن هذا الأمر ببساطة غير قابل للتطبيق. ولا يمكن للحكام مقايضة الأقاليم كما كانوا يفعلون لقرون. استطاع نابليون (Napoleon) بيع جزء كبير من العالم الجديد إلى الولايات المتحدة "شراء لويزيانا" في عام ١٨٠٣م ولكن لا يمكن للرئيس نيكولاي ساركوزي (Nicolas Sarkozy) (الرئيس الفرنسي وقت كتابة الكتاب. المترجمة)، على سبيل المثال، أن يبيع أصغر جزء في فرنسا-جزيرتي سانت بيير وميكلون (St Pierre, Miquelon). وتمت في مؤتمر فينا، الذي أنهى الحروب النابليونية، مقايضة ممالك ودوقيات ومقاطعات ومدن بين الدول القوية في لعبة احتكار كبيرة ولم ير أحد غضاضة في ذلك. بعد ذلك بقرن في نهاية الحرب العالمية الأولى، أمضى مؤتمر باريس للسلام معظم الوقت والجهد محاولاً الوصول إلى معرفة رغبات السكان- أو على الأقل عرقيتهم- للمناطق التي وجدها تحت تصرفه.

تغيرت أساليب التفكير، وأصبحت الأمور التي كان ينظر إليها كشيء طبيعي تمامًا في القرنين الماضيين غير مقبول حتى التفكير فيها الآن. كانت الحروب والغزوات طرقًا متعارفًا عليها لتغيير الحدود. إذا خسرت حربًا، فإنك تتوقع أن تقدم أي شيء يطلبه المنتصر سواءً كان ذلك مالاً أو ثروة فنية أو إقليمًا أو أسلحة. لكن بعد انتشار أفكار عن السلطة المحبوبة والديموقراطية والمواطنة القومية، أصبح من اللازم حتى على أكثر الحكام قسوة أن يقدم للشعب شيئًا ما حتى لو كان وعداً بأن لهم حق تقرير المصير. وأدعى هتلر حين اتجه شرقًا نحو الاتحاد السوفيتي بأنه يسير على الطريق الطبيعي والتاريخي للعرق الألماني. وحين توغل ستالين في أوروبا الشرقية وضمّها إلى

إمبراطوريته في نهاية الحرب العالمية الثانية وكان تبريره لذلك أن الاتحاد السوفيتي استجاب لإرادة الشعب المحلي أو أنه ببساطة يعيد الحدود التاريخية. وحين احتل صدام حسين الكويت عام ١٩٩٠م، حاول أن يبرر تصرفه بمرجعية غير مقنعة، وهي اعتراف الكويت بسيادة العراق في القرن الثامن عشر أي قبل أن يتشكل البلدان. وأصبح التاريخ ضروريًّا لتوفير الشرعية على المطالبات بأراضٍ بما أن معظم الحجج سواء زواج أو غزو قد انتهت.

وبعد الحرب الفرنسية - البروسية بين عامي ١٨٧٠-١٨٧١م والتي نتج عنها هزيمة منكرة لفرنسا، وولادة ألمانيا الجديدة، أصر الجنرالات الألمان على المطالبة بمقاطعتي الألزاك واللورين (Alsace and Lorraine) كغنائم حرب، وأيضاً لتكون حاجز دفاع ضد الهجمات الفرنسية المستقبلية. قدم القوميون الألمان مطالبهم بلطف، وبغطاء أجد وأكثر قبولاً. وفي الماضي كانت مقاطعة الالزاك وجزء من اللورين، من ضمن الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وحكامها في مغلبهم ألمان. استولى لويس الرابع عشر (Louis X1V) على مقاطعة الألزاك ولويس الخامس عشر على اللورين (Louis XV Lorraine)، ولكن آن الأوان الآن لإعادتهما إلى امتدادهما الطبيعي. لم يكن مهما أن العديد من سكانهما لا يتحدثون الألمانية أو يفضلون البقاء مع فرنسا. وقال هنريك فون تريشتك (Heinrich von Treitschke) (أحد المؤرخين الألمان المهمين) إن الأمة الألمانية تعرف الأفضل "لهؤلاء البؤساء" الذين للأسف سقطوا تحت التأثير الفرنسي و"سوف نعيدهم إلى هويتهم الحقيقية حتى وإن رفضوا ذلك". وأوصت صحيفة ألمانية صدرت في القرن التاسع عشر بالحب القاسي "يجب أن نبدأ بالعصا"، وأعلنت "يتبع التأديب الحب وذلك سيجعلهم ألمان مرة أخرى".

وفي مؤتمر باريس للسلام عام ١٩١٩م، والذي كان علامة نهاية الحرب العالمية الأولى، اكتسبت تبريرات المطالبات بالأقاليم أهمية كبرى لأنه كان هناك الكثير الذي

يستدعي التقسيم بين المطالبات المتنافسة. وكان انهزام ألمانيا وانهيار روسيا الإمبراطورية، وانفصال النمسا وهنغاريا، وانهيار الإمبراطورية العثمانية يعني أن الحدود في جميع أوروبا والشرق الأوسط متغيرة. ورأت الدول القديمة مثل بولندا فرصة لوضع نفسها على الخريطة وسنحت الفرصة لأخرى جديدة أن تتشكل مثل تشيكوسلوفاكيا. وشجعت خطب ودرو ويلسون (Woodrow Wilson) والحديث عن حق تقرير المصير، والذي كان يملأ الأجواء، العديد من الجماعات على شد الرحال إلى باريس ووضع قضاياهم أمام القوى العظمى.

وتنقسم مطالبهم إلى ثلاثة أقسام رئيسة: ١- الإستراتيجية (ضرورة امتلاك أرض معينة لأمن الوطن أو اقتصاده) – العرقية (يرتكز انتماء الناس المتواجدين على أرض الشعب المطالب على اللغة والعادات والدين) وأخيراً، ويعتبر الفيصل، ٣- الحق التاريخي (ولا تنجح دائماً الأسباب الإستراتيجية والاقتصادية لأن الدول المجاورة يمكنها أيضاً المطالبة بالمثل) أيضاً السبب العرقي معقد كما هو الحال في وسط أوروبا حيث كانت الشعوب مختلطة. وبدا التاريخ وكأنه يمتلك سلطة التحدث- أليس كذلك؟ وينطبق على أوروبا، وعلى الشرق الأوسط أيضاً، والتي لها تاريخ طويل، مقولة تشرشل الساخرة والمشهورة عن منطقة البلقان التي وصفها بأنّ: "تاريخها أكثر مما يمكنها استهلاكه". جاءت وذهبت إمبراطوريات ودول وحكام وشعوب عليها. ويمكنك دائماً تقريبا أن تجد أساسًا لمطالبتك في الماضي إذا بحثت جيداً. فمثلاً: طالبت إيطاليا بمساحة كبيرة من ساحل ديلميشن (Dalmatian) وذلك بحجة الدفاع عن ساحلها الأدرياتيكي. وأيضاً بناء على أن الحضارة الإيطالية أعلى من تلك التي معظمها من السكان السلاف بالإضافة إلى أن مدينة البندقية سبق وحكمته. وكطبيعة بشرية، حين نهب المطالبون في مؤتمر السلام التاريخ، لم يرجع

هؤلاء الممثلون لدول ظهرت حديثا إلى الماضي، حينما كان أسلافهم المفترضون يسكنون جزءًا صغيرًا من المنطقة. أراد العديد من البولنديين بمن فيهم رومان دمسكي (Roman Domowski) (رئيس الوفد البولندي إلى باريس) أن تعود الحدود على الأقل إلى عام ١٧٧٢م حين كانت بولندا تحكم مايسمى الآن ليتوانيا وبيلاريس والكثير من أوكرانيا وقال خبير أمريكي عن ذلك " بدأ دمسكي حديثه عن مطالبات بولندا الساعة الحادية عشرة صباحًا مبتدئاً بالقرن الرابع عشر ولم يصل إلى العام ١٩١٩ والمشاكل الحالية القائمة إلا عند الساعة الرابعة بعد الظهر". ورغب الصرب بشدة العودة إلى حدود القرن الرابع عشر حين كانت مملكة الملك ستيفن (King Stephen) تمتد من الايجي إلى نهر الدانوب، بينما فضل البلغاريون القرن العاشر حين كان ملكهم سيمون (King Simeon) يحكم معظم المنطقة المذكورة سابقا.

ويكمل الخبير الأمريكي روايته متذمرًا "امتلأت حقيبة كل قومية من وسط أوروبا بأرقام وخرائط تخدم مطالبهم، وحين تفشل الأرقام يستخدمون الخرائط المليئة بالألوان والتي تحتاج إلى دراسة متخصصة لتحليل أنواع التزوير، والتي دعا إليها مؤتمر السلام". أو أساءت استخدام التاريخ. وتمتلئ سجلات المؤتمر بمطالبات واسعة مدعومة بتواريخ ضعيفة، وتمر هذه المطالبات بسرعة على القرون، ظهور وأفول دول، والحركة المتواصلة للشعوب عبر أوروبا، وكل الوقائع غير المقنعة والتي ترمي إلى توضيح أن هذه الأرض أو تلك كانت دائمًا بولندية أو إيطالية. على سبيل المثال، حين طالبت كلٌ من صربيا ورومانيا بمنطقة بانات (Banat) (والتي تقع بينهما) عادا إلى القرون الوسطى في بحثهما عن أدلة تدعم مطالبتهما. وقال ممثل الفريق الصربي انظروا إلى الأديرة والتي كانت دائمًا صربية " ورد عليه الممثل الروماني بالقول " بأن ذلك يعود إلى أن السلاف بطبيعتهم أكثر تدينا من الرومانيين".

واليوم تستخدم الصين التاريخ لكتابة قصة غزوها واحتلالها لهضبة التبت وكأنه ليس غزوا ولا يمت لذلك بصلة. بالنسبة للحكومة الصينية هي بكل بساطة تعيد إعلان حقها التاريخي والذي تأسس منذ قرون. وتمثل تايوان، على الأقل بالنسبة للصينيين، حالة مشابهة. وكما قال زوانلي (Zhou Enlai) لهنري كيسنجر في عام ١٩٧٢م : "يثبت التاريخ أيضاً أن تايوان تنتمي إلى الصين لأكثر من ألف سنة- وهذه مدة أطول من الفترة التي أصبحت فيها لونق ايلند (long Island)جزءًا من الولايات المتحدة". وفي الواقع، لا يثبت التاريخ هذا الأمر. ففي حالة التبت، الواقع أن الدلاي لاما أقر من وقت لآخر بسلطة إمبراطور السماء في الصين البعيدة ولكن تركت أراضي الجبال لإدارتها الذاتية. أما بالنسبة لتايوان فإن ارتباطها بالصين كان أكثر مرونة أيضاً كانت بعيدة جدا عن الصين ويفصلها البحر والسلالات الملكية التي حكمت الصين لم تهتم بمتابعتها ماعدا السلالة الأخيرة، كينق (Qing)، التي حاولت أن تظهر بعض السيطرة بعد أن أصبحت الجزيرة ملاذًا للقراصنة والمتمردين.

ويكتسب التاريخ أهمية خاصة حين يكون هناك أرض أو إقليم متنازع عليه. وفي كندا، يستخدم السكان سجلات مطبوعة مثل المعاهدات والبرقيات وأيضاً التاريخ الشفوي وعلم الآثار للمطالبة بما يرون أنه أراض لأسلافهم. ويطالب الرومانيون، كما طالبوا في باريس عام ١٩١٩م، بمنطقة ترانسلفانيا الغنية لتكون من نصيبهم لأنهم ينحدرون من الجيش الروماني، وذلك يعني أنهم سكنوا الأرض قبل خصومهم الهنغاريين بمدة طويلة، والذين قدموا في القرن التاسع الميلادي. ويطالب الألبانيون بكوسوفو؛ لأنهم ينحدرون من الألريانيون القدماء، الذين كانوا معروفين في العصر الإغريقي الكلاسيكي، بينما جاء الصرب في القرن الحادي

عشر. ورد الصرب على ذلك بالقول إن معظم الألبانيين في كوسوفو قدموا حديثا ويشكلون جزء اً من هجرات القرنين التاسع عشر والعشرين.

وأحد أشد وأخطر المنازعات هي التي بين الفلسطينيين والإسرائيليين على ملكية الأرض الصغيرة والتي كانت تسمى فلسطين إبان الحكم العثماني. ويتنازع الطرفان على جميع تاريخهما المشترك. هل فعلاً شكل السكان الفلسطينيون ٩٠٪ من السكان بينما اليهود ١٠٪ زمن الحرب العالمية الأولى؟ وهل رفض الفلسطينيون مرة تلو الأخرى التعاون مع اليهود؟ أو هل حرم اليهود الفلسطينيين تمامًا من الاقتصاد والسلطة؟ وهل يمكن فعلا الحديث عن "الفلسطينيين"؟ (لا يعتقد ذلك جولدا مائير Golda Meir أو ديفيد بن غوريون David Ben-Gurion) هل كان عام ١٩٤٨م وهو العام الذي أعلنت فيه دولة إسرائيل انتصارا أم كارثة؟ هل ترك اللاجئون الفلسطينيون البلاد بمحض إرادتهم لأنهم ظنوا أنهم سيعودون مع الجيوش العربية المنتصرة أم أنهم دفعوا لذلك؟ وهل كانت دائمًا دولة إسرائيل الصغيرة محاطة بدائرة حديدية من الأعداء العرب العنيدين ؟ هل كان بقاؤها معجزة أو أن لديها الكثير من المميزات؟ وهل دعم الفلسطينيون دول المحور في الحرب العالمية الثانية؟ وهل الصهيونية وجه آخر للاستعمار الغربي؟

من المستحيل تقريباً وجود إجابة مشتركة بين الطرفين على مثل هذه الأسئلة ؛ لأن التاريخ يكمن في قلب هويتهما ومطالبتهما بفلسطين. والتاريخ الإسرائيلي إلى حد كبير هو التاريخ الذي رغب الآباء المؤسسون مثل بن زيون دينور أن يصبح قصة ملهمة يتحد فيها الإسرائيليون في دولة واحدة مصرة على البقاء. ينتمي الإسرائيليون إلى فلسطين ؛ لأن الوجود اليهودي كان مستمرا هناك منذ أن هزم الرومان آخر دولة يهودية هناك. ويستمر الجدل الإسرائيلي ، بأن العرب قادمون جدد نسبياً من عدة

أماكن عبر القرون. بالإضافة إلى إصرار الشخصيات السياسية مثل جولدا مائر على أن العرب لم يؤسسوا دولة مستقلة اسمها فلسطين. وفي ثمانينيات القرن الماضي، ذهبت كاتبة أمريكية أسمها جوان بيترز (Joan Peters) إلى أبعد من ذلك، وحاولت – دون نجاح – أن تثبت عدم وجود عرب على الإطلاق في فلسطين وقت وصول الآباء (المؤسسين) الصهاينة في نهاية القرن التاسع عشر ولكن جذبهم النجاح الذي حققه الصهاينة. ولدت اسرائيل الحديثة من قلب الشدائد، ولكنها استطاعت أن تنتصر على أعدائها العرب المتكتلين حولها. وفي السنوات التالية لعام ١٩٤٨م، هاجمها جيرانها مرارا وأجبرت على خوض ثلاثة حروب دفاعية (كان ذلك بسبب توسعها وحرب ١٩٥٦ كانت بالتعاون مع بريطانيا وفرنسا ولم تكن حربًا دفاعية بل عدوانية بسبب تأميم قناة السويس. المترجمة) في الأعوام ١٩٥٦/١٩٦٧/١٩٧٣ وتمسكت بالأراضي المحتلة في قطاع غزة والضفة الغربية ومرتفعات الجولان ؛ لضمان أمنها. وكما تدعي هذه الرواية ترغب إسرائيل بالسلام ولكن العرب كانوا عنيدين منذ البداية.

وليس غريباً أن رؤية الفلسطيني والعربي بشكل أوسع مختلفتان عن الرؤية الإسرائيلية. ففي نظرة العربي إلى الماضي، فإن الوجود اليهودي-" الكيان المغتصب"- زرعته الإمبريالية الغربية في فلسطين في القرن العشرين في فعل نمطي للاستعمار. ساعدت قابلات قويات على ولادة إسرائيل، خاصة الولايات المتحدة. والفلسطينيون الذين كانوا موجودين لعقود (إن لم يكن قرون) قاوموا، ولكن كانوا ضعفاء جداً، وإخوانهم العرب كانوا منقسمين على بعضهم. أما مصر والأردن فقد تواطأتا سراً مع إسرائيل لأخذ الأراضي الفلسطينية، ولم يخرج اللاجئون بمحض إرادتهم في عام ١٩٤٨م، ولكن أجبروا، وفي أغلب الأحيان بقوة سلاح الجنود اليهود. إنها إسرائيل شريرة المنطقة، ومثيرة الحرب مع الدعم القوي الذي تجده من الولايات المتحدة.

ورفضت إسرائيل أن تعيد الأرض التي انتزعتها عام ١٩٦٧ بالرغم من أن احتلالها غير شرعي، وتتعامل مع السكان الفلسطينيين القاطنين في المناطق المحتلة بطريقة مشابهة لطريقة تعامل نظام التمييز العنصري في جنوب إفريقيا. وحاولت القيادة الفلسطينية أن تجري محادثات بحسن نية مع إسرائيل وإذا فشلت تلك المحادثات مثل تلك التي رعاها الرئيس بيل كلينتون في كامب ديفيد فإن الفشل خطأ إسرائيل.

والتاريخ الحديث مجرد جزء من أرض المعركة وربما ليس أهم أجزائها. وإذا استطاع الطرفان أن يظهرا علاقة طويلة ومستمرة بالأرض فحينها، وعلى خطا الحركات الريادية القومية في أوروبا، يصبح ذلك سند ملكية للحاضر. ولذلك تفضل حركة المستوطنات في إسرائيل استخدام الأسماء التوراتية لليهودية والسامرة لوصف الضفة الغربية. وكما قالت المتحدثة الرسمية لجماعة جوش إيمونم (Gush Emunim)، (أحد أكثر الجماعات تطرفا) كان التاريخ "عملتهم". وليس غريباً، كما أشارت ناديا أبو الحاج في كتابها *وقائع على الأرض*، أن علم الآثار اكتسب أهمية كبيرة في النزاع بين الإسرائيليين والفلسطينيين؛ لأنه يعد بإجابات حازمة. على سبيل المثال، لو أظهرت مواقع من العصر الحديدي آثار خاصة بالإسرائيليين الذين احتلوا أرض الكنعانيين، فربما يؤسس ذلك للمطالبة اليهودية الحديثة بنفس منطقة الكشف. وإذا -من جهة أخرى- كانت المواقع مشتركة مع عدة شعوب في أزمان مختلفة فإنه يصعب تأكيد الارتباط المستمر بالأرض. وقال عالم آثار فلسطيني " لا يمكن أن يكون عدلا تأكيد تاريخ شعب واحد من بين عدة شعوب غزت فلسطين واستقرت هنا". أو ماذا لو -كما يجادل بعض علماء الآثار العرب -كان السكان الأصليون عربًا وأخذ الإسرائيليون

أرضهم؟ وأصبح كل قرن جزء من النقاش. إذا كانت فسيفساء القرن العاشر عربية فماذا يعني ذلك لمطالبات الفلسطينيين؟ ووجه ذات مرة عقيد إسرائيلي سؤالاً بحنق إلى عالم آثار: "هل نحتاج أن نعلن للعالم بأن هذه البلاد سكنها المسلمون؟"

وحين توصل الطرفان إلى اتفاق، بصعوبة كبيرة في بدايات التسعينيات، لكي تنسحب إسرائيل من أجزاء من الضفة الغربية، كانت الآثار المكتشفة جزءاً من الصفقة. وطالب الفلسطينيون بها ولكن أصرت الحكومة الإسرائيلية على إدارة مشتركة للمواقع المهمة. فليس واضحًا من الذي يملك الآثار الموجودة في مواقع مثل أريحا، والتي كان يجب أن تسلم للسلطة الوطنية الفلسطينية. وفي عام ١٩٩٣م، أرسلت إدارة الآثار الفلسطينية أكثر من اثني عشر فريقا من علماء الآثار في مهمة سرية للغاية قبل الانسحاب الاسرائيلي لتنقيب ذلك الجزء بحثا عن المخطوطات القديمة ووصف تلك المهمة صحفي إسرائيلي بازدراء "مثل انديانا جونز"

ويمكن أن تلصق أدلة متناقضة أو تفسر أو ببساطة يتم تجاهلها. واستنكر زملاء عالم آثار إسرائيلي قومي تسميته مواقع مسيحية واضحة بأنها يهودية. واختفت أسماء من الخرائط واختفى معها من كان يسكن هناك، وحين طرحت حفريات الآثار أسئلة عن العديد من المكونات الرئيسة للعهد القديم وتراتيبيته ككل، رفض العديد من الأصوليين المسيحيين والإسرائيليين تصديق ما اكتشف، وبقوا ببساطة غير مبالين بها. ووصل العديد من مؤرخي العصور القديمة وعلماء الآثار إلى قناعة بأن الإسرائيليين لم يطأوا أرض مصر أبداً.

وإذا كان هناك خروج لليهود فيمكن أن يكون قضية صغيرة وعائلات قليلة. وقد لا يكون الإسرائيليون احتلوا أرض كنعان، وقد لا تكون أريحا محاطة

بالأسوار لتسقط في ذروة النصر. ومن المرجح أن مملكة سليمان وداوود العظيمة، والتي يقال إنها امتدت من البحر الأبيض إلى الفرات، لم تكن إلا مشيخة صغيرة. وتدل بقايا من ذلك الوقت أن القدس (أورشليم) كانت مدينة صغيرة وليست تلك العظيمة المذكورة في الإنجيل. ويتساءل زيف هرزق (Zeév Herzog) في صحيفة هآرتس (Haaretz) الإسرائيلية المحترمة: لماذا لم يثر التغير الرئيس في وجهات النظر عن الماضي الإنجيلي ردة فعل أحد، بما في ذلك الإسرائيليين العلمانيين؟ ووصل إلى نتيجة أنهم يجدون من المؤلم أن يعيدوا النظر "من الواضح أن ضرب الأسس الأسطورية للهوية الإسرائيلية مرعبة ومن الأفضل غض النظر عنه".

ولم تكن ردود الفعل دائمًا صامتة. تعرضت ناديا أبو الحاج، وهي أمريكية من أصول فلسطينية، لهجوم مرعب حين قالت إن الإسرائيليين استخدموا علم الآثار لدعم مطالبتهم بإسرائيل وعلق على ذلك ناقد على موقع أمازون بالقول "كان يجب ألاَّ ينشر هذا الكتاب" و"أن هذا العمل مكرس لمسح كامل للعلاقة التاريخية التي تربط اليهود بأرض إسرائيل". وقامت حملة قوية لمنع ناديا من الحصول على منصب في كلية برنارد (Barnard College) حيث كانت تدرس. كما وجد المؤرخون - الذين تحققوا من التاريخ الاسرائيلي، بحيادية كما يتحققون من غيره، محاولين الفصل بين الأسطورة والواقع، ومتحدين المتعارف عليه -انفسهم في موقف مشابه للوقوف في حقل ألغام. و"التاريخ الجديد" الذي كتبه مؤرخون مثل أفي شاليم (AviShlaim) وبيني موريس (Benny Morris) هو كما قال شبتاي تيويث (ShabtaiTeveth)، وهو صحفي وكاتب سيرة أول رئيس وزراء إسرائيلي ديفيد بن غوريون "خليط من التحريف والإسقاط والقراءة المغرضة والتزوير

الصريح". وليست إسرائيل، كما سنرى، المجتمع الوحيد الذي لديه حروب تاريخية، ولكن هناك الكثير على المحك، بدءًا من الهوية إلى حق شعبها في الوجود على أرضه، ولذلك يمكن أن يكون الصراع متوحشاً.

الفصل السابع

حروب التاريخ

HISTORY WARS

التاريخ هو استعادة ذكرى الماضي ولكنه أيضاً اختيار النسيان. يتحدى المرشحون في الحملات السياسية، بعضهم بعضاً بما اختاروا إخفاءه من سيرهم الذاتية. ونفعل ذلك أيضا في حياتنا الشخصية. حين نقول بغضب "لم تخبرنِ عن ذلك أبداً" أو نقول مصدومين "لم أكن أعرف ذلك عنك". وكانت بعض أصعب وأطول الحروب في مجتمعات العالم حول أمور طمست أو قلل من شأنها في الحديث عن تاريخ هذه الشعوب- وما يجب أن يحتويه هذا التاريخ. وحين يتحدث الناس، كما يفعلون غالبا، عن الحاجة إلى تاريخ "مناسب" فإنهم يقصدون التاريخ الذي يريدونه ويرغبونه. وتنغمس من حين لآخر الكتب المدرسية والمقررات الجامعية والأفلام والكتب والنصب التذكارية للحروب والمعارض الفنية والمتاحف في مناظرات تقول عن الحاضر وهمومه بنفس القدر الذي تقوله عن موضوع التاريخ المزعوم.

تأخذ معظم المجتمعات بجدية تعليم الأجيال القادمة وغرس الرؤية الصحيحة والقيم فيهم. كما يعطي واقع هجرة عدد كبير من الناس إلى دول عديدة، وخاصة في الغرب، أهمية أكبر للموضوع. وهز المجتمعات الغربية ظهور أدلة، خاصة فيما يتعلق

بالأعمال الإرهابية، بأن المهاجرين لا يهتمون بقيم المجتمع المضيف وفي الواقع هناك عدد قليل من المهاجرين يحتقر هذه القيم فعلاً. وأجبرت أحداث مثل جريمة قتل المخرج المثير للجدل ثيو فان جوخ (Theo van Gogh) أو اكتشاف خطة إرهابية في تورنتو، الهولنديين والكنديين على اعادة النظر في طرق دمج القادمين الجدد أو أسباب فشل ذلك. وهناك مخاوف أيضاً من السكان المنتمين للمجتمع منذ مدة طويلة ولا يفهمون مجتمعاتهم جيِّداً أو القيم الأساسية التي يجسدونها. ونتيجة لذلك، هناك نداءات متكررة لتعليم القيم الوطنية (ليس سهلاً الاتفاق على ماهية هذه القيم كما نرى بوضوح في فرنسا حيث يتضارب التسامح الديني مع القلق من تحول المهاجرين المسلمين إلى مدنيين يحملون الجنسية الفرنسية).

يستخدم التاريخ عادة كسلسلة من القصص الأخلاقية. ولدعم تماسك الجماعة، أو من وجهة نظري للمحاجة، ولتوضيح كيفية تطور مؤسسات مهمة مثل البرلمان ومفاهيم مثل الديموقراطية، ولذلك كان تدريس الماضي محوريًّا للجدل الدائر حول كيف تغرس وتنقل القيم. والخطر الذي يحضر هو أن يكلف تحقيق هدف سامٍ تشويهًا للتاريخ إما بتحويله إلى سرد ساذج حيث تكون الشخصيات خيرةً أو شريرة تمامًا أو أن يوصف التاريخ كما لو أنه يسير باتجاه واحد سواء أكان ذلك تطوراً إنسانياً أم انتصار مجموعة محددة. مثل هذا التاريخ يسطح تعقيدات التجربة الانسانية ولا يسمح بطرح تفسيرات مختلفة لأحداث الماضي.

وشعار مقاطعة كيوبك هو "أتذكر"، وبالتأكيد يتذكرالمواطنون المتحدثون بالفرنسية خاصة وعادة بانتقائية تاريخهم. ويؤكد التاريخ، كما يدرس في مدارس كيوبك، وجود المتحدثين بالفرنسية كأقلية محاصرة في كندا الإنجليزية كما يتحدث عن نضالهم باستمرار من أجل حقوقهم. وحين كان الحزب الكيوبكي Quebecois، التعبير

السياسي للحركة الانفصالية في كيوبك، في السلطة في تسعينيات القرن الماضي، وعد وزير التعليم بولين ماريوس (Pauline Marois) (الآن رئيس الحزب) بمضاعفة حصص التاريخ لطلاب المدارس الثانوية. ولم يكن الانفصاليون المتشددون راضين عن ذلك، كان المنهج من وجهة نظرهم يحوي أكثر من اللازم من تاريخ العالم ويهتم كثيرا بالأقليات الإنجليزية والمحلية في المقاطعة.

ولدى الكنديين المتحدثين بالإنجليزية مخاوف أخرى، منها: أن الكنديين الشباب لا يتعلمون كفايتهم عن الماضي ليفخروا بوطنهم. وقامت مؤسسة دومينون بدراسة سنوية وأعلنت بكثير من الأسى أن الكنديين لا يعرفون رؤساء الوزارة أو لا يتذكرون تواريخ الأحداث المهمة. وفي عام ١٩٩٩م أسست مجموعة من المهتمين مؤسسة هستوريكا ومهمتها ملء الفراغ كما يرونه في تدريس ماضي كندا. وفي أستراليا، أثار جون هاورد، رئيس الوزراء ١٩٩٦-٢٠٠٧م، نقاشًا عامًا صاخبًا حين أعلن أنه وصل كفايته تجاه وجهة نظر "الشارة السوداء" لتاريخ أستراليا. وجاء الاتهام في وقت عصيب حين كان الأستراليون يناقشون واجبهم تجاه الجيل المسروق، أطفال السكان المحليين الذين انتزعوا من عائلاتهم واعطوا لعائلات بيضاء. وقال هاورد أن المؤرخين "نصبوا أنفسهم خبراء تغذية ثقافية" واقنعوا الأستراليين أن تاريخهم حكاية ندم متشكلة من العنصرية ومليئة بالجرائم ضد السكان المحليين. وهاجم الصحفيون والمعلقون الآخرون بسعادة، وعازفون على وتر الضغط القوي المناهض للفكر في الثقافة الاسترالية، "المافيا الأخلاقية" و"النخب الثقافية الفاعلة".

وقال أحد كتاب الاعمدة الصحفية إن معظم الأستراليين سيكونون سعداء برؤية مصالحة بين السكان الاصليين وبقية المجتمع لو أن السكان الأصليين "فقط يتوقفون عن الحديث عن الماضي".

وتثار في المملكة المتحدة باستمرار نقاشات عن ماهية التاريخ الذي يجب أن يتعلمه أطفال المدارس. هل يجب أن يكون عن، كما أراد المحافظ كينيث بيكر (Kenneth Baker) حين كان وزيراً للتعليم، "كيف تطور مجتمع حر وديمقراطي عبر الزمن" أم يجب أن يكون تاريخ المضطهدين والمهمشين؟ التاريخ من أعلى إلى أسفل أم من أسفل إلى أعلى؟ هل يحتاج الأطفال إلى التدرج أو الأفضل أن يتعلموا مواضيع مثل العائلة أو عن النساء أو العلوم والتقنية؟ وفي صيف عام ٢٠٠٧م، أثارت افستد (Ofsted)، المؤسسة التي تشرف على المدارس البريطانية، نقاشًا وطنيا حين اشتكت من أن التاريخ الذي يدرس غير مترابط ومتشظٍّ جدًّا، وليس لدى الطلاب أي فكرة عن تواريخ الأحداث وترتيبها. واكتشف ذلك العديد من الأهالي الذين بالتالي نشروا كتباً أصبحت من أفضل المبيعات عن تاريخ الحقبة الادواردية للأطفال. مثلاً: تأخذ قصة "جزيرتنا" كحقيقة مسلم بها تحرك التاريخ البريطاني للأمام عبر القرون وأن الإمبراطورية البريطانية كانت شئيا جيدا وأن بريطانيا كانت في العموم محقة. وهو مليء بقصص عن رتشارد قلب الأسد (Richard the Lion Heart) والسير والتر رالي (Sir Walter Raleigh) وروبن هود (Robin Hood) وبالطبع الملك آرثر (King Arthur). وهناك أبطال وأشرار. وهناك صفحة تصور ملكة قبيلة اسني البريطانية، بري ريفلتك بوديكا (Pre-Raphaelite Boadicea)، كما كانت تعرف في ذلك الوقت، وهي تعدو وشعرها الأشقر يتطاير وراءها. والملك روبرت الأول المفكر (Robert the Bruce) يشاهد عنكبوتًا تغزل شبكة بيتها ويتعلم الإصرار. والأميرتان الطفلتان ترتجفان وعمهما الشرير رتشارد الثالث (Richard III) يتحضر لقتلهما. وعموماً هو ليس تاريخاً جيداً- وليس لديه ما يقوله عن بريطانيا الجديدة المتعددة الأعراق والثقافات اليوم-ولكنه ممتع وقد يشجع الأطفال على الاهتمام بماضي وطنهم. ويتداخل عادة النقاش حول ماهية التاريخ الذي يجب أن

يدرس مع سؤال: كيف ندمج المهاجرين في تاريخ البلد المضيف. في نهاية ثمانينيات القرن الماضي وبداية التسعينيات، كان المحافظون في حكومة تاتشر قلقين من كون الوافدين الجدد لم يدرسوا ماضي بريطانيا. وأرادت السيدة تاتشر (Mrs. Thatcher) "تاريخًا وطنيًا" وحديثًا، وقال جوردن براون (Gordon Brown) من الحزب الليبرالي والذي قد يختلف معها على محتوى مثل هذا التاريخ، إنه يجب على هؤلاء الذين يودون أن يصبحوا مواطنين بريطانيين أن يُظهروا فهمهم للتاريخ والثقافة البريطانية.

وفي الولايات المتحدة، كان ينظر إلى اندماج المهاجرين في المجتمع الأمريكي كأمر مفروغ منه وأحد أهم الوسائل للوصول إلى ذلك هو المدارس. وأثارت الحرب الأهلية، ربما لأنها أظهرت هشاشة الاتحاد، اهتمامًا عميقًا بالتاريخ الأمريكي. وعرضت الكتب المدرسية تاريخًا يوضح بنجاح مسيرة أمريكا منذ بداية المستوطنات والأباء المؤسسين وحتى الوقت الحاضر. واكتسب عيد الشكر أهمية أكبر كذكرى يجتمع فيها الأمريكيون لاستعادة نشأة الأمة. ويتذكر ثيودور وايت (Theodore White)، وهو صحفي لامع، نفسه مع زملائه في الصف، أطفال المهاجرين اليهود من وسط أوروبا، يعيدون تمثيل اللقاءات الأولى بين الأباء المهاجرين والسكان الهنود المحليين. وكان ذلك بالنسبة له جزءًا من تحوله لأمريكي. وأصبح يوم الذكرى الجديد (Memorial Day)، الذي أعلن بعد الحرب الأهلية، مناسبة لتذكر الجنود المتوفين. وفي العديد من الولايات، كانت المدارس وبقوة القانون تدرس التاريخ الأمريكي وعلم التربية المدنية بشكل يحفز الوطنية. ويقوم متطوعون بمراجعة الكتب المدرسية للتأكد من وصول الرسالة السليمة إلى المتلقي. وانتقد بشدة سياسيو شيكاغو الإيرلنديون آرثر شلسنقر (Arthur Schlesinger)، أحد عمالقة التاريخ الأمريكي في السنوات بين الحربين العالميتين، حين كتب نصًا، من وجهة نظرهم، يبدي فيه ويروج لإعجاب غير سليم

وغير وطني بالبريطانيين ومؤسساتهم. وفي عام ١٩٢٧ ، قام العمدة علنا بحرق نسخة من أحد كتب شلسنقر "الملوثة بالخيانة".

أثارت باستمرار الكتب التدريسية والمناهج التعليمية في المدارس الأمريكية تضاربًا في وجهات النظر لأن التاريخ متداخل جداً مع نظرة الأمريكيين لأنفسهم كشعب ومع تحول المهاجرين إلى جزء من هذا الشعب. وأشعل الرئيس بوش الأول في عام ١٩٩٠م دون قصد، فتيل آخر تفجير في هذا الموضوع حين أعلن أن الحكومة الفيدرالية سوف تعمل مع حكام الولايات لإيجاد أهداف تعليم وطنية، للتأكد من أن الطلاب الأمريكيين قادرون على المنافسة في عالم تتزايد فيه أهمية التعليم وأيضاً لإعداد الطلاب ليكونوا مواطنين صالحين. وأكملت إدارة الرئيس كلينتون، التي جاءت بعد إدارة بوش، المشروع. وكان التاريخ أحد المواضيع الاساسية التي يجب وضع أهداف لها إلى جانب اللغة الإنجليزية والرياضيات والعلوم والجغرافيا. ووضع المجلس الوطني لمعايير التاريخ، بعد الكثير من النقاش والمشورة، مجموعة من الإرشادات لتاريخ العالم والتاريخ الأمريكي والتي يحق للولايات أن تقبلها أو ترفضها. وعلى الرغم من وجود تركيز أكبر على التعدد الثقافي وعلى الحضارات غير الغربية، إلا أن المسؤولين عن الإرشادات كانوا واثقين من نجاحهم في رواية قصة الولايات المتحدة بطريقة جذابة للطلاب. أيضاً، أضافوا جوانب من الماضي- على سبيل المثال تاريخ المرأة أو السود، والذي كان مغفلاً سابقاً.

وقبل نشر الوثيقة بوقت قصير، قادت لين تشيني (Lynne Cheney)، والمنتمية للحزب الجمهوري المحافظي وهي مشهورة وزوجة ديك تشيني (Dick Cheney)، هجومًا يمكن أن يسمى بكلمات مألوفة لإدارة بوش الثانية هجومًا وقائيًّا. واستنكرت في مقال في جريدة الوول ستريت *Wall Street Journal* المعايير الجديدة المقترحة والتي،

كما قالت، قدمت نظرة حزينة وسوداوية عن الماضي الأمريكي. وكما ترى لين، أنهم أساتذة محقون سياسيًّا ويدفعهم كرههم للتاريخ السياسي التقليدي المرتب زمنيا لوضع قصة يأخذ فيها كو كلوكس كلان (Ku Klux Klan) اهتمامًا أكبر من دانيل وبستر (Daniel Webster) والبرت اينشتاين (Albert Einstein). كان رَش ليمبو (Rush Limbaugh)، مقدم البرنامج الإذاعي اليميني، محتداً بدافع الاستقامة الوطنية حين قال إن المؤرخين المسؤولين عن وضع معايير التاريخ الوطني كانوا يرمون إلى غرس الاعتقاد لدى الصغار بأن " بلدنا بطبيعتها شريرة". وهناك آخرون، من بينهم أعضاء من الكونجرس، لا يقلون حماسًا عن هؤلاء. ويقدم الآن جوردن ليدي (G. Gordon Liddy) وأوليفر نورث (Oliver North)، بعد أن انهيا محكوميتهما بالسجن، برنامجًا إذاعيًّا يتحدث عن "معايير الجحيم". وندد السناتور سليد جورتن (Slade Gorton) من ولاية واشنطن بالمعايير في الكونجرس واعتبرها هجوماً شريراً على الحضارة الغربية. وفي خريف عام ١٩٩٥م، انتقد السيناتور بوب دول (Bob Dole)، الذي كان يحضر لحملته الانتخابية لرئاسة الحزب الجمهوري- بشدة أكثر المعايير ووصفها بأنها خيانة "وأنها أسوأ من الأعداء الخارجيين".

وكان هناك رد معارض على هذا الهجوم، وبالتأكيد، وجدت الولايات المتحدة نفسها في جدل جماهيري واسع عن ماذا يجب أن يكون التاريخ وما يجب أن يكون له. وكان المؤرخون المتخصصون والمدرسون سعداء بعودة التاريخ إلى صلب المنهج التعليمي. وشعر الليبراليون أن المعايير تعكس الولايات المتحدة الجديدة والمضطردة التنوع. أعجب الكثيرون بالتركيز على المحتوى والتدرج الزمني. وقالت صحيفة لوس انجلس تايمز *Los Angeles Times* باستحسان "نأمل أن يستطيع خريجو الكلية الوصول إلى معايير المعرفة بالدستور الأساسي الذي وضع هنا" وفي النهاية، وبعد المزيد من

النقاش والمراجعة نشرت إرشادات جديدة في عام ١٩٩٦م. واضافوا جزءاً جديداً يطلب فيه من الطلاب أن يبحثوا في الجدل حول موضوع التاريخ ذاته.

كان النقاش العام عادة مريرًا وحول معايير التاريخ أكثر منه عن المنهج التعليمي. وجاء النقاش في وقت كانت فيه الولايات المتحدة غير واثقة من دورها بعد الحرب الباردة ومن مجتمعها ذاته. خاف المحافظون الجدد من أن الولايات المتحدة لا تريد استخدام قوتها الهائلة. كما رأى المحافظون الجدد ضعف قيم العائلة في الوطن، والذي كان يتمثل لهم ويتضح في السماح بالإجهاض، وقلق العديد من الأمريكيين من عدم وجود هوية أمريكية محورية. كما أن العديد من المهاجرين الجدد لم يظهروا اهتمامًا بالانغماس بالمجتمع، على سبيل المثال، أصر المتحدثون بالإسبانية على الاحتفاظ بلغتهم وأيضا على وجود مدارس إسبانية. كما تخلت الجامعات عن مقرراتها للحضارة الغربية التقليدية، وركزت بازدياد مقررات التاريخ الأمريكي على التاريخ الثقافي الاجتماعي. واذا لم يكن شعور الأمريكيين تجاه الماضي مشتركًا فماذا سيحصل للحلم المعبر عنه في الشعار الحكومي المستخدم على نطاق واسع "الجميع واحد" *Ë pluribus unum* ؟ هل سيتغير المعنى إلى العكس ؟"بدلاً من الاتحاد إلى التفرق " وعلى الرغم من أن الضجة حول معايير التاريخ الوطني هدأت (وبالتأكيد تم تبني العديد منها) إلا أن التوجس بقي. وفي عام ٢٠٠٤م، نشر المؤرخ اللامع صامويل هنتنجتون (Samuel Huntington) كتابًا سوداوياً بعنوان "من نحن؟" وحذر فيه من أن "مشروع التفكيكية" رفع من شأن تاريخ المجموعات والتاريخ الإقليمي على حساب التاريخ الوطني. وحذر أيضاً من أن "الناس الذين يفقدون هذه الذكرى يصبحون أقل من أمة".

وفي الدول التي تفتقد إلى الثقة بالنفس، لأي سبب، يمكن أن يكون تدريس التاريخ موضوعًا أكثر حساسية. وتبدي الحكومة في تركيا اهتمامًا قويا بالمنهج التعليمي.

وقد يجد المؤرخون الذين يطلبون اهتماماً أكبر بتاريخ الأقليات في تركيا أو أولئك الذين يجرؤون على الإشارة إلى وجود إبادة جماعية للأرمن في الحرب العالمية الأولى أنفسهم في مأزق. وفي روسيا، يبدي الرئيس فلاديمير بوتين (Vladimir Putin) اهتمامًا شخصيًّا في كتابة كتب تدريسية عن تاريخ "وطني" جديد تستخدم في المدارس. وقدم منحًا إلى الكتاب الموافق عليهم (أحدهم كان أستاذًا في العلوم الاجتماعية الماركسية اللينينية وحوَّل نفسه إلى مؤرخ) وأعطت حكومته لنفسها الحق في تحديد أي الكتب المدرسية يجب أن يدرس. ومدح بوتين في مؤتمر المدرسين في مبنى الكرملين في شهر يونيه عام ٢٠٠٧م الكتب التعليمية الجديدة. وقال "كتب أشخاصٌ العديد من الكتب التدريسية وعملوا للحصول على منح خارجية، وأثنوا على ما أراده المانحون. هل فهمتم؟" وحتى يتأكد من فهم المدرسين الحاضرين، أخبرهم أنه حان الوقت للتخلص من "الفوضى الذهنية" وإحلال نظرة وطنية منفتحة على الماضي. وقال إن الكتب التدريسية الجديدة ستقدم رؤية مناسبة عن ستالين ومكانته في التاريخ الروسي. كما أقر بوتين في ذلك الاجتماع بوجود " إشكالية في بعض الصفحات " عن ماضي روسيا ولكنها أقل مما يوجد عند الدول الأخرى. (انظروا كيف تصرفت الولايات المتحدة في فيتنام). كان ستالين دكتاتورا، ولكن ذلك كان ضرورياً في تلك المرحلة لإنقاذ روسيا من أعدائها. و"لم تكن الديموقراطية خيارا" في الصراع الكبير أثناء الحرب الباردة والتي بدأتها الولايات المتحدة بناءً على الكتب التدريسية الروسية.

وفي الصين، يراقب قسم دعاية الحزب وأقسام التعليم المدارس عن كثب للتأكد من تعليم الطلاب معاناة الصينيين على يد الإمبرياليين ويقدمون معلومة مفادها أنَّ الحزب الشيوعي هو اختيار التاريخ لقيادة الصين إلى وضعها الحالي السعيد. (في الصين الإمبراطورية كان التكليف من السماء، والفكرة في الحالتين واحدة تقريباً). وحديثا،

أقفلت السلطات صحيفة تدعى نقطة التجمد بعد أن نشرت مقالاً كتبه يأون ويشي (Yuan Weishi)، مؤرخ صيني مشهور، أشار فيه إلى أن الكتب التدريسية للمرحلة الثانوية مليئة بالأخطاء والتحريف. بالإضافة إلى أنها تقدم رؤى خاطئة عن الماضي الصيني لإظهار، كما يطرح يأون، تفوق الحضارة الصينية على الحضارات الأخرى وتكرس النظر إلى الثقافة الأجنبية على أنها تهديد. والسبب الحقيقي وراء مشكلته والصحيفة معه هو إفصاحه عن أن التاريخ، كما يدرس الآن، يبرر استخدام القوة السياسية وحتى العنف لإلزام الناس بالطريق القويم. وقالت السلطات إن آراء البرفيسور يأون هرطقة وإنها تهاجم "الاشتراكية وقيادة الحزب".

وفي شنغهاي، قامت مجموعة من الأكاديميين بجرأة بوضع كتب مدرسية جديدة تعطي مساحة أقل للمواضيع الرئيسة القديمة من تاريخ الصين الشيوعي مثل النهب الاستعماري وسطوع نجم الحزب الشيوعي الصيني. واهتمت أكثر بالثقافات الأخرى وبمواضيع مثل التقنية والاقتصاد. أيضاً أوضحت هذه الكتب إمكانية وجود أكثر من وجهة نظر واحدة تجاه الماضي. غير أن خطأهم الكبير كان تقليل دور ماو. وحين علق مقال في صحيفة النيويورك تايمز *New York Times* بعنوان "أين ماو؟ "Where's Mao?" على التحسينات التي أجريت على التاريخ القديم ثنائي الأبعاد بدأت السلطة بالتحرك. وأصدر مؤرخون في بكين بياناً جاء فيه " تنطلق الكتب التدريسية في شنغهاي من مادية ماركسية تاريخية وتسرد الأحداث بدلا من شرح طبيعتها. هناك أخطاء أساسية في التوجه السياسي والمنهجي والأكاديمي" وتم حظر الكتب.

ولحسن الحظ، سيتغير تدريس التاريخ للأفضل. ففي جنوب إفريقيا، حاولت المدارس منذ نهاية سياسة الفصل العنصري، كجزء من المشروع الوطني للحقيقة والمصالحة، أن تقدم تاريخاً يشمل جميع المواطنين. وفي جمهورية إيرلندا، كان التاريخ

وبشكل مماثل محاطًا بالضغوط السياسية. كانت القصة التي تقرأ في المدارس بسيطة: ثمانية قرون من الاضطهاد ثم انتصار القومية الإيرلندية في عشرينيات القرن الماضي وكان يتم تجاهل الأحداث التي لا تتماشى مع هذه الرواية- على سبيل المثال، الحرب الأهلية بين القوميين المتنافسين. والآن، وكما أشار رئيسها تعلم المدارس نسخة تاريخية أوسع وأشمل- وتعلم الطلاب احتمالية وجود أكثر من رؤية للماضي.

وتمثل المدارس موقعًا من عدة مواقع في أرض المعركة. ففي أستراليا، هاجم جون هاورد والإعلام المحافظ المتحف الوطني وبرروا الهجوم بأن المتحف يقدم الماضي على أنه مذبحة الأستراليين البيض للسكان الأصليين ولا يركز على المستكشفين العظام ورجال الأعمال الذين بنوا الوطن. وتحتل المتاحف، خاصة تلك التي تشمل التاريخ، مكانة مثيرة للاهتمام في أذهاننا. هل هدف هذه المتاحف الاحتفال بأحداث التاريخ أم التعليم؟ هل تجيب على أسئلة أو تثير أسئلة؟ وفي معظم المجتمعات الإجابات غير واضحة. على سبيل المثال، لدى الصينيين ما يمكن وصفه بمتاحف الحرب العالمية الثانية ولكنها تشبه أكثر متحف مدام توسو، متحف الشمع في لندن، أكثر مما تشبه متحف رويال أونتاريو أو المتحف البريطاني. وبدلاً من مجسمات في صناديق زجاجية فإنها تعرض لوحات لجنود يابانيين يطعنون المدنيين الصينيين وأطباء يابانيين منحنين على ضحايا تجاربهم البشعة. وليس واضحًا الفرق بين النصب التذكارية والمتاحف ونتيجة لذلك يرتفع عادة نقاش غاضب عن الماضي وكيف يجب أن يقدم ويفسر.

وفي عام ١٩٩٤م، حين كانت الحرب حول معايير التاريخ الوطني مستعرة، بدأت مؤسسة سمثسونيون (Smithsonian) في واشنطن ترتيب معرض للاحتفال بنهاية الحرب العالمية الثانية. وكان أحد المعروضات قاذفة القنابل ب-٢٩ والتي ألقت القنبلة الذرية على هيروشيما (Hiroshima). وأصبحت إنُلاجي (*Enola Gay*)، سميت باسم

والدة الطيار، محورًا لجدل كبير حين أشار القائمون على المعرض إلى أن الزوار قد يفكرون في مدى أخلاقية استخدام أحدث أسلحة العالم وأكثرها تدميرا. كان يفترض أن يكون جزءًا من المعرض معروضات مهشمة أحضرت من أنقاض مدينتي هيروشيما وناجزاكي (Nagasaki). وعلى الرغم من استشارة المسؤولين عن المتحف لجهات متخصصة ومهمة بما في ذلك جمعيات المحاربين القدامى والمؤرخين الا أن ذلك لم ينقذه من العاصفة.

وحاول القائمون على سيمثسونيون، ربما بسذاجة، استخدام إنُلاجي لإثارة أسئلة عن طبيعة الحرب العصرية ودور الأسلحة النووية فيها. وأملوا أيضاً أن يعرف الجمهور أن قرار إسقاط القنابل النووية على هيروشيما ونجازاكي كان مثار جدل في ذلك الوقت ولا يزال. كان مثل هذا الاستطلاع للرأي تجاه القضايا يسير بعكس رغبة هؤلاء الذين يرون أن سلاح الجو الوطني ومتحف الفضاء اقيما للاحتفال بعظمة الطيران والسلاح الجوي ولدعم الوطنية الأمريكية وليس الهدف منه إثارة النقاش العام. واتهم المحافظون الجدد سيمثسونيون والمؤرخين الليبراليين بأنهم يهاجمون سجل الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية والمجتمع الأمريكي بإشارتهم إلى أن حادثة هيروشيما تستدعي إعادة النظر في أخلاقيتها. ورأت صحيفة الواشنطن تايمز *Washington Times* أن كون القيم الرئيس على المتحف كندي الجنسية وبرفسور سابق شئيا سيئًا. وحقد الجنود القدامى بسبب التعريض بالحرب التي خاضوها وبأن أهدافها لم تكن خيرة تمامًا. واشتملت أول وثيقة للمعرض على جملتين، وألغيت بعد ذلك، واقتبست عدة مرات كمثال على بشاعة سيمثسونيون في إعادة كتابة التاريخ. وبالنسبة لمعظم الأمريكيين، تقول النسخة الأولى، "إن الحرب ضد اليابان كانت مختلفة في أصلها عن تلك التي أعلنت ضد ألمانيا وإيطاليا- كانت حرب انتقام". (كانت مفارقة

قول بعض منتقدي سيمثسونيون بوجوب احتواء العرض على أعمال اليابان الوحشية مثل اغتصاب نانجننق ومسيرات باتان للموت كجزء من العرض). وأسوأ من ذلك، من وجهة نظر المحاربين القدامى ومؤيديهم، أن النص يستمر ليقول إنه كانت بالنسبة إلى معظم اليابانيين حربًا للدفاع عن ثقافتهم الفريدة ضد الامبريالية الغربية". واتهمت مؤسسة الدفاع الجوي الأمريكي المعرض بأنه يدعي وجود معادلة أخلاقية بين الولايات المتحدة واليابان. وتقريبا أسوأ، ربما، من وجهة نظر المؤسسة، "الهجوم الحاد" على قيم القوة الجوية.

وقفز بحماس أعضاء من مجلس الكونجرس والصحف وبرامج الإذاعة اليمينية لاتهام سيمثسونيون بأنها تلوث شرف الولايات المتحدة وابطال حربها. وقال جورج ويل (George Will) إن سيمثسونيون ومعايير التاريخ الوطني كليهما مصابان بـ "عته داخلي ضد أمريكا ". ورأى بات بشنان (Pat Buchanan)، والذي أعلن سريعا ترشحه لحملة الرئاسة الجمهورية لعام ١٩٩٦م، المعرض كجزء من "حملة مركزة على غرس اشمئزاز في النشء الأمريكي تجاه ماضي أمريكا" وقدمت نانسي كاسبوم(Nancy Kassebaum)، وعضو جمهوري في مجلس الشيوخ عن ولاية كانساس، عريضة لمجلس الشيوخ تقول إن نسخة المعرض هجومية وتوجه سلاح الجو الوطني والمتحف إلى عدم الاعتراض على "ذكرى هؤلاء الذين قدموا حياتهم من أجل الحرية". ونظراً لأنها كانت سنة انتخاب، لم يكن هناك أحد على استعداد للتصويت ضد هذه العاطفة. وتراجعت سيمثسونيون تدريجيا، معيدة كتابة الوثيقة والمعارض باستمرار ولكن الهجوم ازداد. وفي يناير من عام ١٩٩٥م الغي العرض. وبعد أربعة أشهر، استقال مدير القوة الجوية الوطنية ومتحف الفضاء.

وحديثاً شهدت كندا جدلاً مشابهًا، ومرة أخرى كان الجدل حول اختيار متحف الحرب الجديد طريقة الاحتفال بذكرى الحرب العالمية الثانية. حين افتتح متحف الحرب الجديد في أوتاوا عام ٢٠٠٥م أشاد الكثيرون به كبناء مذهل يضم معروضات تفصيلية ومنظمة بحيث تظهر كندا في الحرب من بدايتها وحتى حملتها في أفغانستان في القرن الحالي. وبالرغم من ذلك، وتقريبا بعد الافتتاح مباشرة دخل المتحف في مشاكل وخاصة الجزء المكرس لحملة التفجير ضد ألمانيا بين الأعوام ١٩٣٩-١٩٤٥م. وكما ذكرت سابقاً شكلت اللوحة المعنونة بـ "جدل لا ينتهي" إساءة خاصة للمحاربين القدامى ومؤيديهم. واسترعت الاهتمام بالنقاش الدائر حول فعالية وأخلاقية إستراتيجية قيادة الدفاع الجوي الملكي (ورئيسه، السير آرثرهاريس Arthur Harris. "قاذف القنابل")، والتي استهدفت تحطيم قدرة ألمانيا على القتال بتفجير ضخم لأهداف صناعية ومدنية إلمانية. كما استاء المحاربون القدامى من الصور التي تُظهر ألمان مقتولين بين حطام المباني بعد التفجير.

كان من شبه المحتم أن يثير هذا الموضوع مشكلة مع المحاربين القدامى فالعديد من الكنديين -نحو عشرين الفًا - حلقوا مع الطيران الملكي الجوي ومعهم أمر بالتفجير وتقريبا مات عشرون الفًا أيضاً، سبق أن خاض المحاربون القدامى معركة مماثلة منذ عقد من الزمن حين انتفضوا ضد شركة بث كندية حول مسلسل تلفزيوني عرض عام ١٩٩٢م عن المشاركة الكندية في الحرب العالمية الثانية. وأشارت إحدى حلقات مسلسل "البسالة والرعب" *The Valour and the Horror* إلى أن الطيارين الكنديين، بشجاعتهم المعهودة، حملهم رؤساء بلا ضمير على شن حملة تفجير مريبة أخلاقياً. ونظم المحاربون عرائض وحملات ضد البرنامج ومحطة سي بي سي (CBC). وطرح أعضاء محافظون من البرلمان أسئلة عدائية في مجلس العموم. وبدأت لجنة مجلس الشيوخ

الفرعية، الغامضة حتى الآن، جلسات استماع متتالية. وفي صيف عام ١٩٩٣م، رفع مجموعة من محاربي السلاح الجوي قضية ضد مخرجي السلسلة الوثائقية وطالبوا بتعويض مالي كبير عن الخسائر. وقال محامي المحاربين إن المسلسل كان ببساطة عن "السليم والخطأ، والخير والشر، والأبيض والأسود، والحقيقة والكذب". ورفعت القضية إلى المحكمة العليا والتي في نهاية المطاف أقفلت القضية بإلزام المحطة بعدم إذاعة الحلقات.

وبما أن المحاربين القدامى ومؤيديهم كسبوا المعركة، فإنهم كانوا مستعدين جدا لمهاجمة عرض التفجير. وقالت مجلة ليقيون (*Legion Magazine*) في مقال بعنوان حرب مع *المتحف*" استمرت حرب المتحف بشكل قاسٍ ومؤلم مما جعل العديد من الطيارين القدامى يشعرون بأنهم متهمون هم وزملاؤهم الذين سقطوا في أرض القتال ويشار لهم بانعدام الأخلاق وحتى مجرمين–من قبل مؤسسة تنتمي للحكومة التي أرسلتهم في هذه المهام المروعة" وبدأت تصل رسائل متهمة المتحف بأنه يصنف الطيارين الكنديين على أنهم مجرموا حرب. وكرر مرة أخرى، أن هؤلاء الذين شاركوا في الأحداث لديهم رؤية أفضل عما حدث من أولئك الذين درسوه لاحقاً. وكان لدى أوتاوا الرسمية إحساسًا مبالغًا فيه بقوة المحاربين القدامى وعلى استعداد لمحاولة إيجاد تعويض قبل أن تخرج الأمور عن السيطرة. ولإسكات النقد، دعا مدير المتحف أربعة مؤرخين خارجيين (كنت أحدهم) لإبداء رأيهم حول المعرض. ولسوء الحظ، انقسموا في آرائهم، حاول اثنان دعم معايير تخصصهم بالقول نعم كان هناك جدل حول التفجير ولكن العرض كان "غير متوازن". وتساءل أحدهم عما إذا كان ضرورياً إعادة الزوار إلى جدل معقد وكان الأفضل أن يتم بين المتخصصين؟ وأنهى حديثه قائلاً "إذا كنا نحتاج إلى طرح السؤال فإن الجواب هو النفي". أما المؤرخان الآخران فكانا من

مناصري أن تكون المتاحف أماكن للتعليم، وحين يكون هناك خلاف فيجب أن يعلن ذلك وأن "التاريخ يجب ألاَّ يكتب من أجل راحة الجيل الحالي ولكن لتذكيرنا بأن القضايا الإنسانية معقدة"

وأفاقت اللجنة الفرعية من مجلس الشيوخ لشؤون المحاربين القدامى من سباتها المعتاد وأقامت سلسلة من جلسات الاستماع في ربيع ٢٠٠٧م والتي تألق فيها المحاربون القدامى. وأوصى تقريرها متحف الحرب بأن يأخذ خطوات لحل الجدل مع المحاربين القدامى. كما أشار التقرير إلى أنه يجب على المتحف "أن يفكر ببدائل لتقديم رواية تاريخية دقيقة لمعروضاته وبشكل يمنع الشعور بالإساءة التي شعر بها فريق طيران المحاربين القدامى ويلغي احتمالات وجود تفسيرات خاطئة مستقبلاً من الجمهور". وسريعًا وضح المقصود. غادر مدير المتحف في ظروف غير واضحة حتى الآن، وتبعه إعلان المتحف أنه سوف يعمل على إعادة الكتابة للمعرض بالتعاون مع المحاربين القدامى. وكان كلف تشادرتون (Cliff Chadderton)، رئيس المجلس الوطني لجمعيات المحاربين القدامى في كندا، لئيمًا في انتصاره "لا نعرف لماذا تأخروا، لأن نص اللوحة خطأ واضح، " ووعد بمزيد من المشاكل إذا لم تعجبه مراجعة الكتابة هو ومحاربوه.

ولدى كندا، مثل العديد من الدول الأخرى، نصيبها من الجدل حول إجازاتها العامة. اعترض الكثيرون حين تغير اسم دومينيون دي (Dominion Day)، وهو احتفال يعود إلى بداية كندا كحكومة ذاتية داخل الإمبراطورية البريطانية، وسمي يوم كندا في عام ١٩٨٢م. بينما جادل آخرون، بما أن كندا قطعت آخر ارتباط رسمي مع المملكة المتحدة الآن، فإن الاسم الجديد مؤشر على الاستقلال التام. وفي الولايات المتحدة، اثار اسم يوم ذكرى كولومبس مشكلة أكبر في السنوات الماضية. وفي الأصل كان الهدف منه الاحتفال باكتشاف (وحتى كلمة اكتشاف هي موضع جدل الآن) العالم

الجديد (مصدر آخر للجدل). العالم الذي اكتشفه كريستفر كولومبوس (Christopher Columbus) في اكتوبر من عام ١٤٩٢م والآن تثير هذه الكلمة الأمريكيين الأصليين- الذين يرون أن مجيء كولومبوس كان سيئاً لهم وأن كولومبوس مجرم وقاتل-وهذا يخالف موقف الأمريكيين الإيطاليين الذين يتبنون وجهة نظر مخالفة. أيضاً هوجو شافيز (Hugo Chavez) الفنزويلي، الذي لم يكن يتورع عن الانحياز إلى أي حزب سياسي إذا عرف أن ذلك سيضيف لشعبيته وأيضاً سيغضب الولايات المتحدة، أعاد تسمية العطلة في بلده وأطلق عليها يوم مقاومة السكان الأصليين. كما أن الذكرى الخمسمائة لوصول كولومبوس إلى جزر الكاريبي كانت معقدة بشكل خاص. وفي الاحتفال الذي سبق عام ١٩٩٢م، اجتمع ثلاثمائة شخص من السكان الأصليين الأمريكيين في كويتو (Quito) للحديث عن خمسمائة عام من المقاومة. وفي الولايات المتحدة، حاول المجلس الوطني البروتستانتي للكنائس القيام بالتدخل وحل النزاع بالحديث عن الغزو والتطهير العرقي والرق و"الإبادة البيئية" واستغلال الأراضي وأن ذلك إرث كولومبوس الحقيقي. وقامت إدارة ريغان، والتي تتطلع لهذه المعركة تحديداً ضد قوى التصحيح السياسية، بسرعة بإعادة تسمية الاحتفال الرسمي وأسمته يوبيل وليس احتفالاً. ولم يوقف ذلك اتهام المحافظين لليبراليين في الجامعات وأماكن أخرى بكره الولايات المتحدة إلى حد رغبتهم بإنكار جذورها الأوروبية.

وكلما كان الماضي معقداً كلما كان الاحتفال بالذكرى صعبًا. لم تستطع ألمانيا الغربية، كما كانت تعرف آنذاك، أن تقرر كيف تحتفل بمرور مائتي عام على موت فريدريك العظيم (Frederick the Great). هل تتذكر الرجل العالم أو العسكري؟ هل كان رمزًا للنهضة أو منذرًا بمجيء هتلر؟ وفي فرنسا كان هناك شبه إجماع في عام ١٩٨٩م على الاحتفال بمرور مائتي عام على قيام الثورة الفرنسية. ولكن ماذا تعني

الثورة؟ هل يُحتفل بها من أجل الحرية، أو المساواة؟ أو الإخاء، أو استنكار الرعب؟ واختلف اعضاء اللجنة التي يفترض أن تكون مسؤولة عن الاحتفال بين بعضهم ومع الحكومة أيضاً. وفي النهاية، تولى مهمة الاحتفالات الوطنية مدير حفلات ونظم مسيرة رائعة وغير مألوفة عبر باريس-مهرجان قبائل الكوكب. ضمت الرقصة الأمريكية فنكي تشكن والطبول الإفريقية ومسيرة الجنود الروس فوق جليد صناعي والطلاب الصينيين يسحبون طبلاً ضخمًا ومسيرة فرقة من فلوريدا، وتساءلت مجلة النيوزويك عما إذا كان يجب أن يكون شعار فرنسا الجديد "الحرية، الإخاء، المفارقة؟".

وإذا كان من الصعب على الفرنسيين الاتفاق على أهمية الثورة الفرنسية فإن الكثير من تاريخ فرنسا يفتقر إلى الإجماع. ماذا عن نابليون؟ هل هو بطل قومي ؟ أو كما اتهمه حديثاً مؤرخ فرنسي بأنه دكتاتور عنصري؟ وهل يجب الاحتفال بالمناسبات المهمة مثل انتصاره في معركة أوسترلاتيز كما احتفل البريطانيون بالذكرى المائيتين لمعركة الطرف الأغر أو يتركونها تمر بصمت؟ وكيف يجب أن تقدم المدارس الفرنسية تاريخ الاستعمار الفرنسي في الجزائر؟ قدمت لسنواتٍ الحرب الوحشية بين الوطنيين الجزائريين في جانب والمستعمرين الفرنسيين والجيش الفرنسي في الجانب الآخر وقلل من وحشيتها بتسميتها رسمياً "الأحداث".

ولم يصبح استخدام التعذيب المنتشر والرسمي ضد الجزائريين موضوع رأي عام إلا عام ٢٠٠٠م فقط حين دافع عنه علنا الجنرال بول أوسيرس (Paul Aussaresses)، والذي كان ضابط مباحث برتبة عالية أثناء حرب الجزائر، (وأوصى بعد أحداث ١١ سبتمبر باستخدام أساليبه على القاعدة). وفي عام ٢٠٠٥م أجازت الحكومة قانونًا ينص على وجوب الاعتراف في الكتب التدريسية بـ"الدور الإيجابي للحضور الفرنسي في مستعمراته وراء البحار وخاصة شمال إفريقيا". في البداية اعترض بعض المؤرخين ضد

هذه المحاولة تجاه تاريخ رسمي، ولكن حين هزت الشعب أعمال شغب قام بها مراهقون ينحدرون من شمال إفريقيا- تصدر الموضوع الصحف والجمعية الوطنية الفرنسية.

كان من الصعب على الفرنسيين التعامل بشكل خاص مع جناح اليمين، الذي تعاون مع نظام فتشي وحكم ما بقي من فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية. بقي الفرنسيون لفترة طويلة بعد العام ١٩٤٥م يطمئنون أنفسهم برواية تتجاهل حجم العون الذي قدمه الشعب الفرنسي لحكومة فتشي وأيضاً حماسه للتعاون غالبا مع النظام النازي. حين وصل الجنرال شارل ديجول (Charles de Gaulle)، قائد فرنسا الحرة، منتصراً إلى فرنسا أعلن أن فيشي "خارج التاريخ وليس لها نتائج" ويمثل فرنسا الحقيقية قواتها والمقاومة. وسيستمر الفرنسيون في إعادة بناء وطنهم العظيم بينما يجب معاقبة الأقلية الفرنسية التي تعاونت مع الأعداء. وسمحت الأسطورة، وهذا هو المسمى الأقرب للحقيقة، للفرنسيين بنسيان رضا رجال الشرطة الفرنسيين بالقبض على اليهود وإرسالهم إلى مخيمات الموت. ونسيان العدد الصغير نسبياً الذي انضم للمقاومة والعديد من ضباط النظام القديم الذين تعاونوا على إنجاز ذلك، ومع ذلك سمح لهم بالاستمرار في وظائفهم بعد العام ١٩٤٥م. وقامت الحكومة بمحاولة بسيطة للإمساك بمجرمي حرب فرنسا ومحاكمتهم مثل كلاوس باربي (Klaus Barbie) "سفاح ليون". وفي الواقع، حصل البعض على حماية من الكنيسة أو من سياسيين في مناصب عليا. ولم يُجرَ أي تحقيق مع أحد حتى تسعينيات القرن الماضي، وادعاء فرانسوا ميتران (Francois Mitterrand)، رئيس فرنسا ١٩٨١-١٩٩٥، بأنه عمل مع حكومة فيشي لفترة قصيرة قبل أن ينخرط في المقاومة. وفي الواقع، وكما اكتشف صحفي جريء فان ميتران عمل فترة أطول من الفترة التي أقر بها وحاز على وسام.

كانت الطريقة التي تصالحت فيها فرنسا مع ماضيها الفاشي مؤلمة. في البدء، كان المؤرخون الأجانب هم من بدأ بمراجعة تلك المرحلة. ورفض التلفزيون الفرنسي عرض الفلم الكلاسيكي الوثائقي *"الحزن والشفقة" The Sorrow and the Pity* للمخرج مارسيل أوفلس (Marcel Ophuls) والذي قدم صورة أقرب للحقيقة عن حكومة فيشي وحطم أسطورة المقاومة العريضة. وحين سمح بعرضه في عام ١٩٧١م هاجمه اليمين واليسار على حد سواء. ووجده جان-بول سارتر(Jean-Paul Sartre) "غير دقيق". وأنب معلق محافظ في اللوموند*Le Monde* اليهود الذين قابلوهم في الفلم لجحودهم وانتقادهم رئيس حكومة فيشي، مارشال بتين(Marshal Petain)، والذي، كما ادعى المعلق، أنقذهم. وفي سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، كان هناك نقاش عام متزايد، مع ظهور أفلام وكتب أخرى. ولكن لم يستطع الرئيس الفرنسي الجديد، جاك شيراك، قبل نهاية القرن العشرين، أن يقر بأن فرنسا ساعدت في الهولوكوست إلا بعد أن خرج ميتران والعديدون من أبناء جيله من الصورة.

وفي روسيا، كان التحول من شكل حكومي لآخر أكثر حدة، وصارعت الحكومات بعد حل الاتحاد السوفيتي، بنجاح محدود، لإنشاء هوية روسية مستخدمة التاريخ. يقول الروسيون " نعيش هذه الأيام في بلد من الصعب التنبؤ بماضيه". ومع أنه من الواضح أن النظام الجديد لا يريد الاحتفال بذكرى الثورة البلشفية في السابع من نوفمبر ١٩١٧م، إلا أنه لا يريد أيضاً تنفير المواطنين بإلغاء يومي العطلة. وحين كان بوريس يلتسين (Boris Yeltsin) في الرئاسة، أبقى العطلة ولكنه أسماها "يوم الاتفاق والمصالحة". وبقي أغلبية الشعب يجهلون كل شيء عن هذا التغيير. وفي عام ٢٠٠٥م، قام بوتين بتقديم العطلة يومين لتصبح في الرابع من نوفمبر وسماها "يوم الاتحاد الوطني" وكان تقديم التاريخ من أجل الاحتفال بطرد

روسيا للغزاة البولنديين في عام ١٦١٢م. ولا زال الشعب يجهل مناسبة الاحتفال، ماعدا المتطرفين القوميين منهم.

ولا تبدي روسيا الحالية حتى الآن اهتمامًا بذكرى فترة حكم ستالين المرعبة. ويوجد عدد قليل من المتاحف أو المواقع الرسمية التي تشير إلى معتقل سيبيريا أو الآلاف المؤلفة الذين ماتوا في سجون ستالين، والقليل من النصب التذكارية للأفراد والأبطال، مثل أندري سكاروف (Andrei Sakharov)، الذين عارضوا الدولة السوفيتية.

وليست روسيا الدولة الوحيدة التي تريد أن تغمض عينها بقوة عن الفترات المؤلمة من الماضي. فالولايات المتحدة لم تقم - بعد مرور عشر سنوات من حرب فيتنام - بعكس الوضع في الحروب السابقة، بوضع نصب حرب رسمي للجنود القتلى. وخجلت الحكومة الأمريكية حين قام المواطنون بوضع واحد فخصصت الحكومة مساحة لذلك في مركز التسوق بواشنطن.

وفي أسبانيا، حين بدأ تجذر الديموقراطية تدريجياً في البلاد بعد موت الجنرال فرانكو عام ١٩٧٥، كان هناك اتفاق صامت-"اتفاق النسيان"-لنسيان بشاعة الحرب الأهلية وسنوات القمع التي تلتها. وفي العقود القليلة الماضية، بدأ الكتابُ والمؤرخون وصانعو الأفلام باستكشاف أهوال الحرب وفي نوفمبر ٢٠٠٧م صدر قانون الذاكرة التاريخية. من أجل أن يكون هناك جهد وطني لإيجاد القبور الجماعية، وتحديد عظام الذين قتلهم جنود فرانكو المنتصر. كان هناك تبرؤ رسمي من نظام فرانكو، وقولٌ بأنّه سوف يمحى، بقدر الإمكان من الاحتفالات العامة. سوف تختفي تماثيل فرانكو وتتغير أسماء الشوارع والميادين. وليس محتملاً أن يقدم القانون اتفاقًا على ماضي أسبانيا. وإذا كان هناك شيء آخر، فإنه توسيع الانقسامات القديمة، وإنشاء أخرى جديدة. "ماذا سنكسب؟" طرح هذا التساؤل مانويل فراقا (Manuel Fraga)، عضو مجلس الشيوخ

ووزير سابق في حكومة فرانكو والذي ساعد في التحول إلى الديموقراطية. " انظر إلى البريطانيين، كر ومويل "Cromwell" قطع رأس ملك ؛ ولكن تمثاله لا يزال موجودًا خارج مبنى البرلمان، لا يمكنك تغيير الماضي". ولنكون منصفين دفع المنتصرون في الحرب العالمية الثانية بمواطني الدولتين، ألمانيا واليابان، إلى تذكر الماضي القريب. ومباشرة بعد الحرب، كان الألمان، مثلهم مثل بقية الأوروبيين، مشغولين بالبقاء وإعادة البناء ولم يكن لديهم ميل كبير أو طاقة للتفكير بالماضي. وربما أيضاً لأن هزيمتهم كانت كبيرة وكان الماضي النازي بشع (وتواطؤهم مع هتلر قوي) لجؤوا إلى النسيان والصمت. وفي خمسينيات القرن الماضي، كان هناك قلة من الألمان الذين يودون مناقشة النازية أو تذكير بعضهم بمشاركته في ذلك النظام. وباستثناء كتاب آن فرانك *يوميات فتاة صغيرة* Anne Frank's *Diary of a Young Girl*، والذي بيع بشكل جيد، لم تجذب الاهتمام عشرات الذكريات التي كتبها ناجون من معسكرات الاعتقال والمقالات القليلة عن الذنب الألماني. ولم يكن الصمت عن الماضي صمتًا تامًا، كان هناك دائماً كُتاب ومفكرون جاهزون لطرح أسئلة محرجة، ولم يستطع الألمان التخلص تمامًا من نتائج خضوعهم لهتلر حيث احتل أولاً وطنهم ثم قسم هذا الوطن إلى دولتين مستقلتين. بالإضافة إلى أن ألمانيا الغربية، دفعت بمبادرة من المستشار كونراد أدنور (Konrad Adenauer)، تعويضات لإسرائيل (١١٪ فقط من الألمان في ذلك الوقت رأوا أنه قرار سليم).

ولم تبدأ ألمانيا الغربية بمراجعة عميقة لماضيها إلا في نهاية خمسينيات القرن الماضي. في عام ١٩٦١م، كشفت محاكمة أدولف إيشمان (Adolf Eichmann) في القدس "عن تفاصيل البيروقراطية التي تعاملت فيها الدولة النازية في إبادة اليهود" وتبع تلك المحاكمة محاكمات أخرى في ألمانيا الغربية، وبدأ جيل أصغر وأكثر تطرفًا يطالب بحقيقة

الماضي. وحين عرض مسلسل التلفزيون الأمريكي "هولوكوست" على التلفزيون الألماني في عام ١٩٧٩م شاهده نحو نصف الشعب من البالغين. والآن تقف ألمانيا المتحدة كمجتمع يتعامل مع ماضيه – غالباً - بطرق واضحةٍ جدًا. وفتحت متاحف معسكرات الاعتقال، ويذهب أطفال المدارس لزيارتها. وفي برلين يمثل النصب الوطني لضحايا الحرب والاستبداد وانقاض كنيسة ذكرى القيصر وليم (Kaiser Wilhelm) التي خلفتها القنابل، والنصب التذكاري للهولوكوست ذكرى وطنية بينما تنتشر في جميع المدن الألمانية متاحف ونصب تذكارية لذلك.

وأثناء الحرب الباردة، حين كان الألمان الغربيون يواجهون ماضيهم النازي، كان الألمان الشرقيون يتجاهلونه. واستطاعت الدولة الشيوعية في ألمانيا الشرقية من التحلل من جميع الروابط أو المسؤولية عن فترة النازية. وقيل أن هتلر والنازيين يمثلون آخر مرحلة من الرأسمالية. فهم الذين بدأوا الحرب وقتلوا ملايين اليهود والأوروبيين الآخرين. كانت ألمانيا الشرقية اشتراكية ومتقدمة، ووقفت دائماً بجانب الاتحاد السوفيتي ضد الفاشية. والواقع، أن هناك عددًا كبيرًا من الألمان الشرقيون نشؤوا وهم يظنون أن بلادهم حاربت بجانب السوفييت في الحرب العالمية الثانية. وعلى الرغم من أن النظام في ألمانيا الشرقية أنشأ ثلاثة نصب تذكارية لمعسكرات الاعتقال، إلا أن الموتى الذين يذكرون هم الشيوعيون ولا يوجد ذكر لليهود والغجر.

وفقدان الذاكرة لدى النمسا أكثر إثارة للانتباه. استطاعت النمسا -وبنجاح- في العقود التالية للحرب العالمية الثانية – أن تقدم نفسها كأول ضحية للنازية. وفي احتفال ذكرى وفاة الجنود السوفييت في عام ١٩٤٥م في فينا، اشتكى ليبولد فيجل(Leopold Figl) (الذي أصبح بعد ذلك بوقت قصير مستشاراً للدولة) قائلاً " قضى شعب النمسا سبع سنوات قابعًا تحت بربرية هتلر". واطمأن النمساويون للعقود التالية بمثل هذا التأكيد.

كانوا شعبًا سعيداً ورقيقاً ولم يرغبوا أبداً بأن يرتبطوا مع نظام مثل النظام الألماني النازي، أجبرهم هتلر على الانضمام له في العملية العسكرية آنشلوس، ولكنهم لم يرغبوا مطلقا بالحرب. وإذا كان جنودهم حاربوا فإن ذلك كان للدفاع عن وطنهم. ويجب القول بأنهم عانوا على يد الحلفاء فهم الذين دمروا دار الأوبرا الرائع في فينا "ونسي ببساطة أن معظم المتحمسين النازيين - بما في ذلك هتلر - كانوا نمساويين. والجموع المتحمسة التي حيته في مسيرة النصر إلى فينا في عام ١٩٣٨م وكذلك مشاركة العديد من النمساويين في القبض على اليهود وتدميرهم. ووجد الليبراليون القليلون الجريئون الذين حاولوا أن يحتفلوا بالمقاومة النمساوية الصغيرة ضد النازية، وإحياء ذكرى تدمير اليهود أنفسهم معزولين ومتهمين بالشيوعية. ولم تظهر أسئلة على السطح عن دور النمسا حتى ستينيات القرن الماضي، حين ظهر الجيل الجديد على المسرح ومراجعة ألمانيا لماضيها النازي.

وغالباً ما تشبه شناعة اليابانيين بالألمان، وخاصة من قبل الصينيين. وتتهم اليابان بأنها لم تقر بذنبها في غزو الصين في ثلاثينيات القرن الماضي، ودورها في شن حرب المحيط الهادي، والمعاملة الوحشية لأولئك الذين سجنوهم، بدءًا من اغتصاب نانجنج إلى التجارب الطبية غير الإنسانية في منشوريا. وهذا الاتهام يحمل الكثير من الحقيقة لجعله يلتصق باليابانيين. وأظهرت اليابان نفسها كما فعلت النمسا، كضحية في السنوات التالية للحرب "واستخدمت في جزء من ذلك تفجير هيروشيما وناجازاكي لتشتيت الانتباه عن جرائمها. وكان تقديم التعويضات بطيئاً، فمثلاً: أجبرت النساء الكوريات على ممارسة الدعارة للترفيه عن الجنود اليابانيين، كما قدم رؤساء الوزارة المتعاقبين احترامهم لضريح يسكول شراين Yasukuni Shrine، والذي أقيم لتكريم قتلى الحرب اليابانيين بما في ذلك القادة المدانين بجرائم حرب.

وعلى الجانب الآخر، يدور هناك نقاش عام حول كيفية التعامل مع الجوانب الصعبة من الماضي. وفي خمسينيات القرن الماضي، نشرت سلسلة من الكتب والمقالات، والعديد منها كتبها شهود عيان ومشاركون في الأحداث، وتؤكد هذه الكتب والمقالات على ارتكاب الجنود اليابانيين لأعمال وحشية. وليس صحيحًا ادعاء الصينيين المحبب من أن الطلاب اليابانيين لا يعرفون ما حدث في الحرب. (أيضاً يأتي هذا الاتهام من دولة يحظر مراجعة أجزاء كاملة من تاريخها مثل موضوع الثورة الثقافية). وبحلول سبعينيات القرن الماضي -على سبيل المثال- تذكر الكتب التدريسية اليابانية مجزرة نانينج، وتعطي أرقاماً للقتلى. وبالنسبة للعديد من اليابانيين كان ذلك العقد من الزمن علامة تحول لدولتهم من كونها ضحية إلى معتدية. وفي ثمانينيات القرن المنصرم، حين حاول القوميون التقليل من شراسة اليابانيين ووحشية الحرب أدت تلك المحاولات إلى ردة فعل غاضبة من الليبراليين، ودار جدل عام واسع النطاق. وبدأ الباحثون بتوسيع بحوثهم لتشمل الجوانب الغامضة من الحرب. وفي ديسمبر من عام ١٩٧٧، في ذكرى مجزرة نانجنج، كانت هناك مسيرة لمواطنين، وشملت تلك المسيرة زيارة باحثين صينيين وألمان، عبر شوارع طوكيو خلف فانوس خاص يحمل العبارة "لنتذكر" باللغة الصينية.

يفرز التاريخ عادة خلافات، ولكنه أيضاً يساعد في تقديم المصالحة. كان هدف لجنة الحقيقة والمصالحة في جنوب إفريقيا والتشيلي كشف الماضي بكل مساوئه، والسير قدما. وهذا لا يعني التفكير في معاناة الماضي، أو أخطاء الماضي إلى درجة إقصاء الأمور الأخرى ؛ ولكن يعني قبول أنها حدثت، ومحاولة تقييم معناها. وحينما كان جون هاورد يحاول تأسيس منهج تاريخي وطني في أستراليا، وصفت مديرة مدرسة فتيات ثانوية في سدني كيف تعاملت مع قصة حولها جدل عن وصول البيض لأول

مرة "ناقشنا جميع مصطلحات المستعمرة البيضاء: الاستعمار، والغزو، والتطهير العرقي" والسبيل الوحيد لنضج المجتمعات وبناء جسور مع الآخرين يكون مراجعة الماضي بأمانة، سواءً أكان مؤلمًا للبعض أم لا.

وفي عام ٢٠٠٦م، أصدر العدوان اللدودان (ألمانيا وفرنسا) كتباً تدريسية مشتركة، والتي سيستخدمها الطلبة في الدولتين. وعلى الرغم من أن هذه الكتب عن فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية فقط، فإن الخطة طويلة المدى هي إنتاج كتب تعليمية تتناول مواضيع أصعب للفترة السابقة لعام ١٩٤٥م. وفي الشرق الأوسط، يعمل سامي عطوان (بروفيسور فلسطيني في جامعة بيت لحم) مع عالم إسرائيلي (دان بارون Dan Bar-On) في وضع كتاب يستخدمه طلاب المدارس الثانوية الفلسطينيون والإسرائيليون. وأهدافهما أكثر تواضعًا من تلك الفرنسية الألمانية، فهما فقط يأملان بأن يشمل المنهج -جنبًا إلى جنب- تاريخين وطنيين مختلفين، وأيضاً حالات للتعاون والسلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين، بدلاً من القصص المنتشرة عن صراع دائم. ومع هذا، يأملان أن يساعد هذا الكتاب أيضاً في بناء فهم متبادل، والذي بدوره سيكون له أهمية أكبر على المدى الطويل. وقال البروفيسور عطوان في مقابلة معه: "من أجل أن يفهم الأطفال الفلسطينيون والإسرائيليون أنفسهم يجب أن يفهموا الآخر، لن يكتشفوا إلى أي مدى هم مهيؤون حقيقة لفهم الآخر، إلا بعد أن يفهموا قصة الآخر وبالتالي يكونون متهيئين لإجراء تغييرات في قصتهم". وللأسف - حتى الآن - أبدى حفنة فقط من المدرسين من الجانبين، اهتمامًا باستخدام الكتاب.

والمواقف العامة التي تعترف بالماضي يمكن أن تساعد في التئام الجروح بين الدول. أثَّر في الرأي العام المستشار ويلي براندت (Willy Brandt) كثيراً، في أول زيارة لقائد من ألمانيا الغربية إلى بولندا، حين جثا على ركبتيه أمام نصب جيتو وارسو. وفي عام

١٩٨٤م، اجتمع ميتران وهلموت كول (Helmut Kohl) (المستشار الألماني) في فيردن (منطقة حدثت فيها أطول وأبشع معركة بين بلديهما في الحرب العالمية الأولى) للاحتفال بمستقبل أوروبا الموحدة. كما بنت الدولتان متحف حرب مشترك في بيرون (Peronne) التي كانت مركز العمليات لمعركة سوم (Somme). وصمم المتحف ليظهر الحرب كظاهرة أوروبية وتأكيد الحاجة إلى اتحاد أوروبا اليوم.

والاعتراف بجرائم الماضي قد يقتل أحيانا مثل تناول دواء قوي. فمثلا لم يستطع الاتحاد السوفيتي تحمل سياسة ميكائيل جورباتشوف (Mikhail Gorbachev)، المنفتحة والشفافة، بفتح نقاش عن الماضي الستاليني، حيث أدى الكشف عن ضحايا معتقل سيبيريا وستالين إلى فقد العامة ثقتها بجميع النظام، الذي استطاع القيام بمثل هذه الجرائم. ودمر أيضاً قبضة السوفييت على أوروبا الشرقية حين اعترف الاتحاد السوفيتي في ثمانينيات القرن الماضي، بعد سنوات من الإنكار، أنه اتفق بالفعل سراً مع هتلر على تقسيم الدول التي تقع بينهما، وأن جيشه قتل جنوداً بولنديين بعد استسلامهم في عام ١٩٣٩م. (والآن، يتراجع الإعلام الروسي عن ذلك الاعتراف ويعود إلى الاتهام القديم الكاذب بأن جرائم القتل قام بها النازيون). بعد ذلك، قد يتساءل الشخص: هل يجب أن يبقى مثل هذا النظام ومثل هذه الإمبراطورية؟

الفصل الثامن

حين يكون التاريخ مرشداً
HISTORY AS A GUIDE

وكما رأينا سابقاً يستخدم التاريخ كثيراً، ولكن هل هذا الاستخدام مفيد؟ انقسمت الآراء تجاه ذلك منذ أمد طويل، منذ القرن الخامس قبل الميلاد، حين أعلن ثيوسددز (Thucydides) أن الماضي يساعد في معرفة المستقبل. واعتبره إدواردجيبون (Edward Gibbon) "تسجيل الجرائم والحماقات ومصائب الإنسان". أما أ.ج. تيلور (A.J.P. Taylor) فكعادته في عدة قضايا، فقد خالف هذا الرأي، ويعتقد أن التاريخ تمرين ممتع وليس بذي فائدة فيماعدا فهم الماضي. ولكنه "بالطبع" يقول: "يمكنك أن تتعلم مواضيع محددة مثل: أن الجميع يموت، أو أنه في يوم ما ستفشل الضوابط في الردع". وربما من الأفضل أن نسأل هل سنكون في وضع أسوأ لو أننا لا نملك أي معرفة بالتاريخ على الاطلاق؟ وأعتقد أن الجواب المحتمل هو نعم.

وبدأ التاريخ يساعدنا في فهم ما يلي: أولاً: هؤلاء الذين يجب أن نتعامل معهم. ثانياً: - وهو بذات الأهمية- فهم ذاتنا. وكما قال عن ذلك المؤرخ الأمريكي لويس جادس (John Lewis Gaddis): من أن "التاريخ يشبه النظر في المرآة الخلفية للسيارة، إذا نظرت فقط إلى الخلف فإنك ستقع في الحفرة، ولكنها تساعد في معرفة من أين أتيت،

ومن معك على الطريق ". وأحد الأسباب التي جعلت الحرب الباردة خطيرة جداً على الطرفين، أنهما ببساطة لم يفهما بعضهما. فهم الأمريكيون خطبَ وتصريحاتِ السوفييت على ظاهرها، وأخذوا على وجه التأكيد أن قادتهم يريدون السيطرة على العالم، وافترض الشيوعيون -سواء سوفييت أو صينيون- أن الدول الرأسمالية كالولايات المتحدة وبريطانيا، ستصل حتما إلى مرحلة الانفجار في صراعها العنيف والمتزايد من أجل تحقيق الربح.

أما مايكل هاورد (Michael Howard) ، مؤرخ بريطاني عسكري، فهو يشعر باليأس من الموقف المنتشر في واشنطن، تجاه الكثير من نواحي الحرب الباردة، وكان ينظر في الولايات المتحدة إلى الاتحاد السوفيتي كقوة شر كونية، ويمكن التكهن بسياساتها وأهدافها والتي يمكن وصفها ببساطة: بمضاعفة العقيدة الماركسية بالقدرة الحربية السوفييتية . وفي الواقع، العديد من أهداف السوفييت هي أهداف روسية تقليدية، فرضها الواقع الجغرافي والتاريخي. روسيا تملك القليل من الحدود الطبيعية، وعانت من غزوات متكررة، وبحثت حكومتها دومًا عن منطقة عازلة، لحماية القلب الروسي. وحين انتهز ستالين الفرصة ليتحرك إلى داخل أوروبا الشرقية- في نهاية الحرب العالمية الثانية -كان مدفوعًا بالرغبة بتحقيق الحماية، وأيضاً بالأيديولوجية والكرامة الوطنية (الكرامة الوطنية الروسية)؛ ولأنه ينحدر من جورجيا. وأنشأ خلال الحرب أوسمة عسكرية جديدة، ولم يسمها بماركس أو لينين، بل بأسماء الجنرالات والأدميرالات البحرية القيصرية العظام. وفي إحدى الليالي في نهاية الحرب بعد تناول العشاء مع أصدقائه المقربين، وضع ستالين الخريطة على المائدة، وأشار بسعادة إلى الأراضي القيصرية القديمة التى استعادها.

كما افترض الخبراء الإستراتيجيون الأمريكيون أن الكرملين مستعد للمخاطرة بحرب مدمرة، لبلوغ أهدافه. وفي الواقع -إذا عرفنا حجم الخسارة الكبيرة التي دفعها الاتحاد السوفيتي في الحربين، والعمل الجبار لإعادة البناء بعد عام ١٩٤٥م -فمن الأرجح أيضاً أن القيادة الروسية ستفعل الكثير لتجنب الحرب. ونعرف الآن أن الوضع كان كذلك. حين نصب نيكيتا خروشوف (Nikita Khrushchev) رؤوس صواريخ نووية في كوبا عام ١٩٦٢م، فإن جزءًا من دافعه لفعل ذلك إثارة مخاوف أمريكا من هجوم مباشر وتدمير أرضها، وهو شعور يعرفه السوفييت جيداً. وحين سحبها كان بسبب عدم رغبته في خوض حرب جديدة أشد دمارا من الحربين السابقتين واللتين استطاع الصمود فيهما.

وفي عام ١٩٤٩م، حينما انتصر الشيوعيون في الصين، كان الأمريكيون يعرفون الكثير عن الصين أكثر مما يعرفون عن الاتحاد السوفيتي، ومع ذلك لم يفهموا الوضع. تغلبت وجهة نظر المتشائمين -الذين يعتقدون أن الشيوعيين الصينيين وضعوا أنفسهم تحت سلطة نظام ستالين-على وجهة نظر القلة من المتخصصين في شؤون الصين - والذين أشاروا إلى أنه بالنظر إلى اختلاف التاريخ والثقافة بين البلدين فمن المرجح سقوط القوتين الشيوعيتين بعد فترة من الزمن -كما تنبؤوا بأن ماو سيكون تيتو (Tito) آسيا (كان القائد الشيوعي اليوغسلافي قد سقط للتو مع ستالين بشكل مفاجئ). وبالفعل هذا ماحدث بعد عقد من الزمن. وحين حدث الانقسام الصيني-السوفيتي، لم يستطع المتعنتون في الغرب تصديقه، وقالوا: إن الاتهامات المتبادلة علنا بين بكين وموسكو، دليل على الازدواجية غير الطبيعية، ومراوغة الشيوعيين.

أيضاً عادة لا يقرأ الشيوعيون الغرب جيداً، على الرغم من سهولة الوصول إلى المعلومات. توقع السوفييت أن تحاول القوى الغربية تدميرهم . أليس هذا مافعلوه حين

أرسلوا جنوداً للتدخل في الحرب الأهلية الروسية؟! وفي الواقع، كان التدخل الغربي فاترا، على الرغم من كونه مدعومًا بصخب أشخاصٍ مثل: ونستون تشرشل. وفي نهاية الحرب العالمية الأولى، كان هناك القليل من الشجاعة، لخوض مغامرات عسكرية متقدمة في دول مثل: بريطانيا وفرنسا. كان الوهج الماركسي قويًّا، وقوّى أفكارهم المسبقة ماعرفوه عن الغرب وتاريخه. وحتى الدبلوماسيين السوفييت الشباب، لم يكن مسموحًا لهم إلا بقراءة الصحفِ الشيوعية فقط من الصحف الغربية. وقد تستمر الإمبريالية بطحن العمال، كما فعلت دائمًا، وستكون هناك ثورات في النهاية، في بلدان مثل المملكة المتحدة والولايات المتحدة. ولا يتعدى الحديث عن الديموقراطية والرأي العام، أو حكم القانون في مثل هذه الأماكن كونه مجرد حديث. وحين أثار الرؤساء الأمريكيون-منهم جيمي كارتر (Jimmy Carter) وبيل كلينتون - قضايا حقوق الإنسان رأى القادة الشيوعيون في ذلك تدخلاً في شؤونهم الداخلية.

لا يستطيع الشخص فهم قيم ومخاوف وآمال أي شعب، أو كيف يمكن أن يتفاعلوا مع ما يفعله، إلا إذا عرف الشخص تاريخ هذا الشعب. ومن الخطأ افتراض أن الآخرين يماثلون تفكيرك وطريقة حياتك. أمضى روبرت مكامارا (Robert McNamara) معظم حياته محاولا أن يعرف أين يكمن الخطأ الذي ارتكب في حرب فيتنام. وفي مذكراته، -لاحقا- قدم دروسا يؤمل أن يراعيها قادة المستقبل. قال في أحدها: "نظرنا إلى شعب وقادة جنوب فيتنام من منطلق تجربتنا، رأينا فيهم عطشاً وإصراراً على ا لقتال؛ من أجل الحرية والديموقراطية". وفشلت الولايات المتحدة أيضاً في فهم عزيمة شمال فيتنام. ومرة أخرى، افترضت الولايات المتحدة أنه يمكنها زيادة المعاناة التي يعيشها الشمال إلى الدرجة التي يكون فيها على القادة المقارنة بين الضرر والفائدة، ويرون أنه آن الآوان للاستسلام. ومع ذلك كان هذا الشعب هو الذي حارب فرنسا سبع سنوات حتى

انهزامها وأنهى مكمارا بحزن بأن "سوء تقديرنا للصديق والعدو متماثل" و"يعكس جهلنا العميق بالتاريخ وثقافة وسياسة الناس في المنطقة وجهلنا بالشخصيات وطبائع قادتهم".

ويبدو أن البيت الأبيض لم يستوعب الدرس جيداً في عهد الرئيس بوش، وقال مستشار قديم بازدراء وذلك في حديثه للصحفي رون سوسكند (Ron Suskind) في عام ٢٠٠٢م "يعتقد الشخص أنه يدرس الواقع " وأكمل "ليست هذه الطريقة التي يعمل فيها العالم الآن" واستطرد "الآن نحن إمبراطورية وحين نتصرف فإننا نصنع واقعنا نحن. بينما أنت تدرس ذلك الواقع -بتروي كما ستفعل- وسوف نتصرف مرة أخرى، منشئين واقعاً آخر، وتستطيع دراسته أيضاً، وهكذا تفهم الأمور. نحن منفذو التاريخ . . . وأنتم جميعكم، ليس لديكم خيار سوى أن تدرسوا ما قمنا به". لو درس البيت الأبيض الواقع قليلاً لكان من المحتمل أن الرئيس لم يستخدم كلمة "الحملة الصليبية" بعد يومين من تفجيرات ١١ سبتمبر في إشارة إلى ما ينوي فعله مع الإرهابيين. يميل المسلمون وحتى الوسطيون منهم، إلى أن يتفاعلوا لا شعورياً عند تذكيرهم بهجوم الغرب القديم. ولو أعير الواقع بعض الاهتمام، لما تفأجات الولايات المتحدة والمملكة المتحدة بفشلهما في جعل العراقيين يرحبون بهم ويقدرون سيطرة أجنبية على نفطهم.

وفي نوفمبر ٢٠٠٢م، قبل غزو العراق بأربعة أشهر، التقى بلير لقاءه الوحيد مع متخصصين بريطانيين مستقلين، وقال جورج جوف (George Joffe) (مختص بالشرق الأوسط من جامعة كمبريدج) "كان رأينا جميعاً واحداً" وأضاف "العراق بلد معقد الوضع، هناك استياء كبير بين الطوائف المتعددة، ولا أتخيل الترحيب بكم". ولم يبدُ أن بلير اهتم بهذا التحليل، وركَّز بدلاً من ذلك على صدام حسين: "ولكن الرجل شرير

لا نظير له أليس كذلك؟ " وحاول المتخصص أن يشرح أن ثلاثين عامًا من حكم صدام الدكتاتوري، حطمت المجتمع المدني العراقي إلى درجة عدم وجـود قـوى مستقلة منظمة ، لتخدم كحلفاء لقوى التحالف الغربي ، ومع ذلك بقي بلير غير مهتم ، ولم يظهر مكتب العلاقات الخارجية أي اهتمام للاستفادة من تجربتهم ومعرفتهم الكبيرة.

بعد ذلك بنحو خمس سنوات، في يناير ٢٠٠٨م، أصدرت وزارة الدفاع البريطانية تقريراً ينتقد بشدة الطريقة التي دُرِّب بها الجنود البريطانيون للخدمة في العراق. وقال التقرير إنه كان هناك نقص في المعلومات عن الوسط الذي سيعمل فيه الجنود ولم يكن مؤكدا ولا واضحًا كيف ستكون ردة فعل العراقيين تجاه الغزو ، وأكمل التقرير" بأن الجيش فشل في استكشاف الاختلاف بين العراق والبلقان وشمال إيرلندا ، حيث حصلت القوى البريطانية على معظم خبرتها الحديثة. وبمعنى آخر ، لم يلتفتوا إلى تاريخ العراق.

ويمكن أن تساعد معرفة التاريخ في تجنب التعميمات غير المسؤولة ، أيضاً ، سيكون من الحماقة عقد مقارنة مع الصرب ، كما فعل ذلك المتشائمون في نظرتهم إلى وضع يوغسلافيا وهي تتجزأ . والقول بأن اليوغسلافيين كانوا مع ذلك يحاربون هتلر في الحرب العالمية الثانية. في الواقع ، إذا نظرت إلى الأحداث عن قرب ، كما فعل باحث أمريكي منذ عدة سنوات ، ستجد أن تقسيم ألمانيا لم يكن بفعل الجيش ، فمعظمه كان منهكاً. وإذا عدت أكثر للوراء (إلى الحرب العالمية الأولى) ستجد أن الجيش الصربي هُزم ، وأُجبر على النفي ، واحتل الجيشان (الألماني والنمساوي) صربياً إلى نهاية الحرب. وتأتي أفغانستان في ذات خطاب اليأس. ويقول أحد النقاد إن أفغانستان لم تتعرض لأي غزو خارجي عبر تاريخها. هذا بالتأكيد سيكون مفاجئاً للإسكندرالمقدوني (Alexander the Great) ، وأيضاً جنكيز خان. والآن نسمع أن القوى الغربية لا تستطيع

التدخل في الوضع البائس، والفوضى المستشرية في زيمبابوي؛ لأن ذلك قد يستدعي ذكرى الاستعمار بين أفراد الشعب. من المؤسف أن مثل هذا التوقع لم يؤخذ بعين الاعتبار، حين تدخلت أمريكا في فيتنام، أو حديثا، في العراق.

كما يمكن أيضاً أن يساعد التاريخ في معرفة الذات. من الممكن أن يكون هناك ظلال للضوء الذي نرى أنفسنا من خلاله. على سبيل المثال: يرى الكنديون أنفسهم كقوة خير في العالم، ويميلون إلى التغاضي عن حقيقة أن كندا -كدولة غنية- لم تقدم للمساعدات الخارجية إلا حصة صغيرة في العقود الماضية. وعلى الرغم من أن الكنديين يفتخرون بأنهم يحفظون السلام، فإنهم في الغالب لا يعرفون أن كندا حاربت في أربع حروب رئيسة في القرن العشرين بدأ من حرب إفريقيا وانتهاءً بكوريا. كما يميل الأمريكيون إلى رؤية أنفسهم كشعب محب ومسالم، ولم يدخلوا أي حرب بإرادتهم. وصرح بذلك الرئيس رونالد ريغان في عام ١٩٨٣م: "لم تشن دولتنا أي حرب" و"هدفنا الوحيد الردع وتوفير القوة لمنع الحرب". ولكنَّ هذا ليس صحيحًا بالنسبة للمكسيكيين أو الكوبيين أو العراقيين الآن.

وإحدى المقولات المستهلكة جملة جورج سانتانا (George Santayana) المشهورة "قدر الذين لا يتذكرون الماضي أن يكرروه".

ويستخدمها السياسيون وغيرهم متى ما أرادوا أن يبدوا عميقين. وهي حقيقة، حيث إن التاريخ يذكرنا جيداً بالأوضاع المختلفة، والتي سببت مشاكل في الماضي. صمم قادة التحالف في الحرب العالمية الثانية، على أن ذلك الوقت هو الوقت المناسب لهزيمة ألمانيا، ولن تستطيع بعده ألمانيا ودول المحور الأخرى أن تدعي بأنها لم تهزم أبداً في أرض المعركة. كانت سياسة الحلفاء تقضي باستسلام غير مشروط، واحتلال ألمانيا واليابان وإيطاليا في نهاية الحرب، وكانت هناك محاولات جادة -لم تنجح جميعها-

لإعادة صياغة مجتمعات هذه الدول ؛ حتى تستمر ديموقراطية ومدنية. وحين يكون هناك شكوى ولفت نظر إلى أن هذه المعاملة تشبه السلام الوحشي الذي فرضه الرومان على قرطاجة، أبدى الجنرال الأمريكي مارك كلارك (Mark Clark) ملاحظته بأن أحدًا لم يسمع كثيرًا عن القرطاجيين الآن.

حين بدأ الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت والقادة الغربيون الآخرون التخطيط لعالم مابعد الحرب، كان أمام أعينهم الماضي القريب بشكل آخر. أرادوا أن يبنوا نظامًا عالميًا قويًا يمنع العالم من الانزلاق إلى صراع مميت مرة أخرى. لم تكن سنوات الحرب ثابتة ؛ ويعود ذلك في جزء منه إلى أن الأمم المتحدة لم تكن قوية بما يكفي. فالقوى الرئيسة لم تشترك خاصة الولايات المتحدة أو أنهاانسحبت مثل ألمانيا واليابان. هذه المرة كان روزفلت مصممًاعلى أن تنضم الولايات المتحدة إلى عضوية منظمة الأمم المتحدة الجديدة، وكان مستعدًّا أيضاً للقيام بالكثير من أجل المحافظة على بقاء الاتحاد السوفيتي في المنظمة،و جعل العالم مستقراً ومزدهراً. ولم يكن النظام العالمي متوازنًا في عشرينيات القرن الماضي، ورزح تحت عبء جديد في ثلاثينيات القرن المنصرم- فترة الكساد العظيم- والذي دفع بالدول إلى الانتكاس على ذاتها، محيطة نفسها بأسوار لحماية عمالها وصناعاتها. والأمر الذي جعل الازمة مفهومة لكل شعب، لقد كانت كارثة للعالم أجمع. تدهورت التجارة والاستثمارات بحدة، وغضب التجار المتنافسون المحليون. واتجه العالم إلى الحرب العالمية الثانية، وكما قال أحد الدبلوماسيين الأمريكيين في نهاية الحرب العالمية الثانية "كان ذلك الجزء من التاريخ معروفًا جداً في قاعة كوردل هول (Cordell Hull) (في مبنى وزارة الخارجية) تمامًا مثل قصة خروج آدم من الجنة في الكتاب المقدس. يجب ألاَّ يُكرَّر التاريخ".

ولتجنب ذلك، أنشأ التحالف، مع قبول الاتحاد السوفيتي- على مضض- المؤسسات الاقتصادية المعروفة، مجتمعة تحت مسمى " بريتن ودز سيستم (Bretton Woods System) " (النقد الدولي)، البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية (ولم تتشكل الأخيرة إلا بعد وقت طويل بمسمى منظمة التجارة العالمية) أسست هذه المؤسسات من أجل توفير الاستقرار والحماية للاقتصاد العالمي وتشجيع التجارة الحرة بين الدول. وسيكون محل نقاش ما قدمته تلك المؤسسات للنظام العالمي بعد عام ١٩٤٥م. ولكن العالم لم يمر مرة أخرى بأزمة مثل تلك التي حدثت في ثلاثينيات القرن الماضي.

وفي النصف الثاني من عام ٢٠٠٨م عادت إلى الواجهة ذكريات الكساد العظيم والدروس المستفادة منه حين ترنح النظام المالي العالمي وتبع ذلك تصدع اقتصاده من كارثة إلى أخرى. وعاد الاقتصاديون المتخصصون مرة أخرى وبشكل كبير إلى أعمال جون مينارد كينز (John Maynard Keynes) وإلى الأرشيفات التي علاها الغبار، خاصة تلك التي يتحدث فيها عن الحاجة إلى تنظيمات حكومية للمخاطرات التجارية وواجب الحكومات في استخدام الأدوات الموجودة لتحريك الاقتصاد. وربما كان من حسن الحظ أيضاً، أن بنجمين برنانك (Benjamin S. Bernanke)، رئيس الاحتياط الفيدرالي، وأحد الأشخاص المهمين في وضع السياسة الأمريكية في تلك الأشهر العصيبة والمتخصص في موضوع الكساد، كتب وألقى محاضرات كثيرة عما يرى أنه دروس مستمدة من الكساد. ومن ذلك نقاشه في مقال نشر في مجلة "السياسة الخارجية" *Foreign Policy* عام ٢٠٠٠م "يعتمد الأثر الاقتصادي لانهيار سوق الأسهم بشكل أقل على حدة الهبوط بدلاً من استجابة صانعي السياسة الاقتصادية، وبالتحديد محافظي البنوك المركزية" وقال إن الاحتياط الفيدرالي كان مخطئًا في محاولته الحفاظ على قيمة الدولار، من خلال رفع الفائدة مثلاً بدلاً من محاولة

تثبيت الاقتصاد الداخلي. وكان مستعداً في ردة فعل لأزمة ٢٠٠٨ أن يمضي قدماً في تحريك الاقتصاد أكثر من العديد من المسؤولين.

وضح رتشارد نيوستادت (Richard Neustadt) وارنست ماي (Ernest May) في كتابهما "*التفكير في الوقت المناسب* Thinking in Time" أن معرفة خلفية قضية ما يمكن أن يساعد في تفادي أخطاء غير ضرورية ومكلفة. وإذا أخذنا أكثر أمثلة الكتاب وضوحاً، بدأت تنتشر إشاعات في صيف عام ١٩٧٦م بأن السوفييت وضعوا قوات مقاتلة في كوبا. ولم يكن حدوث ذلك في وقت كانت فيه العلاقة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة في أقصى درجات التوتر فقط ولكنه أعاد أيضاً ذكريات واضحة لأزمة الصواريخ الكوبية. وفي عام ١٩٦٢م حين امتلأت كوبا بقوات سوفيتية بما في ذلك أسلحة نووية. وانتهت الأزمة حين أمر خراشتشيف بنزع الصواريخ والأسلحة النووية، خضوعًا لمطالب كينيدي، وفي مقابل ذلك تعهد كندي بوضوح ألاَّ تغزو الولايات المتحدة كوبا. هل كان هذا اللواء السوفيتي بداية لأزمة مماثلة، وماذا قصد السوفييت من الانتهاك الواضح لاتفاق ١٩٦٢م والذي يقضي بسحب جنودهم؟

وطلب مستشار الأمن القومي في إدارة الرئيس كارتر زبجنيو برزنسكي (Zbigniew Brezezinski) من وكالة الاستخبارات التأكد من الخبر. وفي منتصف أغسطس أكدت التقارير وجود فرقة مقاتلة سوفيتية في كوبا. وبعد ذلك بوقت قصير أعلن على الملأ نائب ولاية ايداهو فرانك تشرش (Frank Church)، كان يرأس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ - ، أعلن على الملأ وأخبر المراسلين بأنّه "يجب على الرئيس أن يوضح أنه يجب علينا أن نضع خطًّا لاختراق الروس لهذا النصف من الكرة الأرضية" واستمرت الأزمة معظم شهر سبتمبر. وتدريجيًّا اتضح أمران بعد أن بدأ الإداريون بالعودة إلى الملفات. أولا، سبق وطلب كينيدي انسحاب الجنود السوفييت

البرية ولكنه لم يصر على ذلك في النهاية. ثانيا، وهذا الأمر بالتحديد محرج، يبدو أن الوجود السوفيتي العسكري مستمر في كوبا منذ عام ١٩٦٢م. وكتب سايروس فان (Cyrus Vane)، وزير الخارجية أثناء إدارة كارتر "من المفزع اضمحلال إدراك وجود وحدات القوات البرية السوفيتية من الذاكرة المؤسساتية للاستخبارات". ورجع انتوني دوبرينن(Anatoly Dobrynin)، السفير السوفيتي لدى واشنطن منذ رئاسة كينيدي، والذي كان في موسكو بجانب والدته التي كانت على فراش الموت- مسرعًا إلى واشنطن لشرح الأمر الذي وصل إلى أزمة تزداد خطورة. وفي موسكو، كان رؤساؤه يجدون صعوبة في تصديق أن كل هذه الضجة بسبب غلطة بريئة تماماً ويعتقدون أن لدى الأمريكيين أسبابًا شريرة وراء هذا العمل. ومن وجهة نظر دوبرينن، قادت هذه المهزلة إلى تدهور أكثر في العلاقات بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة.

وأخذت التاريخ كمرشد على محمل الجد- بشكل خاص- مجموعتان في مجتمعنا. يود الناس العاملون في مجال التجارة والعسكرية معرفة فرصهم في النجاح إذا أخذوا مسارًا معينًا. هل سيخسرون استثماراتهم أو في حالة الجيش سيخسرون الحرب؟ وأحد سبل تقليل احتمالات الخسارة هو دراسة حالات مشابهة من الماضي. وهذا هو المقصود بدراسة حالة. لماذا فشلت سيارات ادسل ونجحت سيارات فولكسواجن؟ وفي عام ٢٠٠٨م، ومع ظلال تأثيرات أزمة الرهن العقاري على اقتصاد العالم، عاد محللو السوق إلى التاريخ في محاولة لمعرفة كم سيبقى الهبوط في سوق الأسهم. (من الواضح أننا مررنا بتسعة أسواق هابطة في السنوات الخمسين الماضية واستمرت كل مرة بمعدل سنة واحدة فقط).

وعادة لا يرى الجيش حرباً وقد يواجه عدة دفعات ضعيفة من الخريجين. ومن النادر وجود الضابط الكبير المحارب في أكثر من معركة. ومن الممكن التدرب على

الحرب، ولكن التدريب لا يعكس حقيقة الحرب وعنفها وقتلاها ودمويتها وكل فوضويتها ومفاجآتها. وبالتالي يصبح التاريخ أداة مهمة لمعرفة السبل الممكنة لحيازة النصر أو المؤدية للهزيمة. اختلفت الأسلحة والزي العسكري منذ الحروب البيلوبونسية ولكن لا تزال الأكاديميات العسكرية وموظفو الكليات يجدون فائدة في حث طلابهم على دراستها أو دراسة معارك نيلسون. يدرس الجيش بعد التدريب والحملات الفعلية ماحدث ويحاول أخذ دروس من ذلك. وكان الهدف من التاريخ الرسمي للحرب العالمية الثانية مساعدة الحكومات وجيوشها على الاستفادة من النجاح والأخطاء.

والآن يحاول البعض في الولايات المتحدة تعلم دروس من حرب فرنسا ضد مواطني الجزائر بين الأعوام ١٩٥٤- ١٩٦٢م وتطبيقها على حرب العراق. وبالتأكيد هناك تشابه بين الحربين: قوة كبيرة متقدمة تقنياً وتحارب عدوًّا مراوغًا ومنتشرًا في أرجاء البلاد، شعب مدني غاضب يقدم بعضه دعمًا نشطًا للثوار. ويشعل الإسلام والقومية أوار هذاالصراع. ويمكن للضباط الشباب الآن في جامعة مارين كوربس (Marine Corps) بولاية فرجينيا دراسة مقرر عن الحرب الفرنسية - الجزائرية. كما تستخدم وزارة الدفاع الأمريكية فيلم "معركة الجزائر" للتدريب والذي يعرض وحشية الطرفين. وسبق أن قال مخرجه الإيطالي اليساري جيلو بونتكورفو (Gillo Pontecorvo) قبل وفاته بمدة قصيرة في عام ٢٠٠٦م "أعتقد أن أكثر شيء يمكن أن يقدمه الفيلم هو تعليم صناعة سينما وليس فن حرب". وكان الرئيس بوش يقرأ القصة الكلاسيكية لحرب الجزائر، "*حرب وحشية من أجل السلام*" (كانت تباع النسخ على الإنترنت بأكثر من مائتي دولار إلى أن أسرع الناشر وأصدر نسخة ورقية). وفي عام ٢٠٠٧م، قدَّم بوش دعوة نادرة لإقامة طويلة في البيت الأبيض للمؤلف البريطاني، اليستر هورن (Alistair Horne). وبدأ أن الرئيس غير مهتم بخسارة الفرنسيين لحربهم في نهاية المطاف.

ووفقا لقول أحد مساعديه، وجد بوش الكتاب ممتعًا ولكنه استنتج أن فشل الفرنسيين سببه قصور إدارتهم عن المستوى العملي المطلوب.

والنظر إلى الماضي لا يحمي الجيش دائمًا من التصرف الخاطئ. كان هناك الكثير من الأدلة على ازدياد قوة الدفاع قبل الحرب العالمية الأولى. ومنذ الحرب الأهلية الأمريكية وحتى الحرب الروسية - اليابانية في عامي ١٩٠٤-١٩٠٥م كانت مجموعة الخنادق وقوة وسرعة الأسلحة النارية ترفع ثمن الهجوم كثيراً. ولم يأخذ معظم المراقبين الأمر بجدية. وشكك معظم المفكرين العسكريين الأوروبيين في حدوث مثل هذه الحروب استنادا إلى أنهم حوربوا بقوات أقل مقدرة (بمعنى آخر غير أوروبية). ووجد الفرنسيون الذين مالوا بسبب تاريخهم العسكري إلى التفكير من ناحية الهجوم، العزاء في عمل ضابط صغير مات في أول شهر من حرب فرنسا ضد بروسيا. ويرى أردنت دوبيك (Ardant du Picq) أن النصر في نهاية الأمر يكون إلى جانب الروح المعنوية العالية. أكد مخططو الحرب الفرنسيون أيضاً على الأسلحة النارية المتقدمة والتدريب الجيد والأعداد الكبيرة، بما في ذلك الفرسان ولم يبدوا اهتمامًا كبيرا بالناحية الدفاعية في السنوات السابقة لعام ١٩١٤م ولكن اهتمامهم كان كبيراً بهذه الناحية بعد عام ١٩١٨م. واقتنع الجيش الفرنسي والسياسيون بعد الخسائر الجسيمة للحرب العالمية الأولى والسنوات الطويلة من التورط في الجبهة الغربية وأهم من ذلك الصراع البائس حول فيردن (Verdun) حيث تصدى الجيش الفرنسي للألماني- بأن مستقبل الحرب يكمن في الدفاع وليس الهجوم. مكن التقدم في صناعة الطائرات والمدفعية المحمولة والدبابات والعربات الآلية الأخرى من تجنب الحرب والهجوم على التحصينات، وأغرق الفرنسيون آمالهم وجزءًا كبيرًا من ميزانيتهم العسكرية في خط ماجينو (Maginot). وبينما كان أغلب الجيش الفرنسي ينتظر الهجوم الألماني الكبير والذي لم يحدث، كانت قوات هتلر تتقدم متجاوزة الطرف الغربي من الخط.

وفي نهاية حرب فيتنام، كان الجيش الأمريكي قد تعلم الكثير عن حرب مكافحة التمرد (*Counterin -sugency Warfare*) ضد حركة وطنية تستخدم القوة التقليدية وحرب العصابات. والمشكلة الوحيدة أن القليل من الناس يريد تذكر حرب فيتنام ودروسها. ويقول تي إكس هامس (T. X. Hammes)، عقيد بحري عُرف باهتمامه الدائم بمكافحة التمرد، إنه كان هناك "تدريب عسكري أمريكي يركز على الحرب التقليدية، ولم يكن هناك أي ذكر لمكافحة التمرد في صميم التخطيط الإستراتيجي العسكري في السبعينيات". ومع ذلك ناقش هامس الحروب الصغيرة في أماكن مثل وسط أمريكا وإفريقيا وأفغانستان وألّف كتاباً عن كيف تقاتل في حرب العصابات. ورفضه أحد الناشرين قائلا "كتاب ممتع وأسلوبه جيد ولكن موضوعه لا يسترعي اهتمام أحد لأنه لن يحدث". وأخيراً ظهر إلى النور في عام ٢٠٠٤م كتاب *الحبال والحجر: الحرب في القرن ٢١* حين كان الأمريكيون يتعلمون بألم في العراق الدرس الذي تناسوه. وفي عام ٢٠٠٥م افتتح الجنرال ديفيد بتروس (David Petraeus)، أحد الجنرالات الأمريكان القلائل الذين قدموا نصائح تكنيكية ناجحة في العراق، أكاديمية لمكافحة التمرد في العراق. كما جعل دراسة مكافحة التمرد إجبارية في كليات تدريبات الجيش. وأصبح كتاب تي أي لورنس (T. E. Lawrence) "*أعمدة الحكمة السبعة Seven Pillars of Wisdom*" عن ثورة العرب ضد الأتراك في الحرب العالمية الأولى وكتاب "*مكافحة التمرد*" للضابط الفرنسي ديفيد جالولا (David Galula) من أفضل الكتب مبيعا بالقرب من قواعد الجيش.

ويساعدنا التاريخ على اكتساب الحكمة كما يمكن أن يشير إلى النتائج المحتملة لأفعالنا. وليس هناك رسم واضح في التاريخ يُمكننا من صياغة المستقبل كما نريد. وكل حادثة تاريخية هي مجموعة فريدة من العناصر أو الأشخاص أو التسلسل الزمني. ومع

ذلك فإن دراسة الماضي تساعد في تقديم دروس مفيدة عن كيفية المضي قدماً وعما يمكن أن يحدث أو لا يحدث. ويجب أن نكون حذرين وأن ننظر بمنظار أوسع قدر الإمكان. لأننا سندخل في مشكلة إذا بحثنا فقط عن دروس تدعم قرارات اتخذناها مسبقاً. وفي مايو عام ١٩٤١م رفض ستالين الاستماع إلى التحذيرات التي انهمرت من جميع المراكز الرئيسة بأن الألمان يستعدون للهجوم على الاتحاد السوفيتي. لم يكن ستالين يريد حرباً مع ألمانيا لأنه كان يعرف ضعف تجهيزات الاتحاد السوفيتي. أيضاً أقنع ستالين نفسه بأن ألمانيا لن تتحرك إلا بعد أن تعقد سلامًا مع بريطانيا العظمى. وصرح ستالين لدائرته المقربة "هتلر وجنرالاته ليسوا أغبياء إلى حد القتال على جبهتين في وقت واحد" وأكمل "لقد قضى ذلك على الألمان في الحرب العالمية الأولى"، وبعد ذلك بشهر داهمت الجيوش الألمانية القوات السوفياتية والتي أمرت بأن تأخذ مواقف دفاعية داخل الحدود. ولو أراد ستالين أن ينظر إلى دروس مختلفة في التاريخ لوجد مبتغاه. كان هتلر قد كشف عن شخصيته كمقامر حين انتزع النمسا وتشيكوسلوفاكيا. وأقنعه انتصاره السريع والمذهل على فرنسا في عام ١٩٤٠م بأنه محق دائماً. بالإضافة إلى أنه لم يخفِ هدفه طويل المدى في التحرك شرقاً للحصول على أراضٍ للشعب الألماني.

إذا استخدم التاريخ بحذر فإنه يقدم حلولا ويساعدنا في إلقاء أسئلة نحتاج إلى طرحها عن الحاضر ويحذرنا عما يمكن أن يتجه للأسوأ. في عشرينيات القرن الماضي، انتقد تي أي لورنس الحكومة البريطانية لتدخلها فيما أصبح بلدًا جديدًا يدعى العراق:

> اقتيد البريطانيين في منطقة الهلال الخصيب إلى مصيدة وسيكون من الصعب الخروج منها باحترام وكرامة. خدعوا بحجب مستمر للمعلومات عنهم. فمجتمع بغداد متأخر ومتصنع وغير مكتمل. والوضع هناك أسوأ مما قيل لنا، فإدارتنا متخبطة وغير مرضية أكثر مما يعرف العامة. وذلك مسيء لسجلنا الإمبراطوري وقد يتضخم قريباً ولا ينفع معه المعالجة العادية ولسنا بعيدين اليوم عن كارثة. يقوم على حراسة جنودنا سيئي الحظ، هنود وبريطانيون،

تحت ظروف مناخية وتموينية صعبة، في منطقةواسعة ويدفعون يوميًا ثمنًا غاليًا، يدفعون أرواحهم ثمناً لسياسات الإدارة الخاطئة في بغداد ولكن المسؤولية في هذه الحالة لا تقع على الجيش الذي يعمل بناء على طلب السلطة المدنية.

وفي عام ٢٠٠٢م حين وضعت الحكومتان الأمريكية والبريطانية خططهما لغزو سريع توقعتا بثقة أن يكون احتلالاً قصيرًا للعراق، كان يفترض بهما أن تكونا أكثر حكمة وتنظران إلى الاحتلال السابق. افترض البريطانيون سهولة الأمر وترحيب السكان بهم أو على الأقل ألا يثيرو أية مشاكل كما افترضوا قبول حاكم عربي لتمثيل مصالحهم. بالإضافة إلى أنهم افترضوا انفاق العراق على ذاتها من عائد تصدير القمح، ويمكن، من عائدات البترول الذي سوف يستغل. تلك التصورات استمرّت بالكاد عامًا واحدًا. وفي صيف عام ١٩٢٠م امتدت القوات البريطانية إلى أقصى مدى تستطيعه في محاولة للسيطرة على الثورات التي امتدت في طول البلاد وعرضها. وبالرغم من أن البريطانيين ظنوا أنهم وجدوا في فيصل حاكمهم المنشود والذي نصبوه ملكًا في السنة التالية لدخولهم العراق إلا أنه لم يكن أبداً الحاكم المذعن الذي أرادوه. وبقيت العراق جزءًا مضطرباً وصعبًا في المجال البريطاني حتى خمسينيات القرن الماضي. وبدلا من ذلك توجهت أنظار التحالف إلى الاحتلالات الخاطئة - مثل ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية - وربما يكون من العدل القول بأن واضعي سياسة عام ٢٠٠٢ استقوا الدروس الخطأ من تلك الأحداث. وقال الرئيس بوش بثقة في خطابه إلى المعهد الأمريكي للسوق الحرة في ٢٦ فبراير من عام ٢٠٠٣م "قيل في الماضي إن ثقافة ألمانيا واليابان غير قادرة على تحمل القيم الديموقراطية. والآن هناك من يقول ذلك عن ثقافة العراق ولكنهم مخطئون" ومع ذلك نجحت الاحتلالات السابقة لأن الحلفاء وضعوا خطط حربية محكمة قبل أن ينتصروا. كان لديهم آلاف الجنود البرية ويتعاملون مع عدو اعترف بالهزيمة.

ولو رغب صُناع القرارات الهامة في عام ٢٠٠٢م في معرفة كيف ستكون ردة فعل العراقيين تجاه الغزو الخارجي والاحتلال فانهم سيجدون أفكارًا إرشادية وتحذيرات في التجربة البريطانية أو في الاحتلالات الأخرى مثل ألمانيا واليابان في نهاية الحرب العالمية الثانية. وحين نحاول فهم وضع ما (قد يكون هناك معلومات تفوق استيعابنا) للوصول إلى قرار فإننا نستخدم المقارنة بين وضعين في محاولة لوضع أنموذج ونحدد المهم من غيره. ولو أن الرئيس بوش أو رئيس الوزراء بلير قرر أن صدام حسين يشبه هتلر فإن ذلك يشير إلى طريقة التعامل معه. ولو أن الأزمة الاقتصادية لعام ٢٠٠٨م تشبه بداية الكساد العظيم فحينها قد تقرر الحكومات والبنوك المركزية أن تحرك الاقتصاد. ولو كانت الأزمة الاقتصادية مشابهة لوضع فقاعة تكنولوجيا المعلومات والتي حدثت في تسعينيات القرن الماضي لكان من الحكمة التعامل معه كتصحيح قصير المدى للسوق. وقد لا يصل الناس دائماً إلى المقارنة الصحيحة ولكنهم مطالبون بالتّأكيد بمحاولة إيجاد بعض أوجه التشابه والاستفادة منها.

وتطبيق المقارنة ليس جديدا على الصينيين فقد عرفوه منذ قرون. فالحضارة الصينية التقليدية تأخذ من الماضي القصص الأخلاقية والأمثلة للتصرف بحكمة. ولم يستطع الصينيون الشيوعيون، الذين يمثلون إيديولوجية مستقبلية، التخلص من هذه العادة الممتدة إلى قرون ماضية. فقد أشار زعماؤهم بدءًا بماو، باستمرار إلى أحداث من الماضي، وحتى إلى الماضي الموغل في القدم. ويبدو ذلك كما لو أن رئيسًا أمريكيًا أو رئيس وزراء كندي أشار عرضًا إلى يوليوس قيصر أو الملك شار لمان ويتوقع من مستمعيه أن يفهموا الإشارة مباشرة. وحين كان ماو، في نهاية ستينيات القرن الماضي، يفكر في فتح علاقات مع الولايات المتحدة، ويعود جزء من السبب في رغبته إلى خلق تعادل في العلاقة مع الاتحاد السوفيتي، كان في ذهنه مثال رجل الدولة من القرن

الثالث بعد الميلاد والذي نصح حاكمه بالتحالف مع أحد أعداء وطنه من أجل هزيمة الطرف الثالث-وحث حاكمه على التحالف مع القوة الأبعد لأنه يرى من الخطر قرب العدو من الحدود. وبالنظر إلى قرار ماو- العلاقات الطويلة بين الصين والولايات المتحدة وأيضاً الاحترام المتزايد الذي عامل به الاتحاد السوفيتي ثم روسيا الصين — فقد كان من الصعب رفض منطقه.

وحين قادت الولايات المتحدة تحالفًا ضد العراق في حرب الخليج عام ١٩٩١م، كان في ذهن قوادها حالتان مشابهتان. لم يكونوا يريدون للقوات الأمريكية أن تغرق داخل العراق كما حدث في فيتنام كما كانوا يريدون وقف نظام صدام حسين من مغامرات أكبر كما فعلوا حين احتووا الاتحاد السوفيتي وناس جمهورية الصين في الحرب الباردة. وبالرغم من الانتقاد خاصة من اليمين الذي وجه إلى بوش الأب ورئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال كولن باول اللوم لأنهما لم يغزوا العراق ويطيحا بصدام حسين إلا أنهما في الواقع تصرفا بحكمة. ولم يتورط الأمريكيون وقوى التحالف في حرب برية وعلى الرغم من بقاء نظام صدام حسين إلا أن قدرته على تهديد جيرانه كانت محدودة (ولا يزال، للأسف، لديه الإمكانات لقتل وقمع المواطنين العراقيين).

ولكن يجب أن يتم التعامل مع المقارنة والحالات المشابهة من التاريخ بحذر. فاستخدام المقارنة الخطأ قد يؤدي إلى أخذ قرار خاطئ وليس فقط تقديم صورة مبسطة لوضع معقد. وبعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م أصبح الحديث عن مأزق الحرب العالمية الرابعة وكيف وجد العالم الغربي نفسه وسط آخر الصرعات، وخاصة بين المحافظين الجدد. ويقول نورمان بودرتز (Norman Podhoretz)، وهو مفكر متميز من المحافظين الجدد، بأن الحرب الباردة هي في الواقع الحرب العالمية الثالثة وحالياً، وبعد فترة قصيرة من السلام

في التسعينيات ننخرط في صراع كبير ومدمر ومماثل لصراعات سابقة ضد الأصولية الإسلامية. وكما هو الحال في الحروب العالمية الأخرى، تمثل الولايات المتحدة وحلفاؤها الجانب البريء الذي يشن الآخرون حرباً عليهم. وهنا يكون الغرب مدافعًا عن نفسه فقط حتى في الحروب التي بدأها الغرب مثل حرب العراق. ومن وجهة النظر هذه، تكون الحرب أخلاقية فالخير مقابل الشر. كما أن مصطلح "محور الشر" اختزال مريح يفتخر به واضعه الكندي ديفيد فروم (David Frum). وليس مهمًّا كون المحور مكونا في الحرب العالمية الثانية من التحالف بين ألمانيا وإيطاليا واليابان ويقال إن التحالف الجديد يضم العراق وإيران، وهما دولتان شنتا حربًا طويلة ضد بعضهما في ثمانينيات القرن الماضي، وكوريا الشمالية والتي ربما يصعب على رؤسائها إيجاد الدولتين شريكتاهما على الخريطة. أيضاً ليس مهمًّا أن الحرب الباردة ليست مثل الصراع العسكري الهائل في الحربين العالميتين ولم تنتهِ بهدنة على أرض المعركة ولكن انتهت بانهيار أحد اللاعبين الرئيسين. أما هؤلاء الذين انتقدوا الحرب اللا منتهية والتعريف الخاطئ "للحرب ضد الارهاب" أو احتلال العراق فقد نبذوا واتهموا بالانعزالية والجبن وأسوأ من ذلك. ما كتبه إيان بروما (Ian Buruma) في قراءة لكتاب بودرتر الأخير *الحرب العالمية الرابعة: الصراع الطويل ضد الفاشية الإسلامية* World War IV: The Long Struggle Against Islam Fascism "يعبر الكتاب عن رغبة غريبة في الحرب، وهو تصور واضح وفرصة لتقسيم المواطنين أو العالم تقسيمًا دقيقًا إلى أصدقاء وأعداء، زملاء وخائنين، محاربين وخانعين هؤلاء معنا وأولئك ضدنا".

وميونخ مقارنة أخرى لها صدى جيد عبر السنين، وميونخ اختصار للسياسات الاسترضائية التي اعتمدتها الديموقراطيات مع الديكتاتوريين في الثلاثينيات في جهد ضائع لمنع وقوع حرب أخرى. وسميت ميونخ في إشارة لمؤتمر ميونخ الذي انعقد عام

١٩٣٨م، حين وافقت بريطانيا وفرنسا على حصول ألمانيا هتلر على الأجزاء التي تتحدث الألمانية من الأراضي التشيكوسلوفاكية. وأصبحت ميونخ رمزًا للضعف في مواجهة العدوان. ولو أن الديموقراطيات وقفت في وجه ألمانيا هتلر، وكان الافضل لو حدث ذلك في بداية الثلاثينيات قبل أن تعيد ألمانيا وإيطاليا واليابان تسلُّحها، فإنه كان بإمكانهم منع حدوث الحرب العالمية الثانية كما يقول منتقدو سياسة الخنوع والاسترضاء. ولكن ماذا تعني هذه المقارنة والتشابه بالضبط ؟ هل ترمي إلى أن تتجنب أعداءك ولا تتحدث إليهم مطلقا وألاَّ تبحث عن اهتمامات مشتركة؟ في هذه الحالة، يمكن ؟أن توصف محادثات الرئيس دويت ايزنهاور (Dwight Eisenhower) مع نيكيتا خروشوف أو نيكسون مع أنها مسترضية أو خانعة. هل أخطأت الديموقراطيات في الثلاثينيات حين حاولت تجنب الحرب؟ كانت هذه الديموقراطيات مسكونة بهاجس القتل الشنيع في الحرب العالمية الأولى، التي كانت قد انتهت منذ فترة قصيرة، وبالخوف من أن تدمر القنابل الجديدة الحضارة الإنسانية. هل أخطأ رجال مثل نيفيل تشامبرلين (Neville Chamberlain)، وحين تستعاد أحداث الماضي فمن الأسهل، تصديقها وأن هتلر يمكن أن يتوقف إذا حقق أهداف ألمانيا "المعقولة" مثل معركة انشلوس مع النمسا.

هاجم الرئيس بوش في مايو عام ٢٠٠٨م، في خطابه في الكنيست الإسرائيلي، هؤلاء الذين يعتقدون أنه يمكنهم إجراء أحاديث بناءة مع أعداء أمريكا مثل سوريا وإيران ومنظمة حماس. وعلى الرغم من أن الرئيس لم يسمِّ هؤلاء الأشخاص إلا أنه كان من السهل استنتاج المقصودين وهم الرئيس جيمي كارتر والمرشح الرئاسي الديموقراطي باراك أوباما (Barrack Obama) وربما مستضيفيه أيضاً. وقال بوش: "حين كانت الدبابات الألمانية تخترق بولندا في عام ١٩٣٩م أعلن أحد أعضاء مجلس الشيوخ

الأمريكي "ياإلهي، لو استطعت فقط التحدث إلى هتلر فقد يمكن تجنب كل ذلك" لدينا مسؤولية أن نسمي هذا التصرف باسمه الحقيقي- راحة الاسترضاء الكاذبة، والتي رفضها تكرار التاريخ". ومع ذلك هل سوريا وإيران مثل ألمانيا النازية؟ وهل المحادثات معهما علامة ضعف أم محاولة عاقلة لنشر السلام؟ هل حتى مجرد المحادثات مع المنظمات الإرهابية خاطئة دائمًا؟ حارب البريطانيون الجيش الجمهوري الإيرلندي في شمال إيرلندا ولكنهم أيضاً كانوا مستعدين للنقاش معه. وليس واضح عادة ماهو الخضوع والاسترضاء أو غيرهما. والشيء الذي لا يمكن إنكاره ان التشابه مع حادثة ميونخ كان له تأثير قوي على السياسيين والسياسيات منذ ذلك الوقت ويطبق التشابه بشكل واسع لتبرير سياسات متعددة. وطبق هذا التشابه أو المقارنة رئيس الوزراء البريطاني انتوني ايدن (Antony Eden)، الذي خلف ونستن تشرشل في الوزارة، إلى حد كارثي حين حاول التعامل مع جمال عبدالناصر، الدكتاتور المصري، في عام ١٩٥٦م. كان عبدالناصر، مثل العديد من قادة العالم الثالث كما كان يسمى، مستعداً لقبول المساعدة من كلا القوتين في الحرب الباردة. اشترى عبدالناصر أسلحة من تشيكوسلوفاكيا الشيوعية ولكنه أيضاً حاول الحصول على قرض من الولايات المتحدة لبناء السد العالي على النيل. وفشل وزير الخارجية الأمريكي، جون فوستردالاس (John Foster Dulles)، في الحصول على موافقة مجلس الشيوخ (الكونجرس) على القرض. قام عبدالناصر للرد على هذا الرفض ولجمع المال الذي يحتاجه بتأميم قناة السويس والتي كان يملكها ويديرها في ذلك الوقت البريطانيون. كانت ردة فعل ايدن واضحة، كوزير للخارجية البريطانية في ثلاثينيات القرن الماضي سبق وأن تعامل مع دكتاتوريين. والآن يواجه هو والعالم ذات الأمر مرة أخرى. وكما كتب في مذكراته معقبًا على الحادثة " نجاح هتلر وموسوليني في عدد من المغامرات وخرق المعاهدات في

الحبشة والراينلاند والنمسا وتشيكوسلوفاكيا والبانيا أقنعهما بأن الديموقراطيات لا تملك القدرة على المقاومة وأنه بإمكانهما السير بثقة والنجاح بدءًا من سنغافورة تحاذيهما لوحة تقودهما إلى سيادة العالم . . . وكما درسنا أنا وزملائي الوضع في أشهر خريف عام ١٩٥٦م فإننا مصممون على عدم السماح بإعادة أحداث الماضي". ولكن عبدالناصر لم يكن هتلر ولم يكن ينوي غزو جيرانه، بل كان قوميًّا يحتاج بشدة إلى مصادر لتطوير بلده والمشاركة في زعامة الشرق الأوسط. ولم يكن تواطؤ البريطانيين مع الفرنسيين والإسرائليين للاستيلاء على قناة السويس سيء الوقع فقط ولكن أيضاً انحاز العالم العربي بأجمعه إلى صف عبدالناصر ومنحه تأييده. بالإضافة إلى غضب الأمريكيين الذين رأوا في هذا التصرف أكثر من مجرد تكرار لأحداث الثلاثينيات وقلقوا من تأثيره الأخلاقي على دول العالم الثالث الأخرى.

وفي عام ١٩٥٠م، حين تحركت جيوش كوريا الشمالية نحو الجنوب، كان الرئيس هاري ترومان (Harry Truman) واضحًا في تأكيده على الحاجة إلى أخذ تصرف تجاه ذلك: "تتصرف الشيوعية في كوريا على غرار تصرف هتلر واليابان قبل عشر أو خمس عشرة أو عشرين سنة". وربما يكون محقًّا تمامًا. ليس هناك شك بأن ستالين، مثل هتلر، كان يقامر على نصر سهل المنال، وفي حالة ستالين، فقد كان مستعداً للتراجع عن دعمه لكوريا إذا كان هذا الدعم مكلفًا. بينما هناك أدلة قليلة على أن هتلر ربما يتنازل عن مطالبه في أوروبا حتى وإن واجه رفضًا قويًا من الديموقراطيات. كان مصممًا على الحرب عاجلاً أم آجلاً. كان الرئيس كينيدي، والذي كان بحثه للتخرج ثم كتابه "*لماذا نامت أنجلترا*" (Why England Slept) في جانب المهادنة البريطانية وبقيت ميونخ حاضرة في ذهنه وهو يناقش مع مساعديه كيفية التعامل مع الاتحاد السوفيتي، حول صواريخه في كوبا. يقول كينيدي عن ثلاثينيات القرن الماضي: "علمتنا درسًا واضحًا،

ذا مر التصرف العدواني دون رادع له فإنه لا محالة يؤدي إلى الحرب". وبحكمة اُستخدم
ِصف الحصار البحري بدلاً من حرب صريحة؛ لوضع ضغط على السوفييت. ولحسن
لحظ، أيضاً، كان قد قرأ للتوّ كتاب باربرا توشمان (Barbar Tuchman) مسدسات
غسطس *Guns of August* عن بداية الحرب العالمية الأولى، وكان مدركًا وبألم كيف
دّت سلسلة من الأخطاء والتخبط إلى مأساة. وبعد كينيدي بعدة سنوات، استخدم
خليفته الرئيس لِندن جونسون (Lyndon Johnson) مرة أخرى المقارنة، وهذه المرة كان
ع حرب فيتنام. أراد ألاّ يكون مثل نيفيل تشامبرلين رئيس الوزراء البريطاني، الذي
عامل مع هتلر. وكما قال لكاتب سيرته فإنه عرف أنه إذا خرج من فيتنام ف"إنه بذلك
ِكافئ العدوانية".

واعتمدت إدارة جونســون كثيراً على القياس والمقارنة، حين كان عليه اتخاذ
ـرار إرسال قوات برية إلى فيتنام قي عام ١٩٦٥م. وكما أوضح يون فونج كونج
(Yuen FoongKhong) من جامعة اكسفورد، استدعت الإدارة من التاريخ وقائع ميونخ
والحرب الكورية والهزيمة الفرنسية في عام ١٩٥٤م، لدعم النقاش المحتدم. كانت هناك
مجموعة تضم روبرت مكنمارا ودين رسك (Dean Rusk and Robert McNamara) (وزير
لخارجية) ووليم بوندي (William Bundy)، (مساعد وزير الخارجية لشؤون شرق آسيا
والمحيط الهادي) وكانوا يرون أن الحرب الكورية دفعت إلى حضور أمريكي أكبر في فيتنام.
وكما قال بوندي أن الدرس كان "يجب أن يقضي على أي عدوان من أي نوع مبكرًا، أو
سيتوجب مواجهته لاحقًا في ظروف أقسى. تعلمنا من دروس فترة الثلاثينيات–في
منشوريا–اثيوبيا . والراينلاند، وتشيكوسلوفاكيا". وتعلموا أيضاً، وكان سببًا في تعقيد
لقرار؛ احتمال تدخل الصين إذا حدثت الحرب قرب حدودها. وفي نهاية الأمر حد هذا
ن إيقاف الأمريكيين في فيتنام بشكل لم يحصل في كوريا.

كان جورج بول (George Ball)، مساعد وزير الخارجية، من أبرز المعارضين لإرسال الجنود، وحذر في ربيع عام ١٩٦٥م من "أن الولايات المتحدة قد لا تستطيع خوض الحرب بالنجاح الكافي" حتى وإن كان عدد الجنود نصف مليون جندي. وقارن ذلك بالحرب الفرنسية في فيتنام والتي انتهت باستسلام قوات حاميتها في دين بين فو (Dien Bien Phus). وأشار إلى أن "الفرنسيين حاربوا في فيتنام وهزموا تمامًا - بعد سبع سنوات من الصراع الدموي حين كان لديهم ٢٥٠ ألفَ محاربٍ أقوياء على الجبهة، ومدعومين بجيش قوامه ٢٥٠ ألفًا من جنوب فيتنام". وحذَّر أيضاً من أنَّ الأمريكيين حلوا محل الفرنسيين في نظر الفيتناميين كقوة استعمارية. وفعل مثله الرئيس بوش، بعد ذلك حين قارن بين حرب الجزائر وحرب العراق، ركَّز خصوم بول على اختلاف الأمريكيين عن الفرنسيين. كانت فرنسا منقسمة تجاه الحرب، كما أن قيادتها السياسية كانت ضعيفة وغير مستقرة. وساند عامة الشعب الأمريكي الحرب باستثناء قلة من رجال الدين والأكاديميين، بينما كانت الإدارة مصرة على البقاء والانتصار. علاوة على ذلك، يعرف - المطلعون- الفيتناميون أن الولايات المتحدة ليست هناك من أجل أهدافها الأنانية، ولكن لتدافع عن استقلال جنوب فيتنام. وخسر بول في معركة المقارنة. وكما قال هنري كابوت لودج (Henry Cabot Lodge) -وكان مؤثراً في ذلك- (السفير الأمريكي إلى جنوب فيتنام) "أشعر بتهديد كبير، ويبدء الحرب العالمية الثالثة إذا لم نتدخل. ألا ترون التشابه بين الآن وتراخينا في ميونخ؟".

أفرزت حرب فيتنام أيضاً تشابهاتها وقياساتها الخاصة، وظهرت طريقتان رئيستان لاستخلاص عبر من تلك التجربة المريرة، العبرة التي وجدت ترحيباً من الليبراليين والديموقراطيين، وأيضاً قطاعات من الجيش، بأنه كان يجب ألا تتدخل الولايات المتحدة في هذه الحرب. سمح ايزنهاور وكينيدي ثم جونسون بأن تنزلق

الولايات المتحدة إلى حرب دون تحديد واضح لأهدافها ، وجعلت المصالح الأمريكية في خطر، وكانت النتيجة فقدان الولايات المتحدة لسلطتها الأخلاقية، حين وجدت نفسها منبوذة أكثر فأكثر، وينظر لها كدولة متنمرة إمبريالية ، ويرتكب جنودها أعمالاً وحشيةً مثل مجزرة ماي لي (My Lai). والعبرة المهمة أنه يجب على الولايات المتحدة تجنب الانجراف إلى مثل هذا النزاع مرة أخرى، والدرس الآخر، وهو أكثر جاذبية لحزب اليمين، كان يمكن تحقيق النصر لو أن الولايات المتحدة كانت مستعدة للذهاب حتى النهاية ،و قصف شمال فيتنام، وإخضاعها وضخ مزيد من الجيوش البرية. كما كان يجب إدارة الإعلام والرأي العام بشكل أفضل؛ لمنع الانتقاد وإبعاد الروح الانهزامية والذين قللا من جهود الحرب في الوطن.

وفي عام ١٩٩١م، حين كانت إدارة بوش الأب تفكر في أخذ إجراء ضد صدام، برزت حرب فيتنام كمثال للتروي وعدم المجازفة والدخول في حرب. كان كولن باول (Colin Powell) والذي حارب في فيتنام يستمد الدروس من تلك الحرب في تلك الفترة أكثر من أي وقت مضى. وإذا كان على الولايات المتحدة أن تخوض حربًا مرة أخرى فيجب أن تذهب إلى المعركة بقوة كبيرة، وأهداف واضحة. يجب ألاّ تندفع مرة أخرى إلى صراع بلا نهاية، يؤدي إلى استنزاف القوة العسكرية، ويخلف معارضة في الوطن. كانت حادثة ميونخ جزءًا من التبرير المستخدم. وبالتأكيد، كان صدام حسين هو المعتدي على الكويت، والتصرف العسكري تجاهه أوقف أي محاولات أخرى من جهته ضد جيرانه، وأصبحت العراق ضعيفة ومستعدة للتعاون، ولو على مضض، مع مفتشي الأمم المتحدة للأسلحة.

حين ركزت إدارة بوش الجديدة على العراق بعد ١١ سبتمبر لجأت إلى المقارنة مع ميونخ، ولكن كانت أهمية المقارنة أضعاف السابق. في ثلاثينيات القرن المنصرم رأس

هتلر إحدى أقوى الدول في العالم. وكما قال الباحث الأمريكي جيفري ريكورد (Jeffrey Record) "لم يكن هتلر ضعيفًا ولا مختلاً، ولم يكن صدام إلا ضعيفًا ومختلاً". وفي عام ١٩٩١م، انتهت عملية عاصفة الصحراء قبل أن تبدأ تقريباً،ثم في عام ٢٠٠٣م، أخذت هزيمة صدام حسين الكاملة ثلاثة أسابيع، وبقوة صغيرة نسبياً، بينما تطلبت هزيمة هتلر أربع سنوات مع تحالف الإمبراطورية البريطانية والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. وعلى الرغم من محاولة إدارتي بوش وبلير إظهار صدام حسين للعالم كمجنون في تحضيرهم للغزو ودليلهم، كما نعرف الآن، على امتلاك صدام أسلحة دمارٍ شاملٍ ضعيفٌ في أفضل وصف له. والتصريح بأن صدام حسين كان حليفًا لأسامة بن لادن غير منطقي لأي شخص يعرف التاريخ. كان صدام حسين علمانيًا وابن لادن متديناً متطرفاً. ولم تكن هناك أي علاقة بين الرجلين وبالتأكيد نادى ابن لادن مرارًا العراقيين لخلع صدام حسين. ويمكننا الاستفادة من التاريخ، ولكننا أيضاً نخدع أنفسنا حين نختار أدلة من الماضي لتبرير الخيارات التي قررناها وعزمنا عليها.

الخاتمة

سمعت الكاتبة الأمريكية سوزان جكوبي (Susan Jacoby)في مساء ١١ سبتمبر من عام ٢٠٠١م محادثة بين رجلين في إحدى حانات نيويورك. كان أحدهما يقول "إن ذلك يشبه حادثة بيرل هاربر (Pearl Harbor) (ميناء اللؤلؤ)" حينها سأل الآخر: "وماهي بيرل هاربر؟ فأجابه الأول قائلاً: "حدث ذلك حين أسقطت فيتنام قنابل على بيرل هاربر وبدأت حرب فيتنام". هل يهم فهمهم الخاطئ للحادثة؟ الجواب نعم مهم. ويستطيع مدعو المعرفة بالتاريخ ودروسه إقناع المواطنين بسهولة، حين لا يستطيع هؤلاء المواطنون وضع الحاضر في السياق الصحيح، وحينما تكون معرفتهم قليلة عن الماضي. وكما رأينا نستعيد التاريخ لتقريب أفراد المجموعة من بعضهم، وعادة يكون ذلك على حساب الفرد، ولتبرير معاملة الآخرين بغلظة ومن أجل تعزيز حجج لسياسات ومسارات عمل معينة. كما تساعدنا معرفة الماضي في مواجهة التصريحات الدوغمائية والتخلص من التعميمات وأيضاً تساعدنا جميعًا على التفكير بوضوح.

ولو عرف الرجلان المحتاران في الحانة حقيقة بيرل هاربر لكان من المحتمل أن يعرفا أن الهجوم على مركز التجارة العالمي لا يشبه هجوم اليابان على الولايات المتحدة عام ١٩٤١م. كان ذلك حربًا بين دولتين. أما هذا الهجوم فهو عمل إرهابي. وذلك يشير بالتالي إلى أن التكتيك والإستراتيجية مختلفان عما قبل. وعلى الرغم من أن الكثيرين،

من ضمنهم إدارة بوش، تحدثوا عن حرب ضد الارهاب إلا أن المقارنة كانت مضللة. فالحروب تُعلن ضد الأعداء وليس الأفكار كما أن للحروب أهدافها المحددة - عادة اجبار العدو على الاستسلام - ولكن ليس هناك هدف محدد للحرب ضد الإرهاب. ولا يشبه الهجوم على مركز التجارة العالمي حرب فيتنام في أي شيء. كانت الولايات المتحدة في فيتنام تخوض الحرب على أرض العدو وأيضاً لها عدو واضح في شمال فيتنام بينما كان حلفاؤها في الجنوب.

وحين كان الأمريكيون مصدومين وغاضبين ومرعوبين، بعد أحداث ١١ سبتمبر، من المهم أن يفكر قادتهم بوضوح. أولاً، من هو العدو؟ وهنا أصبح التاريخ مفيدًا لأنه لم يُلقِ الضوء على القاعدة وأهدافها فقط ولكنه ألقاه أيضاً على أسباب غضبها من الغرب. كما أن التاريخ ذكر الأمريكيين بكيفية جنوح دولتهم إلى التصرف في العالم وتجاه التحديات. تلك الإشارات التي أغفلتها الإدارة بشكل كبير حين كانت تحضر لحرب أفغانستان أولاً ثم العراق. وبعد عام من الهجوم على مركز التجارة العالمية كتب بول شرودر (Paul Schroeder)، أحد أكثر المفكرين اهتماماً بتاريخ الولايات المتحدة والعلاقات الخارجية، مقالاً بعنوان "ماذا تغيَّر بعد ٩/١١؟ ليس الكثير ولا الأفضل" وحضَّ فيه الأمريكيين على أن يضعوا ماحدث في سياق تاريخي وعالمي أكبر. ووافق على أن الهجوم كان مروعًا ولكنه لا يصل إلى درجة الدمار الطويل المدى في الولايات المتحدة. وتبقى حقيقة جدية التهديد الإرهابي ولكنه ليس بحجم التهديدات التي عانت منها الدول الأخرى في الماضي والحاضر. ومع ذلك استخدمت إدارة بوش أحداث ١١ سبتمبر لادعاء حق الولايات المتحدة في مهاجمة من تريد دون العودة إلى حلفائها أو المنظمات الدولية مثل الأمم المتحدة. وكتب شرودر "من الصعب بل لعله من الاستحالة فهم المبالغة الغريبة في عقيدة بوش الجديدة التي تكتسح

وتدمر النظام العالمي والسلام. كما تخالف المبدأين الاساسيين للنظام الدولي والذي تطوَّر خلال القرون الخمسة الماضية: مبدأ الاستقلال والمساواة القانونية وتنسيق وضع وحدات عناصره (جميعها تقريباً الآن دول)، وأيضاً مبدأ آخرمساوٍ للاستقلال وبذات الأهمية وهو: الحاجة والطلب من مثل هذه الوحدات المستقلة لإنشاء والاشتراك في منظمات من أجل أهداف مشتركة واتباع معايير وممارسات معترف بها وخاصة في البحث عن السلام والأمن". بالإضافة إلى أن الولايات المتحدة بغزوها للعراق تكون هجرت تاريخها الماضي حين كانت تعمل مع الآخرين للحفاظ على النظام العالمي، وأيضاً تاريخ معارضتها الطويل للإمبريالية وأسوأ من ذلك العنف الذي أظهره معتقلو أبو غريب وجوانتانامو. وسيؤدي كل هذا إلى تقويض وتنازلات تجاه احترامها الذاتي للنظام والقانون.

ويساعدنا التاريخ عبر السياق والأمثلة حين نفكر في عالم اليوم. كما يساعد في طرح الأسئلة والتي بدونها من الصعب التفكير بشكل مترابط. ومعرفة التاريخ ترشدنا إلى نوع المعلومات الذي نحتاجه للإجابة على هذه الأسئلة كما أن التجربة تعلمنا كيفية تقييم هذه المعلومات. ويتعلم المؤرخون حين يفحصون الماضي التصرف كقاضي التحقيق في النظام القضائي الفرنسي. يطرح المؤرخون أسئلة مثل: ماذا حدث ولماذا؟ ويتطلب التاريخ أن نتعامل بجدية مع الأدلة وخاصة حين يكون هناك تعارض بين الدليل والافتراضات السابقة. هل الشاهد يقول الحقيقة؟ كيف نقارن بين نسخة وأخرى؟ هل طرحنا الأسئلة المناسبة أم فقط تلك الموجودة؟ ويتوغل المؤرخون في التاريخ لمعرفة أي حادثة أو فكرة أو موقف مهم في الماضي. ومدى أهميته؟ ويتوقف جزء من الاجابات على الأسئلة التي نطرحها في الحاضر وماذا نعتقد أنه مهم. ولا يقدم التاريخ إجابات مؤكدة دائمًا، ولكنه عملية مستمرة.

أيضاً يمكن أن يساعدنا التاريخ على فهم العالم المعقد ولكنه في نفس الوقت يحذرنا من خطر افتراض وجود وجهة نظر واحدة تجاه الأمور أو طريقة عمل واحدة فقط. يجب أن نكون دائمًا مستعدين وجاهزين بالبدائل وألاَّ نقبل كل الأمور على عواهنها. كما يجب ألاَّ نتأثر بأسلوب حديث زعمائنا الحازم حين يقولون "سيعلمنا التاريخ" أو سيثبت التاريخ أننا على حق". فيمكن لهؤلاء الزعماء أن يبسطوا ويقدموا مقارنات غير متكافئة كما نفعل جميعنا. ويمكن أيضاً أن ينزلق بثقة الزعيم الذكي والقوي (ليس بالضرورة أن يكون الذكاء هو القوة) عن المسار. كما أنه من المفيد لنا كمواطنين أن نتذكر أن من هم في السلطة لا يعرفون دائمًا الأفضل.

ولأن التاريخ يعتمد على مبدأ الشك، سواءً تجاه البرهان أو التفسيرات الواسعة، فإنه يمكن أن يغرس فينا الميل السليم إلى مناقشة زعمائنا. فهم ليسوا دائماً مصيبين، وبالتأكيد هم على النقيض معظم الأحيان. وفي عام ١٨٩٣م، قرر ضابط البحرية البريطاني في البحر الأبيض المتوسط، نائب الادميرال جورج ترايون (George Tryon) أن يتولى شخصيًّا قيادة المناورات البحرية في الصيف. وحين أمر جورج ترايون السفينتين بالدوران ومقابلة بعضهما حاول ضباطه لفت نظره إلى أن السفينتين ستصطدمان ببعضهما، وبحساب بسيط نسبياً تتضح أن مسافة الدوران كبيرة بينما شاهد الضباط بفزع علمه يلوح، كانت السفينة كامبردون تصطدم بالسفينة فكتوريا. ورفض ترايون أن يصدق أن الضرر كبيرٌ وأمر القوارب القريبة بعدم إرسال سترات النجاة. ونتيجة لذلك غرقت السفينة فكتوريا وهو على متنها ومعه ٣٥٧ بحاراً. أيضاً هناك القرار البشري الخاطئ الآخر في معركة لايت بردج حين انطلق شباب سلاح الفرسان البريطاني في مواجهة مباشرة مع البنادق الروسية-لم يكن الخطأ خطأ اللورد كارديجان (Lord Cardigan) فقط، ولكنه أيضاً خطأ النظام الذي سمح له بأن يكون

قائدًا. وكما قال الصحفي الأمريكي ديفيد هلبرستام (David Halberstam) في آخر موضوع كتبه "إنها قصة من الماضي نقرأوها مرة تلو الأخرى وهي أن أخطر مرحلة في مسيرة أي أمة ربما تكون تلك الفترة من تاريخها والتي تسير فيها الأمور بشكل جيد جدًّا وغير معتاد فيصبح زعماؤها متغطرسين مع إحساس بالأحقية متدثرٍ عباءة الرأي السديد".

وأكثر الدروس فائدة والتي يقدمها الماضي للحاضر هو التواضع. والتي قال عنها جون كيري (John Carey)، رجل الأدب البريطاني المتميز، "أحد أكثر مهام التاريخ فائدة أنه يقدم لنا ونحن جلوسٌ في أوطاننا كيف ناضلت الأجيال السابقة بإصرار وأمانة وجهد من أجل أهداف تبدو لنا الآن خاطئة أو مسيئة". كان للرق مدافعون عنه، وأيضاً لا ننسى الجدل الذي دار حول وضع كوكبي الأرض والشمس في الكون. واعتقاد الكثيرين في العصر الفيكتوري، يبدو أن تلك القناعة كانت مدعومة علميًّا، بوجود أعراق عليا وأخرى دنيا أو الاعتقاد الرصين، حتى عهد قريب، بأن النساء والسود ليسوا مؤهلين لمهن الهندسة والطب.

كما يشجع التاريخ أيضًا الناس في الحاضر على التأمل في أنفسهم، كتب عن ذلك الروائي الانجليزي ل.ب. هارتلي (L. P. Hartley): "الماضي بلد غريب، وهناك يقومون بأشياء مختلفة". فمعرفتنا مثلاً بتقدير الحضارة الصينية الكلاسيكية للباحثين والعلماء أكثر من تقديرها للجنود وأيضاً معرفتنا باختلاف العائلة الرومانية عن العائلة الحديثة في الغرب تدلنا على وجود قيم وطرق أخرى مختلفة عن الموجودة حالياً لتنظيم المجتمع. وهذا لا يعني أن جميع القيم نسبية ولكن يجب علينا أن نكون مستعدين لمراجعة قيمنا ولا ننظر إليها على أنها الأفضل. وكما يقول عن ذلك بشكل رائع جون أرنولد، مؤرخ بريطاني، "العودة إلى الماضي تشبه زيارة بلد غريب، فهناك أعمال

تشبه أعمالنا وأخرى مختلفة ولكن وهذا هو الأهم كل ذلك يجعلنا نعرف ماذا نعني بكلمة "الوطن".

ويكفي دراسة التاريخ أنها تعلمنا معنى الإنسان ووضع الاحتمالات ووعينا بذاتنا وهذا بحد ذاته إضافة كبيرة. ويجب أن نستمر في مراجعة افتراضاتنا وافتراضات الآخرين والمطالبة بالدليل أو بطرح السؤال هل هناك تفسير آخر؟ ويجب أن نحذر من الادعاءات الكبيرة باسم التاريخ ومن أولئك الذين يدعون اكتشافهم للحقيقة المطلقة والنهائية. وفي الختام، نصيحتي الوحيدة أن تستخدموا التاريخ وتستمتعوا به ولكن تعاملوا معه بحذر دائمًا.

شكر وتقدير

هذا الكتاب هو محصلة دعوة تلقيتها في شتاء عام ٢٠٠٧م من قسم التاريخ في جامعة ويسترن انتاريو (Western Ontario) لإلقاء محاضرات في سلسلة برنامج جوان قودمن (Joanne Goodman). وهي سلسلة من المحاضرات التي سميت باسم طالب التاريخ الذي قتل بشكل مأساوي في حادث سيارة وتعود إلى العام ١٩٦٦م وتتكون من قائمة مميزة من المحاضرات. وقد كان لي شرف الانضمام إلى القائمة وأتيحت لي فرصة رائعة لمراجعة موضوع من اختياري. كما أشكر أعضاء الهيئة التعليمية والطلاب بجامعة ويسترن الذين حضروا محاضراتي وساعدوني على تنقيح أفكاري بأسئلتهم وتعليقاتهم.

وكنت محظوظة في العمل مع جونثان وير (Jonathan Weier) مساعد الباحث المتميز والذي أصبح في النهاية أقرب إلى شريك في كتابة هذا الكتاب. وكما هو الحال دائمًا، أشكر الأصدقاء وأفراد الأسرة الذين ناقشوا أفكاري معي وقرأوا مسوداتي بصبر. وهم قائمة طويلة ولكن أشير بشكل خاص إلى شقيقي توم وديفيد (Tom, David) وأختي آن (Ann) وزوجها بيترسنو (Peter Snow) وأبناء أخي دان والكس (Dan. Alex) ووكيلة أعمالي أيضاً كارولين داوني (Caroline Dawnay) والوكيل الكندي مايكل ليفين (Michael Levine) وكعادة والدتي، النود (Eluned)، كانت ناقدة ومصححة

رائعة. وعلى مدى سنوات علمني بوب بوثول (Bob Bothwell) الكثير من التاريخ مما يجعل من الصعب شكره بطريقة كافية وقد كان لطيفاً وتفضل بقراءة مخطوطتي وقدم نصيحته لي. كما استفدت كثيراً من وجودي بجامعة أكسفورد والنقاش مع زملائي الجدد المهتمين بكيفية استخدام التاريخ. كما أني مدينة بشكر خاص لآن ديتون وروز ماري فوت ولين فونج كونج وكالبسونيكولادس وآفي شاليم (Anne Deighton, Rosemary Foot, Yuen FoongKhong, KalypsoNicholaidis and AviShlaim) وأيضاً للطلبة في سان انتوني الذين استمعوا بهدوء لحديثي وأرسلوا معلومات كثيرة مفيدة. وأخيراً، وليس آخر، أشكر هؤلاء العاملين في دار نشر بروفايل والذين ساعدوا في إخراج هذا الكتاب إلى النور: أندرو فرانكلين (Andrew Franklin) وروثكيلك (Ruth Killick). شكراً لكم.

تعريفات

مؤسسة هستوريكا: هي مؤسسة خيرية وطنية في كندا مكرسة لتثقيف الفرد الكندي بتاريخ بلاده. تأسست في ١ سبتمبر عام ٢٠٠٩ بعد اندماج معهد دومينيون مع مؤسسة هستوريكا.

المورمن: جماعة دينية ثقافية، وهي ديانة بدأها جوزيف سميث في أواسط القرن التاسع عشر. وتعيش الغالبية العظمى منهم خارج الولايات المتحدة الأمريكية.

جيست: كلمة ألمانية تعني (الروح/ العقل) والمقصود بها هنا الروح اللامتناهية كما تظهر في فلسفة هيجل. وتقول نظرية هيجل بأن الوصول إلى الحقيقة العليا يستوجب النظر داخل أغوار النفس البشرية فالحقيقة تكمن داخل النفس حيث يمكن عن طريقها معرفة الله ومعرفة الحقيقة ومعرفة سبب وجود الإنسان على هذه الأرض.

معركة غاليبولي: تُسمى هذه المعركة باسم قلعة تركية تطل على شبه جزيرة غاليبولي على مضيق الدردنيل، وهي معركة حدثت عام ١٩١٥م أثناء الحرب العالمية الأولى وباءت بالفشل. قامت فيها قوات الحلفاء بشن الهجوم ضد الدولة العثمانية وكانت محاولة للاستيلاء على العاصمة العثمانية إسطنبول.

معهد دومينيون: أنشأه عدد من المختصين في عام ١٩٩٧م ويهتم باضمحلال الذاكرة الجمعية والهوية المدنية في كندا.

تقويم روسبيري (التقويم الجمهوري الفرنسي): هو التقويم الذي اعتمدته الثورة الفرنسية واستخدم من عام ١٧٩٣م - إلى ١٨٠٦م، ويتكون من ١٢ شهراً وكل شهر يحتوي على ٣٠ يوماً. مع إضافة ٥ أو ٦ أيام في نهاية السنة، وألغيت منها الأعياد والمناسبات الدينية والملكية.

سنة الصفر: ويقصد بهاعام ١٩٧٥م والذي سيطر فيه الثوار على السلطة ويرمي إلى تدمير التقاليد والثقافة القديمة وإحلال أخرى جديدة. ورفض التاريخ السابق لها

ماوري: السكان الأصليون لنيوزلندا وتدل الدراسات والاكتشافات الأثرية إلى أنهم سكنوا المنطقة في القرن الثالث عشر الميلادي قادمين من جزر بولينيزيا الشرقية في المحيط الهادي

جزيرة آيل أوف مان: جزيرة بين إنجلترا وإيرلندا وتتمتع بحكم ذاتي

ارنادورا ستار: هي سفينة بريطانية بنيت في عام ١٩٢٧م كعابرة للقارات والمؤن ثم حولت في عام ١٩٢٩م إلى سفينة رحلات للمسافرين وفي الحرب العالمية الثانية تحولت إلى سفينة حربية وغرقت في عام ١٩٤٠م في ظروف مثيرة للجدل وهي تنقل سجناء ألمان وإيطاليين إلى كندا

الاتفاق الجديد: هي مجموعة من القوانين والبرامج الاقتصادية التي طبقت في الولايات المتحدة أثناء رئاسة الرئيس روزفلت بين الاعوام ١٩٣٣- ١٩٣٦م لمواجهة كارثة الكساد الكبير وتركزت على مواجهة ثلاث ضرورات: الإغاثة، والإصلاح ، والإنعاش. وكانت تهدف إلى إعادة الاقتصاد إلى وضعه الطبيعي ومنع الكساد من الحدوث مرة أخرى.

ميدالية الصليب الأحمر الممتازة: جائزة تقدم لمنسوبي القوات الأمريكية الذين قاموا بعمل بطولي أو يفوق العادي في المهمات الجوية منذ ١١ نوفمبر١٩١٨م .

ما وراء الأطراف: مسرحية كوميدية بريطانية ساخرة قدمت في أواخر الستينيات على مسرح وست اند بلندن ثم عرضت في البرادوي بنيويورك.

بنات الاتحاد الكنفدرالي: منظمة أمريكية وطنية تأسست عام ١٨٩٤ للسيدات المنحدرات من الجنود الكونفدراليين وقدمت المؤسسة خدمات عديدة أثناء الحرب العالمية الأولى.

ماسادا (مسعدة): قلعة قديمة في أعلى جبل وتقع جنوب فلسطين وتطل على البحر الميت بناها هيرودس العظيم بين ١٨٣١-١٨٣٧ م .

ميدان تينامين (ميدان السماء): يقع في وسط بكين وتصل مساحته إلى ٤٤٠ ألف متر مربع. وفي عام ١٩٨٩م حدثت فيه مظاهرات قتل فيها المئات برصاص قوات الجيش.

صحوة الفصح: مظاهرات حدثت في دبلن في إيرلندا لإنهاء الحكم البريطاني في إيرلندا في عام ١٩١٦م واستمرت ستة أيام.

تاج محل: ويعني تاج القصور وهو ضريح شيده الملك شاه جهان الإمبراطور المغولي (١٦٣٠ م – ١٦٤٨م) لزوجته جامندبانوبيكم تخليداً لذكراها.

هندوتافا: كلمة تشير إلى الهنود وثقافتهم وتقاليدهم واستخدمت لأول مرة في عام ١٩٢٣م.

حضارة هَرَبَّه: حضارة وادي السِّنْد وهي من أولى الحضارات العظيمة. بدأت هذه الحضارة في الازدهار قبل نحو ٤٥٠٠ عام، وكانت تتمركز في أودية النهر الشاسعة، وهي المنطقة التي تُعرف الآن باسم باكستان، وشمال غربي الهند. وتُسمى هذه الحضارة في بعض الأَحيان بـحضارة هارابا. واكتسبت هذه الحضارة اسمها من اسم مدينة هارابا الباكستانية، ولقد عمل سكانها بالزراعة والرعي والتجارة.

فيدا: (الحكمة والمعرفة والرؤية) كتاب الديانة الهندوسية المقدس المكتوب باللغة السنسكريتية وهو من وحي الآلهه حسب المعتقد الهندوسي ويقع في ٨٠٠ مجلدٍ تقريباً تم تأليفه منذ ١٠٠- ١٥٠٠ ق.م سنة تقريباً، وهي النصوص المقدسة من الترانيم والتراتيل لدي الآريين الهنود. وهو منظم للحياة الاجتماعية والقانونية والدينية للهنود اليوم.

معركة واترلو : معركة قرب بروكسل هزم فيها نابليون في عام ١٨١٥م من قبل القوات الإنجليزية والبروسية.

معركة دنكرك : حدثت بين ألمانيا النازية وقوات الحلفاء على الجبهة الغربية في الحرب العالمية الثانية وكانت آخر الموانئ الفرنسية التي تحت سيطرة الحلفاء.

معركة ستالينجراد : إحدى أهم المعارك الكبرى والفاصلة التي شهدتها الحرب العالمية الثانية بين ألمانيا النازية والاتحاد السوفيتي في الفترة ١٩٤٢م - ١٩٤٣م.

معركة جيتيسبورغ: واحدة من أهم المعارك في التاريخ الأميركي وفي الحرب الأهلية الأمريكية واستمرت حوالي أربعة أعوام ما بين عامي ١٨٦١م و١٨٦٥م في جيتيسبرق في ولاية بنسلفانيا بين قوات الاتحاد والجيش الكونفدرالي.

معركة فيمي ريدج : دارت رحاها اثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨م)، وحققت فيها القوات الكندية نصرًا مؤزرًا على الألمان. في هذه المعركة، استولى الكنديون على فيمي رودج، وهو تل ذو موقع إستراتيجي يقع بالقرب من مدينة أراس في شمال فرنسا.

١١ نوفمبر: هو يوم الذي يشير إلى نهاية الحرب العالمية الأولى وتوقيع المعاهدة بين دول الحلفاء وألمانيا وأيضاً يتم الاحتفال بالجنود الذين ماتوا وهم يؤدون الواجب دفاعاً عن بلادهم

أسقف كانتربيري: رئيس الكنيسة الإنجليزية وكذلك الزعيم الرمزي لجميع أتباع المذهب الإنجليكي المسيحي، ومقرها مدينة كانتربيري في مقاطعة كنت جنوب إنجلترا.

قصر كارنورفون: قلعة شيدت في القرون الوسطى في شمال غرب مقاطعة ويلز.

اغتصاب نانينج أو مذبحة نانينج: هي مذبحة قام بها الجيش الياباني بمدينة نانجنغ الصينية في الحرب الثانية بين اليابان وجمهورية الصين واستمرت ستة أسابيع في عام ١٩٣٧م وقتل فيها مئات الآلاف من الصينيين المدنين والعزل.

يهودا والسامرة: تاريخياً وحسب الكتاب المقدس المقصود بها مملكتي يهودا في الجنوب والسامرة في الشمال، وحالياً يقصد بيهودا كل المنطقة الممتدة جنوب القدس بينما منطقة السامرة تشير إلى المنطقة الواقعة شمال القدس.

جوش ايمنوم: حركة ماسونية إسرائيلية. التزم الجناح اليميني فيها بتأسيس مستعمرات يهودية في الضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان. وظهرت بوضوح في عام ١٩٧٤م الا أن نشأتها تعود إلى عام ١٩٦٧م بعد انتصار اسرائيل في حرب الأيام الستة. وتعتمد في بناء المستعمرات على الإيمان بأن الله منح فلسطين لليهود وأن ذلك مذكورٌ في التوراة. وعلى الرغم من أنه لا وجود رسمي للحركة الآن إلا أن تأثيرها لا زال موجوداً في المجتمع الإسرائيلي.

الشارة السوداء: يستخدم المصطلح للإشارة إلى موقف السكان الأستراليين السياسي وهو موقف يقلل من إنجازات الماضي ويشجع على الشعور الحكومي بالذنب ويعيد ذكرى الظلم الذي عانوا منه ويطالب بالإصلاح.

كوكلكس كلان: وتختصر أحياناً بالأحرف الثلاثة الأولى للكلمات المكونة لها وهو اسم يطلق على عدد في المنظمات الأخوية في الولايات المتحدة منها القديم

ومنها من لا يزال يعمل حتى اليوم. وتأسست عام ١٨٦٦م من المحاربين القدامى في الجيش الكونفدرالي وتؤمن هذه المنظمات بتفوق العنصر الأبيض ومعاداة السامية والعنصرية ونبذ الميول المثلية ومعادة الكاثوليكية وتستخدم العنف. ولديها لباسها الخاص الذي يخفي الهوية ويتكون من رداء وقناع للوجه والرأس وكلها باللون الأبيض.

اينولا جي: طائرة حربية أمريكية وسميت هذه التسمية نسبة إلى والدة بول تيبيتس وهو من أفضل الطيارين الأمريكيين، وهو أول طيار أمريكي يُلقي القنبلة النووية على هيروشيما سنة ١٩٤٥م، والتي قتل بسببها الكثير من اليابانيين ولا تزال آثارها باقية

كنيسة ذكرى القيصر وليم الأول: بناها القيصر وليم الثاني في ذكرى تاريخ جده القيصر وليم الأول عام ١٨٩١ وتعرضت للقصف في الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٣ ثم أعيد بناؤها في السنوات ١٩٥٩- ٦٣ وهي من معالم برلين المهمة.

انشلوس: عملية عسكرية تم بموجبها ضم النمسا إلى ألمانيا النازية في عام١٩٣٨ وبقيت النمسا جزءاً من ألمانيا حتى نهاية الحرب عام ١٩٤٥م.

ثوسيديديس (٤٦٠ -- ٣٩٥ ق.م.) مؤرخ إغريقي شهير وفيلسوف سياسي ويعد أول المؤرخين الإغريق الذين اهتموا بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية وأولوها أهمية خاصة ويعتبر أب التاريخ العلمي بسبب المعايير الصارمة التي اتبعها ووضعها والخاصة بالأدلة والتحليل والمسببات والنتائج.

فقاعة تكنلوجيا المعلومات: تشير إلى حالة اقتصادية امتدت من عام ١٩٩٦م تقريبا وحتى ٢٠٠٠م ونمت فيها أسواق المال الخاصة بالإنترنت مع تطور الشبكة

العنكبوتية العالمية وتميزت هذه الفترة بإنشاء عدة شركات تعمل في مجال الإنترنت ويشار لها عادة بدوت – كوم.

بيرل هاربر (ميناء اللؤلؤ): هجوم بري مباغت شنته القوات الإمبراطورية اليابانية على الأسطول الأمريكي في المحيط الهندي في قاعدة ميناء بيرل هاربر في ١ ديسمبر عام ١٩٤١ وكان هذا الهجوم السبب في دخول الولايات المتحدة تُطرفٍ في الحرب العالمية الثانية.

قراءات إضافية

FURTHER READING

There is a large and growing literature on the uses and abuses of both history and memory. The following is a list of some of the work I found most useful.

Abu El-Haj, Nadia *Facts on the Ground: Archaeological Practice and Territorial Self-Fashioning in Israeli Society.* Chicago: University of Chicago Press, 2002.

Appleby, R Seen, "History in the Fundamentalist Imagination". *Journal of American History* 89, No. 2 (2002).

Arnold, John H. *History: A Very Short Introduction,* Oxford: Oxford University Press, 2000.

Bacevich, Andrew J. "The Real World War IV". *Wilson Quarterly 29,* No. 1 (Winter 2005).

Bell, Duncan, ed, *Memory. Trauma, and World Politics: Reflections on the Relationship Between Past and Present* Basingstoke, U.K: Palgrave Macmillan, 2006.

Black, Jeremy. *"The Curse of History.* London: Social Affairs Unit, 2008.

Brundage, W. Fitzhugh. *The Southern Past.* Cambridge, Mass; Harvard University Press, 2005.

Cannadine, D avid , ed. *What Is History Now?* Basingstoke, U.K.; Palgrave Macmillan, 2002.

Carr, E. H. *What Is History*? London: Macmillan, 1961.

Collingwood, R. G, *The Idea of History.* Rev. ed. Oxford: Oxford University Press, 1994.

Delisle, Esther, *Myths, Memory, and Lies: Quebec's Intelligentsia and the Fascist Temptation, 1939-1960.* Westmount, Q.C.: Robert Davies, 1998.

Evans, Richard. *In Defence of History.* London: Granta, 2000.

Fischer, David Hackett. *Historians' Fallacies: Toward a Logic of Historical Thought.* New York: Harper and Row, 1970.

Gardner; Lloyd C., and Marilyn B. Young. *Iraq and the Lessons of Vietnam; or, How Not to Learn from the Past.* New York: New Press, 2007.

Geary, Patrck J. *The Myth of Nations: The Medieval Origins of Europe.* Princeton, NJ,: Princeton University Press, 2002.

Gillis. John R, ed. *Commenorations: The Politics of National Identity.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1994.

Halherstarn, David, "The History Boys", *Vanity: Fair;* Aug. 2007. *History & Memory* (Journal),

Hobsbawm, Eric, and Terence Ranger. *The Invention of Tradition.* Cambridge, UK.: Cambridge Univirsity Press, 1983.

Howard, Michael. *Captain Professor: The Memoirs of Sir Michael Howard.* London; Continuum, 2006.

---------. "The Use and Abuse of Military History." *RUSJ Journal 107* (Feb. 1962).

Judah, Tim. *The Serbs: History, Myth, and the Destruction of Yugoslavia.* New Haven, Conn.: Yale University Press, 1997.

Karlsson, Klas-Göran, and Ulf Zander, eds. Echoes of the Holocaust: *Historical Cultures in Contemporary Europe, Lund, Sweden:* Nordic Academic Press, 2003.

Khong, Yuen Foong. *Analogies at War: Korca, Munich, Dien Bien Phu, and the Vietnam Decisions of 1965.* Prineton, N.J.: Princeton University Press, 1992.

Lebow, Richard Ned, Wulf Kansteiner, and Claudio Fogu, eds, *The Politics of Memory in Postwar Europe.* Durham, N.C.: Duke University Press, 2006.

Linenthal, Edward T., and Tom Engelhardt, *History Wars: The Enola Gay and Other Battles for the American Past.* New York: Henry Hole, 1996.

Lowenthal, David, *The Heritag Crusade and the Spoils of History.* Cambridge, U.K,: Cambridge University Press, 1998.

May, Ernest R. *"Lessons" of the Past· The Use and Misuse of History in American Foreign Policy.* New York: Oxford University Press, 1973.

Murray, Williamson, and Richard Hart Sinnreich. *The Past as Prologue: The Importance of History to the Military Profession.* Cambridge, U.K.: Cambridge University Press, 2006.

Neustad, Richard E., and Ernest R. May, *Thinking in Time: The Uses of History for Decision Makers.* New York: Free Press, 1986.

Nobles, Melissa. *The Politics of Official Apologies.* New York: Cambridge University Press, 2008.

Novick, Peter. *The Holocaust in American Life..* Boston: Houghton Mifflin, 2000.

Pappé, Ilan. *The Ethnic Cleansing of Palestine.* London; Oneworld, 2006.

Record, Jeffrey. "The Use and Abuse of History: Munich, Vietnam, and Iraq". *Survival* 49, No. 1 (Spring 2007).

Winter, Jay. *Remembering War. The Great War Between Memory and History in the Twentieth Century.* New Haven. Conn: Yale University Press, 2006.

Winter, Jay and Antoine Prost. *The Great War in History: Debates and Contravenes, 1914 to the Present.* Cambridge, U.K.: Cambridge University Press, 2005.

Yoshida, Takashi. *The Making of the "Rape of Nanking": History and Memory in Japan, China, and the United States.* New York: Oxford University Press, 2006.

كشاف الموضوعات

ي